ايفو أندريتش

تقديم:

عبد الرحمن منيف

ترجمة:

زهير خوري

ايماءات

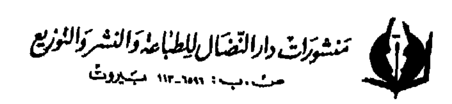
مجموعة قصصية

- ايڤو أندريتش -

إيماءات

مجموعة قصصية

تقديم: عبد الرحمن منيف ترجمة: زهير خوري


منشورات دار النضال للطباعة والنشر والتوزيع
ص.ب: ١١٣-٦٥٩١ بيروت

الكتاب: «ايماءات»

المؤلف: ايفو أندريتش

المترجم: زهير خوري
الناشر: دار النضال
فاكس 961-9-540810
ص. ب: 6596 -113 بيروت ـ لبنان

تصميم الغلاف: بولس سليمان
المطبعة: انطون روحانا الشمالي ـ درعون ـ لبنان ـ هاتف 961-9-903316

الطبعة: الأولى 1998

الصف والاخراج: شركة حوار للصحافة
فاكس 945257 -9 - 961 بيروت ـ لبنان

زرقاء يمامة البلقان

تقديم عبد الرحمن منيف

يعتبر ايفو أندريتش، الكاتب اليوغسلافي المولود في البوسنة، من الكتاب العظام في هذا القرن، ليس لما تركه من آثار ادبية فحسب، بل وللنظرة الرؤيوية الكامنة وراء هذه الآثار، والتي مكّنته من استشفاف الآتي. ومما يزيد في اهمية هذا الكاتب الكم المتزايد والجديد من انتاجه، الذي يتوالى صدوره حتى بعد غيابه، والمتمثل بالرسائل التي كتبها للآخرين، والاوراق الخاصة التي خلفها. هذا عدا عن شهادات الاصدقاء، او من كانت لهم به صلة،وقد اضاءت هذه جميعها جوانب مهمة في مسيرته الادبية والحياتية، مما يدل على المكانة التي احتلها في حياته ثم بعد الغياب، وبالتالي التأثير الذي احدثه، وما يزال، في عقول وقلوب الكثيرين.

واذا كانت رواياته الثلاث الرئيسية، والتي حظيت باهتمام اكثر من غيرها، وهي: جسر على نهر درينا، وقائع مدينة تراقنك، والآنسة، معروفة بشكل اوسع من اعمال اخرى، فان هناك ايضاً مجموعة من الاعمال اخذت شكل:روايات قصيرة، وروايات غير كاملة، واخيراً روايات مركبة جرى اعدادها بعد وفاته، اذ جمعت اعتماداً على اوراقه، ونُسقت بطريقة اعطته قواماً محدداً، بحيث يتم التعامل معها الآن في سياق يساعد على رؤيته باكتمال ووضوح اكبر.

ثم هناك مجموعات القصص القصيرة: ايماءات، العطش،

بيتُ العزلة، الأطفال، عامٌ قلق، دروب ووجوه وبقاع، هيلين إمرأة لا وجود لها. وايضاً مجموعة من الكتب المتنوعة، وهي بين التأملات والانطباعات، اضافة الى تناول بعض الاعمال الفنية او حياة بعض المبدعين، وهذه تحدد نظرته الى قضايا اساسية، سواء عن الحياة والفن والموت، او الى انجازات فنية ومبدعين. واخيراً هناك مجموعاته الشعرية، وهي تمثل مرحلته المبكرة. حين اختار الادب، الشعر تحديداً، وسيلة للتعبير، بعد ان تقلص عمله السياسي.

الانتاج الذي خلفه اندريتش، اذن، وفير ومتنوع، مما يعني ان حصوله على جائزة نوبل عام ١٩٦١ كان عن جدارة واستحقاق.

لكن ما لا يقل اهمية عن كتاباته، او من خلالها، تلك الروح النبوية التي تجلت في مغزى اختياراته، وطريقته في تناول المواضيع، ثم الهواجس التي كانت تملأ نفسه حول مصير بلده، يوغسلافيا، هذا البلد الشقي الذي تحول الى شظايا، والذي لم تنته مأساته فصولاً بعد، وهنا يكمن الجزء الاكثر لفتاً للنظر في عبقريته، كشأن عدد من كبار المبدعين الذين رأوا قبل الآخرين، وحاولوا جهدهم منع الحرائق قبل اندلاعها.

ان اكثر ما يظهر عبقرية دوستويفسكي ليس الاسلوب الذي كتب به رواياته، وانما تلك القدرة على النفاذ الى اغوار النفس البشرية بعمق وشفافية، ورصد العواطف والتحولات والنوازع التي تتحكم بها، مما جعل تلك الروايات اضافات نوعية لفن الرواية ودورها، وايضاً ما وفرته لعلوم عديدة تتجاوز الادب الى علم النفس، ودوافع الجريمة، الى امور اخرى، ما جعلها تتجاوز الرؤية المباشرة، وتالياً دائمة التجدد.

ومثلما اثارت تلك الروايات اهتماماً منذ وقت صدورها، فهي لا تزال تؤثر الى الآن، ويتناولها النقاد والمتخصصون المعاصرون وكأنها صدرت بالامس فقط.

ما يقال عن دوستويفسكي ينطبق ايضاً على عدد محدود من الكتاب والفنانين المميزين، الذين تركوا بصمات قوية على الازمنة التي عاشوا فيها، واستمروا في ذلك، والى الآن.

ولعل ايڤو اندريتش واحد من هؤلاء الكتاب، اذ بالاضافة الى الجدة التي ميزت كتاباته، بحيث لا تزال تحتفظ بنضارتها وعمقها، فان جزءاً من اهميتها انها امتلكت قدرة على الاستشفاف مكنّها من قراءة المستقبل ولفت النظر الى ما هو آتٍ.

واذا كان بعض من الشعر العظيم تميز بحدسه، وامتلاكه حاسة التوقع، ربما نتيجة الالهام، فان الروائي العظيم، والرواية الهامة، وهما يصلان الى حالة الالهام، يسلكان طريقاً مختلفاً، ربما اكثر وعورة. لكن اكثر منطقية. فالرواية التي تستحق هذه الصفة، وهي تحلّق الى ارتفاعات عالية، وتكون قادرة على قراءة المستقبل، فانها تصل الى ذلك بقدر انغراسها في وحول الواقع، وطريقتها في استقراء الوقائع بصبر وتأنٍ، ومن خلال متابعة جميع مظاهر الحياة، لا للوقوف عند هذه المظاهر، واعتبارها الغاية او الهدف، وانما لاستخراج الجوهر، واستنباط القانون، ومعرفة سيرورة الاحداث والدوافع التي تملي المواقف، وتحدد السلوك، وبالتالي قراءة الاحداث والانسان معاً، وما يحركهما ويؤثر عليهما، من حيث السبب والنتيجة، لكن بطريقة لا تخضع لآلية بدائية، او تماثل فج، كما لا تغفل العواطف والغرائز، وما يطرأ عليها من تحولات.

حين نطبق هذه القاعدة على كتابات اندريتش، نتبين ان الكثير مما دوّنه في كتبه يجسد هذه القاعدة، التي كانت موضع شك في حينها، ومن قبل الكثيرين، خاصة وان يوغسلافيا كانت ترفل في واحدة من اكثر فتراتها ازدهاراً، وتنظر بتفاؤل نحو المستقبل، او هكذا كانت تبدو الصورة، وهكذا كانت تومئ اكثر الرغبات، بحيث يمكن ان تحقق المرحلة الجديدة ما عجزت عنه المراحل السابقة، وتتاح للاحلام القديمة المنكسرة فرصة ان تتجاوز انكسارها نحو افق اكثر رحابة واكثر رحمة.

اندريتش، رغم انه كان مع هذا التوجه، وداعياً لتجاوز الاحقاد والثارات، والمساهمة في بناء عالم جديد يرتفع ويترفع على ما ميّز الماضي من دماء وكراهية. نقول رغم هذه العواطف، فقد كان يهجس بعقله وقلبه، وبقراءة التاريخ، ان مثل هذه العواطف سوف تصطدم بجدران الكراهية والنظرة الضيقة والتعصب، وبالتالي فان الغد سيفجعنا، ويكشف مدى هشاشة الاحلام والتوقعات التي كانت تطفو على السطح.

لقد تحدث اندريتش باصرار، ودون كلل، قبل ما يزيد على نصف قرن، عما ينتظر هذا البلد الحزين من تشظّر ودماء. فعل ذلك وكأنه زرقاء يمامة يوغسلافيا، البلد الذي جعله مكانه المتوسط، والتعدد الذي ميز شعوبه من ناحية الاديان والمذاهب والتجاذبات، عرضة لصراعين: اطماع الخارج، والتآكل الداخلي. فحين تبدو في الافق امكانية ان يفلت من صراع الكنيستين الشرقية والغربية، اي موسكو والفاتيكان، اعتماداً على رؤية علمانية، فان القوى الكامنة وراء هاتين الكنيستين تسفر عن وجهها، وتحاول بوسائلها الحديثة، وبما تملك من

امكانيات، ان تصل الى ما كانت احدى الكنيستين مكلفة به، وهكذا يتوالى الصراع ويحتدم، ويعاد رسم الخرائط وفقاً لموازين القوى.

فاذا تراجع الصراع الخارجي، واخذ ايقاعاً هادئاً او اكثر خفاء، وشكّل ما يشبه الهدنة، فان قوى الداخل تقوم بما عجزت عنه القوى الخارجية، وكأن الناس يلتذون برؤية الدماء، ويستهويهم العذاب، او ربما يجتاحهم نوع من الحنين الى العنف، كاسلافهم القدامى، حتى لو ادى الى الانتحار الجماعي.

تحدث اندريتش بحرقة ووجع عن هذه الحالة التراجيدية، وكأنه يتوقع تكرارها مرة بعد اخرى، محذراً من عواقبها، والنتائج التي يمكن ان توصل اليها، ومطالباً بتحكيم العقل ولجم العواطف. وراغباً في ان يكون هذا المكان المتوسط، وهذا التعدد في الاديان والمذاهب، مصدراً للغنى، وجسراً لتلاقي الثقافات وتفاعلها، بدل ان يكون سبباً للتعاسة والتمزق والاحتراب، وبالتالي سبباً للندم ولذرف الدموع، ثم اطلاق اليد للزمن الاعمى ان يفعل فعله، لعل الجروح تندمل، خاصة حين يغيب الذين كانوا شهوداً على المأساة التي رأوها باعينهم.

لم يكتف اندريتش بان يقول ما يتوقع اعتماداً على التأمل والاستقراء، بل لجأ الى تاريخ هذا البلد تحديداً يتخذ مما حدث في ازمنة سابقة نموذجاً، لعل الاحياء يأخذون عبرة من الموتى، ويتجنبون ارتكاب الحماقات التي ارتكبها اجدادهم.

لجأ الى التاريخ ليكون مسرحاً وشاهداً على ما حصل، لا بهدف اعادة رواية الماضي، وانما بهدف تجنب ما سيأتي، اذا ظلت الامور تأخذ هذا المسار. ومن هنا تحديداً ينبع دور

الرواية التاريخية واهميتها، باعتبارها ذاكرة اضافية يمكن ان تجعل البشر اكثر استعداداً لادراك ما قد ينجم فيما لو ظلت العواطف هي التي تقود، والغرائز هي التي تحكم. لكن زرقاء يمامة البلقان، التي رأت قبل الآخرين واكثر منهم، لم يُصغ، بما فيه الكفاية، الى ما تقول، ولم يؤخذ بنبوآتها، او بما رأته، وهذا ما جعل الاخطاء تتكرر، والحماقات لا تنتهي.

هذه الملامح لاندريتش، والمستمدة من رواياته بالدرجة الاساسية، وقد تمت الاشارة اليها اثناء تقديم «حكايات من البوسنة» ومن ترجمة زهير خوري ايضاً، كان يفترض ان الصورة لهذا الكاتب قد اكتملت، وبالتالي ليس هناك ما يضاف، لكن اعادة قراءة اندريتش، ومقارنة ما كتبه بما حصل على الارض، ثم توالي الكتب التي تصدر، والتي يتضمن بعضها رسائله الى زوجته، والى الاصدقاء، ثم الدراسات عن مسيرته الفنية والحياتية، تجعله قابلاً لقراءات متعددة، مما يستدعي تأمل كتاباته مجدداً، واعادة ترتيبها مرة بعد اخرى، لنكتشف اكثر من السابق غناه ودوره.

واذا كنا قد اشرنا سابقاً الى موضوعات رواياته وبنيتها الفنية، فيجدر بنا، هنا، ان نتوقف قليلاً عند البنية الفنية لقصصه القصيرة، ومدى علاقتها بعالمه الروائي.

فاذا كان وليم فوكلر قد بدأ رائعته «الصخب والعنف» على شكل قصة قصيرة اول الامر، ثم اعاد كتابتها مرة ثانية وثالثة ورابعة، الى ان اصبحت الرواية الهامة كما نقرأها بشكلها الراهن، فان في الكثير من القصص القصيرة التي كتبها اندريتش تكمن النواة الاساسية لروايات كتبها، او فكر، وربما تمنى، ان يكتبها، لكن الوقت لم يمهله، او لم يمتلك المزاج

النفسي الذي يمكنه من ان يفعل ذلك، خاصة اذا عرفنا ان الحزن الذي سيطر عليه خلال فترة من الزمن لم يجعله سوداوياً فقط، بل - وهذه مجرد فرضية - زاهداً او مملوءاً بشعور اللاجدوى.

تكمن اهمية قصص اندريتش القصيرة، وفي هذه المجموعة عدد منها، في قابليتها على ان تقرأ بعدة طرق، لعل الاولى، وهي البسيطة، ان تقرأ كقصة قصيرة فقط، اي تقتصر على كونها تسجل حالة او لحظة، بكل ما في هذه الحالة او اللحظة من مفارقة ومتعة، وتكاد في نهايتها تنغلق الدائرة، باكتمال ما يريد ان يصوره، او ان يوصله كرسالة. أما الطريقة الاكثر اهمية في القراءة فهي حين نكتشف ما يميزها من مناخ ومن زمن.

فالمناخ السائد في اغلب قصص هذه المجموعة، كما في اعمال اندريتش الاخرى، يكاد يكون واحداً او متشابهاً، رغم تعدد الموضوعات. وهذا ما يجعل قصته تذكّر باخرى، او قصة تكمل الثانية، كما لو ان الكاتب لم يرتو، او لم يستنفد ما يريد قوله. وهكذا نرى ان الكثير مما يطبع مزَاج احدى الشخصيات ينتقل الى شخصيات اخرى، الى التي تليها، وكأن هذه الشخصيات مربوطة بحبل سرى يجمعها. ورغم تنوعها وتعددها يتولد لدينا شعور اننا نألف بسرعة هذه الشخصيات، او لنا بها سابق معرفة، لذلك نقبل عليها ونتابعها بجو من الرغبة لتقصّي ما آلت اليه، وكيف تعاملت مع الاحداث والازمنة التي مرت عليها تماماً، كما نقبل على اصدقاء غابوا عنا فترة ثم عادوا.

أما زمن السرد في اغلب هذه القصص، فانه يمتد ويتطاول

حتى يبلغ السنين في بعض الحالات، مما يشير الى مفهوم خاص للزمن القصصي عند اندريتش، وهو زمن يميل، من بعض الوجوه، على الرواية، لكنه، مع ذلك، مقنع، واحياناً ضروري، لاظهار المفارقة والتغير الذي يفرضه مرور الوقت.

وطريقة الكاتب، وهو يتعامل مع موضوعاته وشخصياته، ومن خلال مفهوم الزمن، يجعل القصة لا تكتمل الا ضمن السياق الذي حدده، وربما هي احدى مزاياه، اذ تنفتح الحالة وتنغلق في آن، كما تكتفي وتمتد بنفس المقدار. فاذا لم يكن امتدادها في شخصية اخرى مباشرة، فان هذا الامتداد ينتقل الى مخيلة القارئ، وقد انداحت دوائر متوالية حاملة معها اشياء وذكريات عاشها من يقرأ او عرف بها. ومن ذلك اعادة نسج الحادثة او الشخصية ضمن انساق متعددة، وهذا ما يخلق مستويات للقراءة اعتماداً على المناخ ذاته، وانطلاقاً منه، نحو آفاق اخرى، تبعاً لثقافة القارئ وتجاربه، وايضاً تبعاً لردود الافعال الناجمة عن مشاركة الكاتب، وعلى اكثر من مستوى، في اعادة تشكيل الحدث او الشخصية.

وحين نتوقف عند التفاصيل، او اللحظات النفسية المتنوعة والكثيفة، نشعر بالاسف وما يشبه الغبن، لان ما نريده ان يمتد ويطول قد انتهى، وكنا نود ان نعرف جوانب اخرى من الشخصية او الحدث. وهذا ما يؤدي، حكماً، الى ان تبدأ القصة، مجدداً، من نهايتها، لكي ينفتح الحدث او الشخصية على افق جديد او حياة جديدة، على الاقل في ذهن من يقرأها، ولعل هذا ما يطمح اي كاتب الوصول اليه.

واذا كنا قد اوردنا مقتبسات طويلة من كلام اندريتش في «حكايات من البوسنة»، عن تاريخ البوسنة، والعذاب الذي

عانت منه، وما تزال، واشرنا الى فلسفته في الحياة والموت والسلوك الانساني، وعلاقة الفرد بالجماعة، فان من الامور اللافتة في الكثير من كتبه ذلك الحزن القاتم الذي يغلّف حتى الضحكات، لان الموت مصلّت على الرقاب دوماً، وما الحياة سوى مساحة من الوقت يعبرها الانسان بكثير من الخوف والانتظار، مما يضطر هذا الانسان الى اختراع وسائل عديدة من اجل نسيان ما ينتظره، او ان يجعل عملية الانتقال اقل الماً واقل قسوة. ومثلما فعل الانسان الاول، وهو يرسم على جدران الكهوف تعبيراته التي تشير الى الرغبة، في محاولة للوصول اليها، فان الانسان الذي تلاه اخترع، او توصل الى، التعاويذ لمقاومة الخوف، ثم خطا خطوة اخرى، لكن بمكر هذه المرة، اذ غلّف خوفه بضجيج الغناء او ايقاع الرقص، ليوهم نفسه ان الحياة مديدة، وربما بلا انتهاء، ثم بالشعر ليكون سياجاً من اجل كسب المزيد من الوقت. والمزيد من الوهم، ووصل اخيراً الى القصّ، والذي يحمل في احد معانيه، بديلاً او تعويضاً عن الحياة.

يقول اندريتش: «... وكأن الحكاية تصبو، كما كانت تصبو اليه شهرزاد الاسطورية، الى خداع الجلاد، والى تسويف حلول المأساة الحتمية التي تهددنا، والى اطالة حالة التوهم بالحياة والديمومة» وهكذا نكتشف الدور الذي تلعبه القصة في حياة الانسان، وتجعل هذه الحياة اقل شقاء. اننا نصل الى ذلك، او نفعل ذلك، بهدف الوهم او رغبة النسيان، وهكذا نكسب المزيد من الوقت. وهذا الوقت يمكن ان يساعدنا على ان نكون اقل حماقة... اذا استوعبنا دروس الذين سبقونا، وهنا تحديداً تبرز اهمية الحكاية والتاريخ.

ان الحكاية تلعب دوراً مركزياً في صقل ارواح الشعوب، وجعل الانسان اكثر ادراكاً واكثر تواضعاً، والا سيدفع ثمناً باهظاً لاستمراره في الجهل والغرور. ولعل افضل ما يمكن ان نختم به هذا الكلام ما قاله اندريتش نفسه. قال: «لعل في الحكايات، الشفوية والمكتوبة، يكمن تاريخ البشرية الحقيقي. ولربما كان بامكاننا ان نقف من خلالها على فحوى هذا التاريخ او التكهن به، وذلك بصرف النظر عما اذا كانت هذه الحكايات تعالج الماضي او الحاضر».

ولعل «ايماءات» اندريتش، والتي ترجمها زهير خوري، تكون اسهاماً من الاثنين، لنا نحن العرب المعاصرون، في أن نكون اكثر ادراكاً واكثر تواضعاً لنسمع ايقاع الصعب الآتي.

إيماءات

يصعب على المرء إعطاء تفسير كامل لجو البلادة والحزن القاتل، الذي يخيّم على فنادق الريف نظراً لقلّة وسائل الراحة والنظافة والذوق داخلها. فكم من حجرة يسكنها معدمون تفيض بهجةً وهناءً. وكم من مرسم قابع في عِلِّيّات المباني، مُغبر، وغير مرتَّب وخالٍ من الأثاث أو يكاد، يتألّق فتنة وسحراً، وتبقّى صورته راسخةً في الأذهان. إن ما تفوحُ به غرفُ وقاعاتُ الفنادق الريفية لا يتعدّى كونه بؤساً بدائياً وبلادة. فلا يتسنّى للمرء أن يختلي مع نفسه لحظة واحدة. إنه في تماس دائم بالناس، دون أن يشعر بومضة فرح. حالة من فقدان الحياة قبل الموت، أو مجرَّد بقاء دون حياة. هذا هو الجو الذي لا يمكن تفسيره! وليس في نيَّتي إعطاء تفسير له. فإن اضطررت للمبيت في أحد الفنادق الريفية، فإنني أحتمل هذا الجو الكئيب، ببساطة، كما يحتمله الآخرون، وسرعان ما أبلى من حالة الكآبة. وما دمت أسعى إلى محو تلك الليالي من حياتي، محواً تاماً، فإنها تبقى عالقة في ذاكرتي أمداً طويلاً.

ففي إحدى الأماسي، وفي فندق من تلك الفنادق، جرى هذا التعارف، موضوع قصتي هذه. إنه ليس بالحدث السار، لكنَّه، على أية حال، حدث غير عادي، ولا يتكرر كل يوم.

كان جالسا قبالتي. ولما دنا مني، عرَّفني بنفسه: الأستاذ ف.إن تقاطيع وجهه، وسترته، وتصرفاته، كانت تنسجم بمجملها، إلى حد كبير، مع سائر الجو المحيط بي. رجل في متوسط العمر، عيناه زرقاوان، حزينتان، هادئتان، وكان حليق

الذقن على إهمال، وكان شارباه مشذّبين بشكل رديء، وقد هاجمهما الشيب قبل الأوان. ولم يكن فقير الملبس، لكنّ ثيابه كانت معلّقة على جسده دون عناية، بما يذكر بطريقة إرتداء العميان لثيابهم.

لم يُخفِ سعادته، للفرصة النادرة التي أُتيحت له، على حد قوله، للتحادث مع إنسان حكيم (وأنا في نظره إنسان حكيم)، لأنَّه قرأ عني في مجلة «علم النفس» التي يواظب على قراءتها، رغم أنه معلّم رياضيات، أحيل على التقاعد قبل الأوان.

إن هذا الرجل المتواضع في مظهره الدمث في كلامه، كان يتحدث بأقصى حدود الصراحة، ودون لف أو دوران، عن نفسه وعن حياته، بأدقّ خصوصياتها. وعليَّ أن اعترف بأنني أقدّر هذه الخصلة عالي تقدير، وإن إنساناً يتحلّى بهذه الخصلة، لا بدَّ أن يجذبني ويشدَّني إليه، وإن كنت لا أعرفه من قبل. فلقد ضاق صدري بالناس الذين يبالغون بالحذر، ويلجأون إلى الخبث، ويتمسكون بالشكليات. أمّا محدِّثي، فلم يكن ينتمي إلى هذا النوع.

أخبرني على الفور، بأن وعكة عصبية ألَّمت به قبل بضع سنوات، أو هكذا كان يعتقد الآخرون، وأنه ما زال يُعالج وقد يطول علاجه وقد يستمر إلى ما لا نهاية لا لسبب، سوى لأنَّه لم يكن مريضاً قط.

وإستطرد هذا الإنسان الهادىء قائلاً:

ـ لقد دمَّرتني النساء.

قال ذلك بصوت خفيض وبطريقة شبه رسمية. لكن ما نطق به، كان يتعارض كل التعارض مع ما يوحي به مظهره، وما تنبئ به تصرفاته. ولو أنه قال أيَّ شيء آخر عن شخصه،

لقبلته دون أيّة دهشة.

ـ النساء؟!

ـ نعم، أيُّها السيد. النساء، أو إمرأة، كما تشاء. لكنها الحقيقة بعينها. ولكن، أرجو أن لا تظن بأنني كنت منغمساً في الملذات، أو إنني كنت زير نساء. لا، بالعكس. فلقد كنت أحترس من النساء وأتجنّبهن طيلة حياتي. ولكن، رغم ذلك، حدث لي ما حدث. فأنا، لم أكن أبداً، وأرجو تصديقي، منغمسا في الشهوات، بل بالعكس تماماً. وحتى يوم كنت طالباً، لم أكن أصاحب الفتيات، أو أرتاد الأماكن التي ترتادها العاهرات، كما كان يفعل الآخرون. صحيح، حدث غير مرة، أن دَلَفْنا، أنا ورفاقي، بعد سهرات أنسٍ وسمر، إلى نوادٍ ليلية، حيث تصادف أمثالهنّ. لكنني، حتى في مثل تلك المناسبات، لم أكن أحيد عن مبادئي. فما كنت أسمح لأيٍّ منهنّ أن تدنو مني، بل كنت أتحدث معهنّ في أمور جدية،بكل تهذيب، كما يتحدث إنسان لإنسان. وكان رفاقي إذ ذاك، يهزأون مني لتصرّفاتي هذه. ولم يكن ذلك بالأمر اليسير أبداً. لكنني أمسكتُ عن هذه الأمور كلها، يوم كنت طالباً، ويوم صرت معلّماً فيما بعد. لأنني أدركتُ بأنَّ الموقف ازاء المرأة، كما أفهمه أنا، ينبغي أن يدركه كل انسان مثقف وأخلاقي. ولقد تطلّب هذا الامساك، عناءً كبيراً وصبراً أليماً. انني اعترف لك بذلك.

أمضيتُ السنوات الأولى، بعد تخرُّجي، معلّماً للرياضيات في الريف. فهدّتني الوحدة. ثم عُيّنتُ في احدى ثانويات بلغراد. وهنا بدأت متاعبي كلها. كان ذلك في العام الدراسي الأول. ففي أحد أيام تشارين المشمسة، دفعتني قوة خفيّة، خارج منزلي الصغير الضيّق، ووجدتُني في الشارع الرئيسي أمام

جمـهور غـفـيـر من الناس. دخلتُ مـحـلاً لبـيع الكتب، وحين خـرجتُ، توقّفتُ عند الرصيف، وبالتحديد، عند حافته، أراقبُ المارة والسـيـارات العـابرة. وفي هذه الأثناء، رأيتُ سـيـارة صـغـيرة، جميلة، تقـترب، مـحاذيةً للرصـيف، وتتوقف أمـامي تماماً، حيث أن مقدمتها لامست رُكبتي. وفُتحَ بابُ السيارة، وخرجتْ منها امرأة، بل قُلْ سيدة، جميلة، فارعة الطول، أنيقة، ومرَّت دانية مني، حتى أنني شعرتُ بِرُدْن معطفها يُلامسني. أمَّا السائق، فقد عاد الى مقعده، وبقيتُ أنا، واقفاً على حافة الرصيف، أمام السيارة، أتساءلُ بدهشة، عَما يحدث لي من غرائب. ونظرتُ الى السائق، خلسـةً، فإذ هو مغمض العينين. فإمّا يكون قد غفا، أو أنه يتصنّعُ ذلك. ولم تمض غير دقائق، حتى رجعت المرأة، فارعة القامة، حاملة بين يديها بضع صُرر ورُزم. ولما همَّتْ بدخول السيارة، سقطت من بين يديها صُرة صغيرة، لم أرَ في حياتي أصغر منها. ولأنني امرؤ يعي واجبه، انحنيتُ والتقطتُ الصرة، وأعدتها اليها. فنظرتْ إليَّ نظرة إمتنان، أرفقتها بابتسامة عذبة. ولئن تفرّستْ بي ملياً، وليس في ذلك ريب أو التباس، رفّتْ بأهدابها رفّاتٍ عجيبة، وكأنها تغمزني، ولكن بكلتي عينيها. فرفعتُ قبّعتي وانحنيتُ. وهذا من أصول اللياقة. وما أن انطلقت السيارة، حتى إعتراني إرتباك، وصعد الدم الى رأسي. وأعترفُ بأنني عانيتُ أرقاً تلك الليلة. فقد أردتُ أن أراجعَ بيني وبين نفسي، ما حدث لي، ولماذا وقعَ لي أنا بالذات. وبدأ يتضحُ لي، أكثر فأكثر، أن ما حدث لم يكن محض صدفة: توقُّفُ السيارة أمامي تماماً، ولعبة الصرر، ولا سيّما غمزات عينيها. فإن كانت إيماءات من قبلها، وهي إيماءات فعلا، فإنها تعني شيئاً محدداً، أي أنها أرادت أن

تقول شيئاً ما. فما هو؟ ومَنْ هي؟ هكذا كنت أتساءل، وأنا أتقلّب على سريري ساعات طويلة، أثناء الليل.

وفي الغد، وفي المدرسة، وأثناء ثرثرة عادية مع زميل (هو معلّم اللغات الرومانسية) [1] ودون أن أذكر ما حدث لي يوم البارحة، حرفتُ الحديث، وكأنه صدفة، إلى الموضوع الذي يهمني: النساء وإسقاط الرزم، الرجال والتقاطهم لها من دواعي اللياقة، ... وكان زميلي هذا، على صغر سنّه، خبيراً في هذه الشؤون. قال مبتسماً:

ـ حيلة قديمة تلجأ النساء إليها، حين يُريدن إقامة علاقة، فتُسْقِطُ المرأة شيئاً ما عند قدميها، وما على الرجل إلا إن يلتقطه. تشكرهُ لقاء ذلك وتبدأ العلاقة تلقائياً، ثمَّ تتطور آخذة مجراها.

فسألته:

ـ أكلُّ النساء؟ وحتى الشريفات مِنهنَّ؟

أجاب وهو يبتسم:

ـ كلُّهنَّ بالطبع. والفارق الوحيد هو أن الشريفات يُسْقِطن أشياء نفيسة، والعاديات، أشياء إعتيادية.

ـ ألا يشبه ذلك إيماءً بـ ...؟

ـ إنه إيماء بكل تأكيد. وما عليك إلاّ تقفّي الأثر، وملاحقة الطريدة حتى النهاية.

لم أرتح لرنّة صوتِه. كان فيها بعض الاستهتار. لكنني أيقنتُ أنه أصاب كبد الحقيقة.

إذن، ها هي الحقيقة كما تراءت لي. وقلت لنفسي: لقد

---

(١) الاختصاص بلغة روما القديمة او ثقافتها او شرائعها.

أزفَّت ساعتك، وربما لم تدرك ذلك في الحال. ولكن، أنَّى لي الآن أن أعرف من هي تلك الامرأة الجميلة؟ وأين سأعثر عليها ثانية؟ فإن شاء القدر ذلك ، فما عليَّ إلاَّ أن أنصاع لمشيئته، وأن ألَبِّي نداءه. فلِمَ تمنَّعتُ وأمسكتُ، إذن طوال السنين الماضية. ألا لكي أجد، ذات يوم، المرأة الحقيقية؟ وبالطبع، لا يجوز لعلاقة مثل هذه، أن تكون علاقة عابرة، أو مجرَّد مغامرة، لا .. بل يجب لها أن تتوافق مع مفاهيمي ومع منزلتي. ولكن، كيف؟ وأين؟

مرَّ يومان،وأنا في حيرة قاتلة، لا أدري ما العمل، وأيُّ قرار أتخذ. بيد أن صوتاً داخلياً كان يقول لي على الدوام: لقد آن الأوان. وفي اليوم الثالث، دفعني ضجري وقلقي خارج المنزل، ومررت صدفة أمام مبنى المسرح، وإذْ بي أرى بضع صور كبيرة، كُتِبَ فوقها بأحرف لافتة للنظر: مغنية الاوبرا الأولى: كاترينا مارانْسكا. وللحظة، اكتشفتُ أنها هي! فازداد ارتباكي، لأنني أجهلُ عالَمَ الفن، ولا أكنُّ له أيَّة مودة. فهكذا تربَّيتُ، والرياضيات هي مهنتي، فما بالك وهي المغنية الأولى! وكنت قد سمعتُ، من قبل، عَرَضاً، أن ثمَّة مغنيات، شريفات، يعشن حياة متواضعة، ويُكرِّسنها للدراسة والفن. ولازمني الأرق تلك الليلة أيضاً. وفي الصباح، عزمتُ أمري على شراء تذكرة للأوبرا، لما تأكدتُ من أنها تؤدّي الدور الأول في تلك الأمسية. إرتديتُ أحسن ما عندي من ثياب، واعتراني اضطراب شديد نتيجة للمجرى الجديد، وغير العادي، الذي بدأتُ أسلكه في حياتي. ولكن ما العمل؟

وأثناء عاصفة التصفيق، بعد المشهد الأول، بدا لي أنها قد لاحظت وجودي بين الجمهور، مع أنني تعمَّدتُ أن يكون

تصفيقي معتدلاً، حتى لا أكون محطُّ الأنظار، تاركاً للآخرين فرصة التبجُّح والظهور. وما أن بدأ الفصل الثاني، حيث تجلّى غناؤها المنفرد، حتى دوّتْ عاصفة تصفيق أشدُّ من الأولى. فانحنت مغنّيتي، مرتين على التوالي، ثم وجّهتْ نظرتها نحوي تماماً، ورفّت بعينيها، وابتسمت إبتسامة حنان ومودّة، كما فعلتْ قبل ثلاثة أيام في الشارع. ولكي تموّه وتُضلّل الأثر، إنحنت مرةً ثالثة، علّها ظنّتْ أنني بدأتُ أنا بالذات موجة التصفيق، فأرادتْ بهذه البادرة، الإعراب عن إمتنانها. وبدأتُ أرتجف من شدة إنفعالي. ولاحظتُ، فيما بعد، بأنها كانت تنتهز كل فرصة، لتسلّط أنظارها عليَّ. وأثناء الفصل الثالث، تسمّرتْ نظرتها باتجاهي، فبلّلني العرق، وبدأتُ أتململ في مقعدي. فقد تراءى لي، أن الجمهور برمته، لا بدَّ وأن لاحظ نظراتها. فتلّفتُ يمنة ويسرة، وإذ بجاري في المقعد الأيسر، ينظر إليَّ نظرة فضول واستطلاع وتعجب. وكذلك كانت نظرة جاري في المقعد الأيمن. وأرجّح بأنهما قد لاحظا نظرتها تلك. وأثناء الليل إنتابني أرق شديد، وكان نومي مضطرباً. لقد تراءى مصيري، أمامي، وكأنه باب مفتوح على مصراعيه. وتزاحمتْ في رأسي تساؤلات شتى. وبدا لي أن المكافأة التي أستحق، لقاء إنتظاري الطويل، الأليم، لا شكَّ آتية. وازداد يقيني بأن لا يجوز لي أن أتجاهل تلك الإيماءات الواضحة، أو أن أتوقف في منتصف الطريق. وما كنت أدري كيف أتصرّف. والحقُّ، إنني لُمتُها، ضمناً، بعض اللوم لأنها حشرتني في هذا المأزق. ولكن، أنّى لها أن تتصرف، تصرفاً آخر.؟

وبعد تفكير طويل، عزمتُ على مصارحة زميلي، معلّم اللغات الرومانسية. فهو امرؤ مرح، مفعم بالحيوية، متقد

الذهن، وكان يحيطني باهتمامه دوما. فرويتُ له قصتي بكاملها. في البداية، كان يستمع إليَّ، وعلامات الدهشة مرتسمة على وجهه، وكأنه في حيرة من أمره. لكن سرعان ما انفجرت أساريره، وأخذ يربت على كتفي بقوة، قائلاً:« تهانيّ أيها الزميل! هي، إذن، صاحبة الصرر! فيا لك من إنسان محظوظ يا زميل! ويا لك من صيّاد خطير وماكر. إنك لا تختار إلاّ الطرائد الثمينة».

وقد لاح لي أنه فهم قصتي على طريقته الخاصة، بسذاجة واستهتار. بيد أن الأهم من ذلك كله، هو أن زميلي يعتبر، هو أيضا، أن تلك الإشارات والإيماءات، كفيلة بظفري، ويرى أنَّ عليَّ أن أمضي إلى أمام وأن أثابر. وتعمدّتُ أن لا أبوح له بما نويتُ، لكنني كنت قد عزمتُ أمري على المضي حتى النهاية.

وفي التاسع والعشرين من شهر تشرين أول (أكتوبر) وهو يوم مولدي، كانت كاترينا تؤدي دور «توسكا» وهو أحد أدوارها المفضّلة. وبعد تفكير طويل، قررتُ أن أرسل إليها باقة ورد . وأنتَ تعرف أن مثل هذه الباقات تُرسل إلى المغنيات - وأن أرفقها برسالة. فاشتريت باقة جميلة من الورد الأحمر، وأحطتها عِلْماً، في الرسالة، ولكن بشكل مستتر، بأنني فهمتُ نظرتها، المرة الأولى، في الشارع الرئيسي، أمام محل بيع الكتب، كذلك علائم اللطف والمودة التي وهَبَتنِيها بين المشاهد، وأضفت بأن لطفها وعطفها قد لاقيا تجاوباً في أعماق نفسي. وكنت أؤمل، ضمناً، بأنها ستضمُّ بين يديها ورودي، لحظة ظهور «توسكا» أثناء المشهد الأول، حاملةً باقة زهور. لقد أردتُ أن أكون على بيِّنة من امري. فظهرتْ على خشبة المسرح، حاملة باقة ورود حُمر، وكانت تعانق الباقة وتشدُّها إلى

صدرها، وكانت تداعب الورود بعينيها. كنت أصيخ بسمعي إلى صوتها وأنظر إليها عبر تلك الظلمة، ولا أكاد أصدِّق ما أرى. فأنا لست مجرِّباً ولا خبيراً في أمور النساء، لكنني لم أخدع، رغم ذلك. إن هذه الإمرأة التي يصفِّق لها آلاف الناس في وَجْدٍ ونشوة، إنما كانت تهواني أنا. فلم يَعدْ في الأمر أدنى ريب. وفي تلك الليلة، لم أجد إلى النوم سبيلا، ولكن هذه المرة، من فرط سعادتي وتزاحم الأفكار في رأسي: ما هي الخطوة التالية؟ كيف ستتطور العلاقة بيننا؟ كيف سيتّحد إثنان، كانا إلى وقت قريب، إنسانين ينتميان إلى عالمين مختلفين؟ لقد ناقشتُ هذه الأمور جميعها، بيني وبين نفسي،وعزمتُ في النهاية على أن أكتب لها رسالة ثانية، وبدأتُها بالإعراب عن إمتناني لإيماءات الودّ والتشجيع، وأضفتُ بأنني لا أرضى أبداً، أن تبقى علاقتنا عند هذا الحد، وإنما أعتبر ضرورياً، إنطلاقاً من جدِّيتي ومنزلتي، أن تأخذ علاقتنا مجراها، وأن تَصِلَ إلى نهايتها الطبيعية والمنطقية. وفي ختام الرسالة، طلبت منها - وهو أمر طبيعي - أن نلتقي لكي نتحادث حول هذه الأمور. وصباح الغداة، سلّمتُ رسالتي إلى بوّاب المسرح. ولشدَّ ما كانت خيبتي كبيرة، لأنني لم أتلقَّ جواباً. وعجزتُ عن إيجاد تفسير لذلك. فلجأتُ، مرة أخرى، إلى زميلي في المدرسة، لاستشارته، وقصصت عليه حكاية الورود أثناء تأديتها لدور «توسكا». فهنَّأني. لكنه لم يستطع إيجاد تفسير حقيقي لصمتها.

قال مبتسماً:

- النساء على هذه الشاكلة. فكلُّهنَّ لعوبات ... عجيبات. فما بالك وهي «المغنية الأولى»!

إن المرء لا يستطيع أن يفرِّق بين مزاحه وجَده. فرجعت إلى نفسي، لا أدري كيف أتصرف؟ وتملَّكني شعور بأنني هُزمتُ وأنا على طريق الظَفر، وباتت تعتريني حالات من الإنفعال والإضطراب، وصار الموضوع كله، ثقيلاً مملاً.

وبعد مضيٍّ يومين، وجدتُ في علبه البريد، بأسفل العمارة، مطبوعاً صغيراً، وهو برنامج حفلة موسيقية خيرية، تشارك «هي» في إحيائها. وقد وُضع تحت اسمها، خط أحمر، بقلم عادي. فأنّى لي تفسير ذلك؟ فمن جهة لا تجيب على رسالة هامة، ومن جهة أخرى... ورغم ذلك اشتريت بطاقة لهذه المناسبة.ولشدَّما كانت مفاجأتي كبيرة، لمّا وقعتْ عيناي على زميلي ذاك داخل القاعة. والأعجب من ذلك، أنه لم يكن لوحده، وإنما كان بصحبته بضعة من الزملاء، المعلمين في الثانوية. كانوا يصوِّبون نظراتهم نحوي، بين حين وحين، وكانوا يتضاحكون. وتساءلت: كيف تواجدوا هنا؟ ولماذا؟ ولقد أزعجني ذلك. ومما زاد من إنزعاجي، أن كاترينا لم تنتبه إلى وجودي. فلِمَ أرسلتْ. إذن، ذلك البرنامج، ولِمَ أبرزتْ إسمها؟ أترى أرسله أحد آخر؟ كلا... ثم كلا! فإن لم تكن هي، فمن؟ ولماذا؟ فعزمتُ أمري على كتابة رسالة أخرى. وما من جواب! وفجأة، تذكرتُ الهاتف. ولكنني لم أعثر على اسمها في دليل الهاتف. فلجأتُ إلى بوّاب المسرح، لكنه لم يشأ أن يعطيني رقم هاتفها، متذرّعاً بحجة أن لو كانت أرقام هواتف المغنيات مشاعاً، لما توقّفت عن ا لرنين أبداً. فما فهمتُ ولا أدركتُ لماذا يفترض أن يتصل بها آخرون! أما أنا، فوضعي مغاير. واقتنع البوّاب بعد جدال، أن مسألتي جدّية، وأعطاني رقم هاتفها، بعد أن أكرمته ببعض نقود، واتصلتُ في الحال. فأجابني

صوت حاد: «ماذا تريد؟» (ولا أخفيك، إنني حينما أدخل دكاناً، وتبادرني البائعة بهذا السؤال، تتملكني رغبة في مغادرة المكان على الفور). فكررتُ لها اسمي، وتهجَّأته حرفاً حرفاً. وبعد صمت لم يَطُلْ، أجابني ذلك الصوت بأن الآنسة خارج البيت، وبأنها لم تحدّد موعد رجوعها، وسُدَّ الخط. فبتُّ في حيرة تامة. وعاودت الاتصال بها عن طريق الهاتف، مرتين أخريين، ولكن دونما نتيجة. فما أن أذكر اسمي حتى يأتي الجواب بأن الآنسة غير موجودة، أو يُسدُّ الخط في الحال.

ولجأت مرة أخرى الى زميلي، استشيره. فشرح لي الأمر كالتالي:«إنها تُحبُّكَ، لكنها لا تبتغي لقياك. لعلَّها ليست حُرَّة،... لربما ثمّة التزمات أخرى تمنعها ... فالنسوة، سر، لا يستطيع أحد معرفة كنهه».

قال ما قال وهو يقهقه دون مبرر، ولم يكن تفسيره واضحاً، ولا مقنعاً، ولا منطقياً. فإن كانت ملتزمة حيال شخص ثانٍ، فلِمَ قامتْ بتلك الإيماءات التي لا يختلف في أمرها اثنان؟

وجاءت الأيام التالية عبئاً ثقيلاً: أرق في الليل، وعدم قدرة على التركيز، في النهار، أثناء الحصص الدراسية. وبدأت تصرفات زملائي تنتهج منحىً آخر حيالي، وإنقلبت الأمور كلها رأساً على عقب. إن زميلي المعهود لم يَعد على مودّته وكياسته ووداعته، كما كان من قبل، بل بدأ يبالغ في مزاحه، ويتجاوز لبُّ الموضوع من خلال المزاح. إنه لم يَعُدْ يحرِّضني ويحثُّني على المثابرة. فقد قال لي ذات مرة: «دعكَ من هذا! إنها نزوات النساء، ليس إلاَّ. لقد قال أحدهم - وقد غاب اسمه الآن عن ذاكرتي: إن تُحب، تهلك » وعبثاً حاولت أن أشرح له بأنني لست طفلاً، وبأنني امرؤ جَدِّي، وبأنني لن أرضى أن تمضي

هباء سبع وثلاثون سنة من عمري، بقيت طيلتها، طاهراً مصوناً، لأنني فهمت الحب من جانبه الأخلاقي، ثم أن كاترينا هي التي بدأتْ بإيماءاتها لي، وليس العكس. فأشار عليَّ أن أكون قنوعاً بما حققته من نجاح، عن بُعد، ونصحني بأن أتوقف عند هذا الحد. صَدَقَ الذين كانوا ينعتونه بالطيش والنفاق.

وتنهدَ محدثي من أعماق صدره، ونظر إليَّ بعينيه الزرقاوين المتألقتين، نظرة حنان، وتابع حديثه على الفور:

- بربِّكَ، هل صادفتك في حياتك مثلُ هذه الحالة.. - واعتذر، سلفاً لفضولي – أحبَّتكَ امرأة، وقدَّمتْ لكَ أدلةَ على ذلك دامغةً، وأحببتها أنتَ بنفس القدر أيضاً، فما استطعتَ لقياها لكي تتحادثا وتستعرضا أمركما معاً؟! ان حالة كهذه، تودي الى الجنون. فأنا لا أستطيع التوقف في منتصف الطريق. لا... ثمَّ لا! هكذا هي طبيعتي. فبقليل من الحنكة، وبدون إكراميات، حصلت، في دار الأوبرا، على عنوان بيتها.

وفي أحد الأيام، حوالي الحادية عشرة نهاراً، طرقتُ بابها. فتحت لي الباب امرأة مسنَّة، وجهها ذو تقاطيع حادة، وعظامها ناتئة من تحت ردائها الأسود. كانت كلها في سواد. وتعرَّفتُ من نبرة صوتها، على أنها هي التي سألتني «ماذا تريد»، حينما اتصلت بالهاتف أول مرة. فتفرَّستْ بي للحظة، وسألتني:

- أأنتَ من المسرح؟

فتذكرتُ ما دارَ بيني وبين كاترينا، ولا سيَّما أثناء أدائها لـ «توسكا»، وأجبتُ:

- نعم ..ها أنا ذا... من المسرح.

فسمحتْ لي بالدخول. ولمَّا بدأتُ أوضّحُ لها الامر، وجدتُ أنها ندمتْ على ما فعلتْ. فطلبتُ أن أتكلم مع كاترينا، ورَجَوْتُها أن تبلغها من أنا، ولكن دون طائل. فقد كانت العجوز عنيدة، متصلبة في رأيها، وكانت تكرر دوماً بأن سيدتها خارج البيت. فقلتُ: «حسناً، سأنتظر». فقالت: «لا يمكنك ذلك، لأن الواجب يستدعي خروجي للقيام بعمل ما، وعليَّ أن أقفل الأبواب ورائي». وعلا صوتها، فَعَلا صوتي. وخرجنا معاً ونحن نتشاجر. ولمَّا افترقنا، وعدتُ بأنني سأعود ثانية، لأنه يتوجب علي أن أتحدث لسيدتها، وأن الآنسة ستعرف دواعي ذلك. فنادت العجوز على بواب العمارة، فشيَّعني هذا بنظرة فاحصة.

وفي ظهيرة الغداة، وبعد أن أنهيتُ حصصي الدراسية وهممتُ بالتوجه الى كاترينا لكي أراها مهما كلَّف الثمن، استدعاني مدير الثانوية الى مكتبه. ففي بادئ ذي بدء، لف ودار في حديثه. قال: «ان سلوكك الذي لمْ تَشُبْهُ شائبة حتى وقت قريب، يدعوني الآن للافصاح عن عدم ارتياحي، بل والى أن أوجِّه لك تنبيهاً، آملاً أخذه على محمل الجد. وإنني آسف على ذلك». وفي ختام المقابلة، نوَّه الى أنه على علم بالرسائل العديدة التي أرسلتُها الى كاترينا، وبالاتصالات الهاتفية، وبزيارتي لمنزلها وازعاجها ومضايقتها بشتى الوسائل. فلحظة سماعي ذلك، صعد الدم الى رأسي وترقرقتْ عيناي بالدمع. أأنا أزعجها وأضايقها؟! ولمَّا أتى على ذكر زميلي ومزاحه «البايخ» الذي يستحق العقاب، لم أعُدْ استطيع الاصغاء اليه. فلقد كنت في تلك اللحظة، أرفض كل حديث له علاقة بالمزاح أو بما شابهه. وأردتُ أن أشرح للمدير قصتي بتفاصيلها، لكن حنجرتي خانتني، فغصصتُ وفقدتُ القدرة على الكلام، لأنني

شعرت بظلم جائر لا أستحقه البتة. وما أن خرجتُ من مكتب المدير، حتى هرعتُ، على الفور، باتجاه منزلها، لأطلب منها توضيح الأسباب التي دعتها لالحاق هذا العار بي، وأنا منه بريء. فحاولت تلك الامرأة المسنّة، النحيفة، ذات الرداء الأسود، حاولتْ منعي من الدخول. فتخاصمنا وتعاركنا قليلا. ومع أنني لم أدفعها، أو هكذا بدا لي على الأقل، إلاّ أنها ارتمتْ أرضا، واندفعتْ الى الحائط. فوددتُ لو أعتذرُ لها واساعدها على النهوض، وإذْ بها تصرخ بعالي صوتها: «النجدة... النجدة»، وكأن أمامها لصاً قد اقتحم المنزل وسطا عليه. ومررتُ بجانبها، وأنا في حالة من غيظ وكآبة معاً، وأردتُ أن أنادي على كاترينا، لكي أزيل الالتباس الذي وقع، ولأكون على بيِّنة من أمري، ولأعرف ما الذي ينتظرني وكيف عليَّ أن أسلك.. أردتُ أن يتمَّ ذلك كله بأقصى حدود اللباقة وفي جو من المودَّة والهدوء. وفجأة لمحتُها، رأيتُ كاترينا، أبصرتُها كيف تهرع من غرفتها عبر الممر، وهي شبه عارية، منفوشة الشعر وكأنها جنية. دخلت الحمّام وأقفلت الباب بالمفتاح عليها. فتساءلتُ: لماذا أوصدت الباب؟ وبوجه من أوصدته؟ أبوجهي أنا؟ أأنا سفاح باطش؟ وآسفاه يا «توسكا»!

ووجدتُني في لحظة، غبياً، في بيت غريب، مخدوعاً، مَغْيوباً أكثر من أيِّ كان. واعتراني شعور بالعار والغضب، فلم استطع أن أتحكَّم بنفسي. وأحسست بدمي يغلي في عروقي وبدا لي أن أطرافي الأربعة جميعها تتناثر في كل صوب. كما بدا لي في نفس الوقت، أن أشياء معدنية وخزفية تتناثر وتتساقط عليَّ وعلى أرضية البيت، وتتحطَّم وتتطاير كأنها شظايا، وكأن ذلك من فعل ساحر. وقبل أن أستطيع اتخاذ قرار عاقل، قُرع

الباب، وكان وراءه البواب وعناصر شرطة.

ما أردتُ في البداية أن أفتح الباب لهم وأن أتبادل الحديث معهم، حول أمور خصوصية، ولا تهمُّ أحداً سوانا ولا تُعني إنساناً آخر غيرنا، نحن الاثنين، أنا وكاترينا. ولكن، وصل رجال المطافئ. فتصوَّر!

إنني لا أقوى، حتى الآن، على إستيعاب ذلك.أأنا قاطع طريق، أم إنني من هواة إشعال الحرائق في بيوت الآخرين؟ ولكي أتجنَّب أي صدام وأيَّة فضيحة، سلَّمتُ نفسي لهم، فقادوني الى مركز الشرطة، فالى مشفى، حيث قضيتُ ثلاثة أشهر ويزيد، تحت مراقبة دائمة، ومن ثم منحتُ إجازة مرضية وأحلتُ على التقاعد. وهاءنذا الآن، أعيش مع شقيقتي. هذا هو «تاريخي» الذي لم أكن مسببا لأحداثه ولا لما أعانيه. إنني لبريء من كل ذلك كل البراءة.

فعذرك أيها السيد. لعلَّني أدخلت السأم والملل الى صدرك ولعل قصتي بكاملها لا تثير اهتمامك، لا من قريب ولا من بعيد. ولكن، صدِّقني وأرجوك أن تفعل.. صدِّقني إن قلت، بأنني أتساءل على الدوام: لماذا أقدمت تلك المرأة على القيام بتلك الايماءات، ولماذا سختْ ذلك السخاء الكبير بالعطف عليَّ وأبدتْ كل ذلك الاهتمام بي. ولمَّا نويتُ، كوني لا أحيد عن الصراط المستقيم ولا عن أصول المنطق، أن يكتسب حبنا المتبادل قالباً قانونياً، مُشرّفاً، فإنها عاندتْ وصدَّتْ. وإني لا أستطيع حتى اليوم استيعاب ذلك. فقل لي. بربِّك، ولكونك إنساناً حكيماً، هل تستطيع فهم ما حدث؟ وهل بإمكانك حل هذا اللغز؟

لم يكن منفعلاً. لكن صوته وتقاطيع وجهه، إنما كانا

يعبِّران عن قلق شديد. كان ينتظر منِّي جواباً. ترددتُ للحظة:
فإما أن أقحم نفسي، بكل صدق وإخلاص، في نقاش مع «هذا الرجل الذي دمَّرته النساء»، وأنا أعلم مسبقاً بانه لن يُجدي، وإما أن أدعه لأفكاره وقناعاته. فتغلَّب نصفي الضعيف، الكسول، الأناني، وأجبتُ بتواضع كبير:

- لا.. لا أفهم، وليس بإمكاني حل هذه الأحجية.

هزَّ كتفيه وشرَّع ذراعه اليسرى بحركة تمثيلية.

- كما ترى، أن أحداً لا يفهم ذلك. لا أحد!

وكان قد نهض عن مقعده. ونهضتُ أنا. ولفَّنا صمت كئيب. وفجأة، وكأن محدِّثي قد استيقظ من سبات عميق، وكأنه عقد العزم على أمر ما، دنا مني حتى لامستْ شفتاه أذني، وقال بما يشبه الهمس:

- أود لو تعلم أن نسوة هنا، يومِئْنَ إلي أيضاً، وبالذات بعض فتيات. إن إحداهنَّ قد رفَّت بعينيها الاثنتين، كما فعلت كاترينا تماماً، أمام محل بيع الكتب. لكنني...

وفي هذه اللحظة بالذات، وضع سبَّابته على فمه، ثم أزاحها على الفور، وكأنه بهذه اللمسة قد ختمه بالشمع. ومن ثم، باعدَ ما بين ذراعيه، لاصقاً ذُرْوَتَيْ الابهام والسبَّابة على كل يد، متخذاً وضعية إنسان يسير على أنامله، بحذر، وكانه لا يسمع شيئاً ولا يرى شيئاً ولا يريد أن يثير إنتباه أحد إليه. كان خفيضَ العينين، منقبضَ الشفتين، وكان وجهه كله يُسفر عن تعبير غريب، عن ابتسامة ظافرٍ، استطاع بمكره، أن يخدع وأن يتجنَّب خصماً خطيراً.

عيد الشفيع

ثمّة في مدينة سراييفو، حتى يومنا هذا، أزقّةٌ قديمة تتميّز بانحدارها الشديد، وبالحجارة الناتئة التي ترصف أرضيتها، وبنَسَق بيوتها والجُنَيْنات التي تفصل بينها.

قبل نصف قرن ويزيد، في واحد من هذه الأزقة، كانت تعيش أسرة «ألويزْ ميشيتْش بان»، الموظف الصغير في القسم الثالث لحكومة عموم البوسنة والهرسك، وزوجته وأطفالهم الثلاثة (ابنتان وصبي، بِكْرُهم فتاة في الخامسة عشرة من عمرها). وُلِدَ الأب في البوسنة الوسطى من أسرةٍ ينتهي نسبها إلى «بان»، وهي عائلة كبيرة، متفرِّعة غاية التفرُّع، فَرَضَتْ عليها السلطاتُ الجديدة، إثر الاحتلال النمساوي، لقب مِيشِيتْش. لكنَّ اللقب القديم بقي سائداً بين معارفهم، وبين أفراد العائلة حين يتخاطبون فيما بينهم أو يتكلمون عن أنفسهم.

أنهى «بان» الصف الرابع في الثانوية الرهبانية. (كانت تقاليد العائلة تقتضي بأن يصبحَ فردٌ من كل أسرة راهباً) وبدون سابق إنذار، انقطع عن المواظبة، متمرِّداً على كل ما حوله. كان تمرُّده أشبه بجنون صبياني. وما أن تعافى، حتى سُمِحَ له بمتابعة تعليمه. إنتقل الى سراييفو وحالفه الحظ، فتوظف كناسخ على أساس المُياوَمَة.ثمَّ خدم الجندية، حيث أتقن اللغة الالمانية ووصل الى رتبة ضابط صف. وبفضل

طاعته لرؤسائه، وجدارته، وبخاصة لحظه الجميل، نُقِلَ إلى قسم إداري لحكومة عموم البوسنة والهرسك وثُبِّتَ في وظيفة «مساعد»، بأدنى المراتب الوظيفية، مع تحديد مسبق لسقف ترفُّعه.في ذلك الحين، تزوج من إبنة أحد خيَّاطي سراييفو المعروفين، وكانت ملكة جمال حقاً. ولقد اشتريا قبل بضع سنوات، هذا البيت الأرضي في الزقاق المنحدر، بقرضٍ، ما زالت تُسدِّد أقساطه.

إن «بان»، رجل ضئيل الجسم، أقرب إلى القصر منه إلى الطول، عيناه زرقاوان كبيرتان لا تقويان على التحديق. ويُزيِّن وجْهَه شاربان قصيرانِ مشذَّبان بعناية. ومَلْبسه دليل على حسن العناية أيضاً. إلاَّ أن انزواءه هو ما يلفت النظر بشكل خاص. حياةٌ هادئة لا لون لها، حياة إنسان بوسني، موظفٍ صغيرٍ في إحدى دوائر الدولة، في مطلع هذا القرن. لا يُدخِّن ولا يشرب الخمرة، إلاَّ مرة واحدة في السنة، في عيْد شفيعه، الذي يصادف في أواسط الصيف.

في مساء ذلك اليوم، يحتفل «بان» بِعيدِهِ على طريقته الخاصة، متوارياً، ولكن وِفق طقوس لا يحيدُ عنها.

في ذلك اليوم، يسعىَ الناسخ إلى تقصير ساعات عمله، في فترة ما بعد الظهيرة. وفي طريق عودته إلى البيت، يقصدُ حانةً ويَحتسي قدحاً أو اثنين من الراكيا، وينتحل عذراً من الأعذار ليعزم أحداً من رُوَّاد الحانة على كأس. فإن لم يجد أحداً، يعزم النُدل الأشيب الشعر، الأسمر الوجه، على قدح. وفي الطريق، يشتري زجاجتين من نبيذ «موستار» الشهير،وعلبةً من أفخر السجائر. كما يشتري للأطفال فاكهة أو سكاكر. ثم يتجه نحو بيته، صاعداً زقاقه ببطء، وهو أشد

أزقة سرايبفو انحداراً.

وحين يصل البيت، تكون زوجته بانتظاره. تستقبله بحفاوة بالغة، لا تخفي، رغم كبرها، الألم الذي تفضي به مُقلتيها. تتناول الأسرة طعام العشاء في وقت مبكّر، في أول الغَسَق، وتكون المأكولات أفضل وأكثر تنوعاً، منها في الأيام العادية، ويدوم العشاء فترة أطول من المعتاد. يبدأ الناسخ باحتساء نبيذه، ويشحب لونه من شدة الانفعال. ويتلامس كأسان مملوءتان بالنبيذ: كأسه وكأس زوجته، نخب المناسبة. وتجمع الزوجة أعذب العبارات لتهنّئ زوجها بعيدِ شفيعه الذي يصادف في اليوم التالي، وتُعيدُ كأسها إلى المائدة، وما تكاد شفتاها تبتلان بالنبيذ. أما الأطفال فانهم يُقبّلون يدَ أبيهم وينصرفون: الصغيران إلى النوم، وتبقى الإبنة الكبرى «لوتسيّا»، لِتُساعد أمها في المطبخ.

تتنقّلُ الزوجة في أرجاء المنزل على أناملها، وتنتحلُ عشرات الأعمال الصغيرة، لتدخل الغرفة التي يُحضِّر فيها زوجها طقوسَ احتفاله، بهدوء وهو في كامل اتزانه. وإمارات القلق والخوف لا تفارق وجهها. وحينما تلتقي عيناها بعيني زوجها، حينها فقط، تلتمع عيناها بابتسامة يشوبها خيط من خوف.

ولمّا هبط ظلام الصيف، كانت الغرفة جاهزة لبدء الاحتفال. فَتَحْتَ مصباح خزفي كبير، مضاء، صورة الناسخ، ومزهريّة رخيصة تحتوي على أزهار الصيف. وعلى المائدة، نبيذ وكأسان، وعلبة السجائر التي فُضّت، دون أن تحرق منها حتى سيجارة واحدة.

كان «بان» يرشف النبيذ من كأسه، رشفات قليلة، لكنها

متقارية ويذرع غرفته طولا، جيئةً وذهاباً، ويدندن بلحن عزيز عليه، وينظر إلى نفسه في المرآة الجدارية، كلما مرّ بقربها، قادحاً ذاماً كلٌ من يتراءى له عبر اطار المرآة المذهّب، ضاحكاً منه، عابساً فيه. كانت نسمة دافئة تأتي من الجنينة عبر شبابيك الغرفة المفتوحة.

وكان الناسخ ما يني يتنقل بين كأسه والمرآة، مبتسماً، مكشراً على التناوب. مدمدماً بالفاظ قصيرة المقاطع:

– هِم،هِم! نَعَمْ،نعم!

ثم بدأ الناسخُ ينمو، فلم يَعُدْ إطارُ المرآة يستوعبه. وبدأت حركاتُ يديه تزداد نزقاً واتساعاً، ويزداد هو شموخاً. وبعد كل رشفة نبيذ، كان ينحني يمنة ويسرة، انحناءة سُخرٍ وازدراء. وبدأ صوته يعلو، والكلمات تتنضّد في جُمل، شبه واضحة، لكنها مترابطة.

وبين الفينة والفينة، كانت زوجته تدخل الغرفة، كأنها مصادفة، أو كانت ترسل ابنتها. وكان «بان» حينها يخفض صوته أو يقطع حركة كان قد بدأها، ثم بدأ يتخلّى عن ذلك. صار الآن يتكلم بلا انقطاع، ولما همّت زوجته اغلاق النوافذ، نهاها صائحاً:

– دعي ذلك! إن غداً يوم عظيم، مقدّس، جليل. وينبغي أن يبقى كل شيئ هذا المساء طليقاً، حُرّاً. ليس ثمة ما أخفيه، ولن أتوارى عن الأنظار. كفاني انحناءً وتصغيراً لنفسي، حتى أصبحتُ أصغر من حبّة الخشخاش، كما يُقال. إيه! لقد آن الأوان لكي أظهر بالحجم الصحيح.

وبحركة مسرحية، أفرغ الناسخُ كأسَه دفعة واحدة في جوفه.

فأشاحت زوجته بيدها اليمنى، بحركة لا ارادية،كأنها أرادت ردعَه أو مناداتَه. لكن زوجها بدأ يُدافع عن نفسه بحركات نزقة وبأجوبة لاذعة:

- لا .. لا. إنني أعرف جيداً، بأن هذا الحجم ليس بكبير، لكنه أكبر من حبَّة الخشخاش.دعينا، إذن، من حَبِّ الخشخاش. فأنا لا أريد أن أتصنَّع الصِغَر، ولا أن أتصنَّع الكِبَر. أريدَ أن أكون مَنْ أنا، بقَدْر ما أنا عليه.

باعدَ الناسخ ما بين ذراعيه نافخاً أوداجه شامخاً بأنفه، ناظراً إلى سقف الغرفة الواطئ، وكأنه سماءُ مرصَّعة بالنجوم، تُعانق قِمَّة جبلٍ شاهق. أما زوجته، فقد انسحبتْ، مرتعدةً، دون أن يُسمع لها حِسٌّ. فلم ينتبه إلى ذلك، وإنما تابع كلامه، وكأن زوجته وابنته ما تزالان موجودتان أمامه:

- ما بِكُمَا؟ لِمَ ترتعدان وتنفعلان؟ أَحلٌّ طاعون في البيت؟ لماذا تنظران إلي هكذا؟ لَمْ تنبت القرون على رأسي بعد. لستُ ثملاً، رغم أنكما تحسبان بأنني ثمل. أتخافان، لأنني طيِّب المزاج وأتكلم بصوت عالٍ؟.

إذن، لَكُما أن تخافا، لأن جَنينَيْكما قد تكوَّنا في ظلّ الخوف، وما كُنْتَما لتولدان إلاَّ من أجله. أما خوفي، فقد مات هذا المساء. مات دفعة واحدة! وإني لأشرب هذه الكأس على روحه. هكذا. فَلْيَرْقُدْ بسلام[1]! دعونا الآن نعيش قليلاً دون خوف. لنرى كيف يكون ذلك! إنها حالة غريبة بعض الشيء. رحابة من حولي ماتني تتَّسع. آفاق تتفتَّح، وكأن الهضاب المحيطة بسراييفو تهرب إلى مكان بعيد. إنني خفيف.. خفيف،

---

(١) باللاتينية في الأصل.

عليَّ أن أتمسك بشيء حتى لا أطير. إنني خفيف، لكنني قوي.
وقفَ الناسخُ رافعاً رأسه، مُتمسِّكاً بحافة الطاولة، مِثْلَ خطيب. بدتْ له الطاولة، صغيرةً، كدمية أطفال، تنطوي وتتلاشى بين راحتي يديه. فليس من السهل المحافظة على التوازن، اذا كانتِ النِسَبُ، حوله وداخله، في تبدُّل دائم. الأشياء، كل الأشياء، تتضاءل، أما هو، فيزداد ضخامة. حالةٌ مرعبةٌ بعض الشيء، حتى بَعْدَ زوال الخوف. حالةٌ غريبة. لقد باتَ كل شيء يُرى كما هو عليه، بلا أقنعة، ودون صيَغ مسبقة وألقابٍ مقرَّرة. أفكارٌ وصورٌ، ما كانت لِتخطر على بال، تتوارد.. تتوارد من تلقاء نفسها، دونما تكلُّف أو عناء.
حالةٌ مثيرةٌ حقاً: الناسخ «يقبض» على كأس النبيذ، وكأنها تُملأ تلقائياً، يُفرغها دفعة واحدة في جوفه. وبسرعة البرق، تفيض الخمرة نوراً في أحشائه، فترتسمُ أمامه مشاهد جديدة. اليكم مثلاً هذا المشهد: إنسان، يحتفل اليوم بعيد شفيعه، وِفْقَ قيمته الفعلية، لا وفْقَ درجةٍ وظيفيَّة، لا يعلم أحد
كيف، ولماذا آلَ بالصدفة اليها. لقد رأى، في دار الحكومة، رؤساء الأقسام الأربعة عشر، يتوجّهون الواحد تلو الآخر إلى «الحاكم المدني»، البارون «يوحنَّا فون كريغنِر»، مُهنئين بعيد شفيعه. في ذاك اليوم، قبل الظهيرة بأربع دقائق تماماً، غادروا مكاتبهم وهبطوا السلَّم، مُتدثِّرين بِجُبَبٍ من الحرير الأسود، والقبَّعات الاسطوانية الحريرية بيدٍ، والقفَّازات البيض باليد الأخرى. وفي البهو، كان رئيسُ حكومة البوسنة والهرسك يتقبلُ التهاني. كان رؤساء الأقسام يمرُّون أمامه، حسب مراتبهم، ينحنون مُهنئين، باسمهم وباسم «مرؤسيهم». لمْ يرَ الناسخ، بالطبع، هذا المشهد بنفسه، بل عرفه من وصف

الخدم، فكان يتصوَّره مِراراً ومِراراً. في ذلك اليوم، إنسابت نسمة عليلة دافئة في أرجاء المبنى الحكومي، وتَسَرَّبتْ إلى أَنأى المكاتب، حيث يجلس الناسخون والمسجِّلون.

إن هذه النسمةَ نفسَها، تنسابُ، الآن، عَبْرَ النوافذ المفتوحة في غرفته، ترفَعُهُ وتطيرُ به إلى بهو دار الحكومة. بدأ رؤساء الأقسام يتوافدون عبر الباب الكبير المفتوح على مصراعيه، متدثِّرين باللباس الرسمي. الفارق الوحيد، هو أنهم، اليوم، يهنئون الناسخ «أَليوز بان» بعيد شفيعه. وليسوا هم وحدهم، بل وممثِّلوا السُلطات المدنية والروحية. ولا يقلُّ المشهد أُبَّهةً عنه، في ذاك اليوم، عيد القديس يوحنا، بمناسبة تقديم التهاني للبارون «كريغين»، بل هو أكثر إثارة. غير أن الصورةَ بمجملها، هُلاميةٌ بعض الشيء، كما في الحلم، ترتجف كأنها ستتحول الى دخان أو بُخار فتتلاشى. لكنَّ ما أغضبَ «بان» وأهانَهُ (مع أنه لم يُظهر ذلك) هو الشذوذ عن القاعدة في ترتيب توافد المهنئين. وإلاَّ، كيف ارتسم أمامه في طليعتهم، رئيسُ قسمه السيد «هازي»؟ تجاهله «بان» كأنه لا يعرفه، معرباً بذلك عن استغرابه وتأففه. اقترب رئيسُهُ وانحنى ضاماً قدميه:

- «هازي»، أمين سرّ الحكومة...

- أعرف - قال «بان» ذلك، وهو يمدُّ يدَهُ برخاوة - أعرف، ولقد سرَّني حضورك. ولكن، عليَّ أن ألفت انتباهك، إلى الخطأ الذي ارتكبته في تقديم نفسك. فأنت لست أرنباً [٢]، وانما بَعْرَ الأرانب. صحيح، أنك أمين سرّ الحكومة، لكنْ، باللقب فقط. أمَّا من حيث القيمة، فأنت مجرَّد نَكِرَة. وأنا أعلم ذلك، علم اليقين.

(٢) هازي، لفظة ألمانية، معناها: أرنب.

إنني أُبيِّضُ «مُسودَّاتك»، وهي صورة حقيقية عنك. لكنني لا أجرؤ، بالطبع، على تغيير حرف واحد، مع أنني أشعر برغبة في أن أتقيَّأ على «إنشائك». غثيانٌ يرافقني حتى اثناء نومي، فاستيقظ وفمي ممتلئ بلعاب مُرٍّ. شكراً! التالي !

- أوه! سُعدتُ لرؤياك! أنت مستشار الحكومة «أوغست كوراتش»، أليس كذلك؟! بَلَى. إننا لم نلتقِ على الصعيد الوظيفي. فأنتَ أعلى منِّي مرتبةً بكثير. غيرَ أنني أعرف كلَّ شيء عنك. كان أبوك نائب أميرال في البحرية الأمبراطورية - الملكية، ضابطاً جديراً بكل تقدير. ولو لم يكن كرواتياً لوصل إلى أعلى المناصب.أما أُمُّك، فهي من أسرة ثريَّة من فيينا . (لقد اكتسبتَ خصال أُمِّك النمساوية!) وعليك أن تكون ممتناً لصلاتك العائلية التي أوصلتك إلى المركز الذي تحتلُّه بين علِّي القوم، ولما كنت لتصل بنفسك الى الدرجة التي تحتلُّها الآن. الكلُّ يعرفُ ذلك. الجميع يعرفون بأنك «مضيا عٌ للوقت»، وموظفٌ فاشل. يعترفون لك، بأنك صيادٌ ماهر، وهاوٍ لتسلُّق الجبال، وأنك - استمحيك العفو - زيرُ نساء. لا، دَعْنا من هذا الموضوع، لأنك أيها السيد، مستشارٌ للحكومة (وهو أمر معروف)، وانسانٌ طيِّبُ القلب، كريمٌ، سخيٌّ، معطاء، لكنك عاجزٌ عن فعل أيِّ شيء، حتى فعل السيئات أو التفكير بها. فشكراً لك ولمرؤسيك على التهاني، ولكم منِّي أطيب الأمنيات. التالي!

يبدو أن سوءَ تفاهم قد وقع فيما يخص ترتيب توافد المهنئين، إذْ لاحَ من خلال الضباب الذي توارى فيه مستشار الحكومة «كوراتش»، لاحَ ممثِّلُ أبرشيَّة سراييفو، متجاوزاً صف المهنئين، مُحْدِثاً بلبلة في مراسم الاستقبال، لأن حضوره

لم يكن متوقّعاً. ظهرَ بجسمه الضخم في جُبَّةٍ من فاخر الأقشمة وجميل الحياكة. أما «بان» الذي كان قد تعكّرَ مزاجه بسبب هذه المفاجأة، فإنه باعد ما بين ذراعيه، رامياً رأسه ونصفه العلوي إلى خلف:

ـ ها أنت ذا يا صاحب الغبطة! شكراً لِتكلُّفِكَ عناءَ المجيء. ما كان لك أن تُرهقَ نفسك. ولكنْ، ما دمتَ تكبَّدتَ هذا العناء، أَودُّ أن أُسدي اليك بهذه النصيحة، وكنْ على ثقة بأن الأمر سيبقى سراً بيننا، نحن الاثنين. نصيحتي بأن تقلِّل من شرب الكونياك. فلا تُفيدُ السكاكر الحامضة التي تمُصُّها ولا حبّات البنِّ المُحمَّصة التي تقضُمها، لأن رائحة الكحول تفوحُ من جوفك. دَعْني أسرُّك الحقيقة: إنني أتعجَّبُ شديد العجب، إذ أرى انساناً مثلك، متَّقدَ الذهن، شأن جميع أبناء مدينة ترافنيك، يقع في عفوية البراءة، فيحسبُ أن بالامكان ستر هذا الكمّ الضخم من أقداح الكونياك التي يجرعها، بمثل هذه البساطة والسهولة. وأريد أن أُعْلِمَكَ بأمر آخر، وهو أن ثمَّة نوايا جِدِّية، لدى قسم ترسيم الكهنة في المطرانية، بازاحتك عن منصبك. يقولون ـ وأعتقد انهم مُحِقُّون ـ بأن لا يجوز أن يحتلَّ مثل هذا المنصب الهام في الأبرشية «سكِّير ـ منفرد»، وَهَبَ نفسه لهذه الرذيلة. ولسوف تُعَيَّن كاهناً. إذن، ترى بنفسك:«تُرَفَّعُهُ كي يتسنّى لنا عزلهِ!»[٣]. سأشرب كأسَ النبيذ هذه، نخبَ صِحَّتك. هكذا. على صِحَّتك! وكما ترى يا صاحب الغبطة، بامكاننا نحن أيضاً أن نشرب الخمرة، وإن كنَّا لا نحتسي الكونياك، ولا نشرب خلسةً، مختبئين تحت طاولة

---

(٣) باللاتينية في الأصل.

المكتب. كَفى الآن! إستَرِحْ[٤]! هيَّا انصرفوا جميعاً. فلو واصلتم على هذه الوتيرة، لَمَرَّ أمامي، هذه الأمسية، كلُّ أعيان البلد. شكراً لكم. لن اتقبَّلَ التهاني بعد الآن، لا شخصياً ولا شفهياً، على الأقل. الزائد أخو الناقص. إنني، طوال عام بكامله، حينما اصادفكم في الشارع، أرفع قبعتي وأنحني أمام كلٍّ منكم، صغيركم وكبيركم. أما أنتم، فإما تُنْعِمون عليَّ بنظرة أو تضنُّون حتى بها. والآن تُغدقون بكل هذا الانتباه، وبكل هذا الاحترام! لقد ضِقتُ ذرعاً بكم. إنني أنتفخُ وأرتفعُ، كمنطاد. كَفَى! سوف أغادر البهو ومبنى الحكومة، لأني أريد أن أقضي هذه الأمسية، في بيتي، ولوحدي.

ها أنا ذا مرة أخرى، بين الجدران الأربعة هذه. ان الذين يُدْعَوْن بـ «ذويَّ»، باتوا، والحق يقال، فائضاً، لأنهم لا يفهمونني ولا يبتغون لي خيراً. انهم مُراؤون. نعم، ومنافقون.

ثمَّة من ملأ كأسي التي أفرغتها قبل هنيهة، ملأها، مرة أخرى، في غفلة عنِّي. هذا، إذن، أنت، يا ابنتي «لوتسيَّا»، بتحريض من أُمُّكِ، زوجتي، السيدة «بان»، من أَجل تحقيق نواياها المُغْرِضَة. تريد أن تُسْكِرَني في الحال، فأَخلدَ إلى سريري وأغفوَ. لأنها تعرف أن النبيذ يأخذ مني مأخذه، ويستولي عليَّ بعد الكأس الرابعة أو الخامسة، ثمَّ يطرحني في الفراش. فهذه هي الكأس الخامسة، أو ربما السادسة. وهي تريد أن تتخلَّص مني، أن تُسْكِتَني، أن تُقصِّر بهجتي. لكنها لم تُحسنْ حَبْكَ المؤامرة. فمن ملأ الكأس، فليشربها. أما أنا فلن أشرب مزيداً، ولا أشعر بالنعاس، ولم أكن يقظاً البتة، مِثْلِيَ

---

(٤) بالألمانية في الأصل.

الآن. وما دمتم مُصرِّين أن تحتفلوا بعيد شفيعي، فليكن أيها السادة! إذن سوف نحتفل به بكامل طقوسه، تلبيةً لرغباتكم، وبما يليقُ ومقام المحتفى به. فغداً، بعد تسبيحة الشكر في الكاتدرائية، سوف أُجري سباقاً في المشي في «إيليجا» [٥]، ولسوف يقتصر حق المشاركة فيه على أعيان سراييفو، من بينهم، المحافظ محمد بك جانجافيتش، ثمَّ أصحاب القَدَاسَة: رئيس أساقفة الكنيسة الكاثوليكية، مطران الكنيسة الارثوذوكسية، شيخ الاسلام، الحَبْرُ الأعظم، ثم مدير البنك المركزي، ومندوب الحكومة في سيراييفو، «الادار فون كوتاس». سيجري السباق إلى مسافة أربعمائة متر. وعلى كل مشارك أن يرتديَ لباسه الرسمي أو بزَّة الاستعراض، وأن يضع أوسمته بأشرطتها الملوَّنة. أما جائزة الفائز، فلن أعلنها على الملأ، بل سوف أَسرُّها لكل مشارك على حدة. قد يبدو للمرء، أنه يصعب اقناع هؤلاء السادة العظام، بأن يشاركوا في مثل هذا السباق. صحيح. قد يبدو ذلك أمراً غير معقول. لكن في ظاهره وحسب. فحين أَهمسُ في أذن كلٍّ منهم، بما ينتظره من مكافأة، إذا كان أَوَّلَ الواصلين الى الهدف، لسوف تنعدم الممانعة وينحسر التردد. إنني، في هذه اللحظة، أقرأ ما في داخلكم، فأعلمُ ما هي طموحاتكم العلنية، ورغباتكم الدفينة التي لا يُفصحُ

بها أحدُكم لغيره، أو يخفيها حتى عن نفسه، أو ربما، هو نفسه لا يعرفها بعد، وهو مستعدٌ لفعل أيٍّ شيءٍ في سبيلها. نَعَمْ، سوف يَقْبَلون، كيفَ لا! سيصطفون في صفٍّ واحد، على

(٥) منتزه في ضواحي سراييفو. (ملاحظة المترجم).

أنغام الموسيقى العسكرية، وهتافات الجمهور المبتهج. وسوف ترتسم البسمة على محيّاهم، وسوف يحاول كلٌّ منهم، الاحتفاظ بكرامته بأكبر قَدْر، وسوف ينظر الواحد إلى الآخر خلسةً، لاستشفاف مقدرته: رئيس الأساقفة الهرم، والمطران البدين الذي يَشعُّ حيوية، والحَبْرُ الأعظم السمين، وشيخ الاسلام المقوَّس الساقين، ومندوب الحكومة الفارع الطول، القويِّ البنية. ستشملهم جميعاً، في وقت واحد، نظرة الظفر، وسَيَنْعَمون، مسبقاً، بفرص الفوز الأكيدة. حين يُصبحُ كلُّ شيء جاهزاً، حين يُلملمُ أصحابُ القَدَاسَة أطرافَ جُبَبِهم ويتخذون وضعية السِهام المشدودة إلى أقواسها، ويَغْرَقُ الجمهورُ في صمتٍ مهيب، أَظَلُّ أراقبهم لبضع لحظات من على المنصة الشاهقة، ثم أُرسلُ الموظفَ المختص المرتدي بزّته الرسمية، ليعلن على الملأ، بصوت جهوري، أن السباق في المشي لمسافة أربعمائة متر، قد أُلغي. بإيجاز وبدون تعليل: السباقُ لن يجري. ومن ثمَّ تأتي النقطة الثانية من البرنامج: سباق المواشي من السلالات المحلية. أما السادة العظام، فسوف يعودون ببطء إلى المنصة، البعض مُرتبِك، والبعض الآخر مُغتاظ، مَخْجول. ولسوف يخمد إنفعالهم تدريجياً. وسأجدُ الفرصة أثناء فترات الاحتفال، لكي أشرحَ لكل منهم على حدة، وفي أُذنه، جوهر الأمر. سأقول لهم، أنني إلى جانب كافة الاعتبارات، إنسانٌ ومواطنٌ وموظفٌ في جهاز الامبراطورية، وأن هذه الحقيقة أَمْلَتْ عليَّ أن أُقيمَ بعض الاعتبار، على الأقل، للمؤسسات التي يُمثِّلونها، وأنني لم أستطع دفع الأمور حتى نهاياتها، إلى خاتمتها المضحكة والمحزنة.

في هذه اللحظة، بدأ الناسخ يضحك ضحكة خافتة،

متقطعة، ما لَبِثَتْ أن ازدادت قوةً وارتفاعاً. أما زوجته، التي كانت تسترق السمع، طيلة هذه الفترة، من وراء باب الغرفة، دخلت عليه ببطء وهدوء. فلمَّا لاحظها، شرَّع ذراعيه:

- تعالي يا زوجتي، يا سيدة «بان»، تعالي لنضحك معاً .ها،ها،ها!

جمعت الزوجة ما أُوتيتْ من شجاعة، واقتربتْ منه. ولئن كان زوجها مستمراً في قهقهته، فإنها أمسكته من معطفه، وثبَّتتْ نظرتها المستعطفة في عينيه:

- ماذا تفعل بنفسك يا «ألويز»؟ ألا تَخشى ربَّك؟

- لا أخاف من أيِّ شيء ولا أخشى أحداً.

- فَكِّرْ بأطفالك...

- آه. أعرف الآن ما تُريدين قوله: فَكِّرْ بما تقبضه في مطلع كل شهر...فَكِّرْ بالكرونات الخمسين والهيليرات الخمسة والأربعين.

دفع «ألويز» زوجته بعيداً عن نفسه، وظلَّتْ هي مستندةً الى الحائط بقيت وراحتاها متلاصقتين في تضرُّع.

- هذا بالذات ما كنت أُفكِّرُ به. أُفكِّرُ بأمين الصندوق المدعو «كُودِلْكا»، أو «جدول الضرب»[٦] كما يُلقِّبُه الجميع، هذا الذي يستقبلني، جالساً، في اليوم الأخير من كل شهر، ويبدأ يفتش عن إسمي، مدمدماً: «مِيْشِيتْش؟ مِيْشِيتْش، مِيْشِيتْش...» وأنا أُدمدم في نفسي، بدون صوت: الفأرُ[٧] هو أبوك، أما أنا فأنا «بان»، ومن سلالة «بان».

---

(٦) بالألمانية في الأصل.

(٧) لفظة «ميْش» باللغة الصربية تعني: فأر. ولقب العائلة مِيْشيتْش هو نسبة للفظة الأصلية. (ملاحظة المترجم).

إعترتِ الناسخَ موجةٌ من غضب. فقد كان واقفاً في وسط الغرفة، كيف يَعُدُّ له الأوراق النقدية الزرقاء الخمس من فئة العشر كرونات، وكيف يَدُسُّها هو في جيبه، دون أن ينظرَ اليها، لأن همَّه أكبر بكثير من هذه الشكليات. فهو لا يُفكِّرُ إلاّ بالطعام واللباس وقوت العيش وتعليم أطفاله وتسديد أقساط القرض. ولمَّا كان يهمُّ بالخروج، يستوقفه أمينُ الصندوق «كُودِلْكا»، يقول له بتحذْلُق وبشيءٍ من الخبث، بلهجته التشيكية: «إنتظرْ، إنتظرْ! حتى النقود الصغيرة ليست للرمي!».

كان هذا المشهد يتكرر بحذافيره، كلَّ شهر، وفي كل مرَّة، يشعر «بان» بالألم والمهانة، من جراء حذلقة «كُودِلْكا» التافهة، وقطع النقود النحاسية الصغيرة التي يَدُسُّها، هي أيضاً، في جيبه، وهو يغادر غرفة أمين الصندوق. كم من مرَّة راودته فكرة أن ينثر هذه القطع المعدنية على وجه «كُودِلكا» أو أن يَحشو بها جوفَ فمه، سويةً مع مزاحه الرخيص. كان كل شيء يبقى في إطار الفكرة، لا يتعداه. أما في هذه الأمسية،

فإن الافكار تتحقق على أوسع نطاق، وكل شيء يمكن أن يصير، بل يمكن أن يحدث ما لا يطرأ حتى على مخيّلته. فهو يرى نفسه الآن واقفاً في وسط مكتب «كُودِلْكا»، الذي يشبه زنزانة، بسبب القضبان الحديدية على نوافذه. يُريد أن يَرُدَّ على مزحة أمين الصندوق بمزحة من عنده. لَوَّحَ بيده، ونثرَ ما اتسعتْ قبضةُ يده على احتوائه من نقود معدنية، نثرها بقوةٍ، يشعر بها الآن، وبنسبِ أبعادٍ تُتيحُها هذه الأمسية العجيبة، وكأن النقود النحاسية الصغيرة قد تحوَّلتْ إلى تلك القصاصات من الورق الملوَّن التي تُنثر في المهرجانات. لقد

تناثرت، ليس في مكتب أمين الصندوق، بل فـــوق أرجـــاء الامـبـراطورية النمـسـاوية - المجـرية... تناثرت وسقطت في كل مكان، في المدن والقـرى. سـقط «هيليـر» نحـاسـيٌّ واحـد على قصـر الامـبـراطور في فـيينا. إن «ألويز بان» يُرجعُ لأمبـراطور النمسا قطعة النقود الصغيرة التافهة التي مَنَّ بها عليه، ويُقذعه بشتائم لم تكن لتخطر على باله حتى في الحلم.

كانت الزوجة ترتعد من الخوف، واقتربت من النوافذ تريد اغلاقها، فاعترضها زوجها وهو يترنَّح، وتشابك جسداهما، وما كان يقوى على الوقوف على قدميه، إذ أن الخمرة كانت قد شلَّت كلَّ عضلة في جسمه. كانت جفونُه مغمضة، وكان لسانه يتلعثم بكلمات لا تُفهم. ولمَّا أ دركت الزوجة أن زوجها لا يبدي أية مقاومة، جرَّته جرَّاً الى السرير، وكان قد غفا، وهي تنزع ثيابه. وبعد أن هَوَّتِ الغرفة ورتَّبتها، استلقتْ في ثيابها، ولم تطفئ المصباح.

غفا الناسخُ، وكأنه شرب كمية من الخمر كبيرة. لكنما غفوته لَمْ تدمْ طويلاً. فبعد منتصف الليل بقليل، استيقظ فجأة، نهض بصعوبة، كان رأسه يتمايل يسرة ويمنة، كدجاجة مريضة، تفتش عن شيء تقتلعه. واستيقظت الزوجة، فرأته في صورة مفزعة. كان ينزع لباس النوم بحركات تشنجية، كان العرق يتصبب على جسمه شبه العاري، كان حجمه يتضاءل، وكأنه يذوب، وكأن آخر عضلة في جسده تتلاشى مع زخَّات العرق. فوجهه ميت، وعيناه قد باتتا رماديتين، وشعره مبلَّل، ملتصق بجمجمته. وبدأت مرحلة، تعرفها زوجته بالخبرة. أمسكته من تحت إبطيه، وجرَّته إلى حوض أبيض على كرسيٍّ واطئ، كانت قد حضَّرته من قَبْلٍ. بدأ يتلوَّى ويتقيأ، بصعوبة،

ولمدة طويلة. كـان يلوح للوهلة الأولى، بأنه يخـتنق. انتـفـخت أضـلاعـه حتى كادت تنفـجر. ولمّا بدا أن كلَّ شيءٍ قد انتـهى، وأن الرجل قد أنهض وجهه وفتح عينيه، عاد مرّةً أخرى يتلوّى من جرّاء تشنُّج جديد. عـاود التقيـؤ. لم يعد يتـقيأ طعـاماً أو شراباً، وإنما عصارةَ معدته، بزخّات خضراءَ داكنة. ولكلّ أمرٍ نهاية.

إن زوجته التي حَفِظَتْ عن ظهر قلب، كيف ينتهي الاحتفال بعيد شفيعه، سارعتْ إلى غسل رجُلِها شبه الميت، الذي صار خفيفاً، مطواعاً، كدمية مطاطية مثقوبة. ثم نقلته إلى سريره، حيث غفا، على الفور، وغطَّ في نوم عميق، هادئ.

الآن، وقد أنهتْ كل واجباتها، اغـتسلتْ وأطفأت المصباح في الغرفة، توجـهتْ إلى المطبخ، بعد أن أصـخت السمع، عبر باب غـرفـة الأطفـال، ووجـدت أن كل شيء كـان هـادئاً، وأن الأطفال غارقون في نوم عميق.. في أحلام لم يعكرها ما حدث في الغرفة المجاورة.

كان القمر بدراً يُضيء أرجاء المطبخ بأشعة خافتة تتسرب من خلال ستائر النوافذ الشفافة، من «التول» البوسني.جلستْ في الظل، بجانب الموقد الجداري، وسكبتْ في الفنجان قهوتها التي كانت قد بردتْ. كانت ترتشف قهوتها ببطء وكانت تحدِّق في الركن المضاء، وتُفكِّر.. والأرق يهدُّها. كانت عروقها تنبض نبضات سريعة، وكان قلبها يخفق خفقاناً قوياً. تواردت أمامها، صور المساء، شريطاً ما زال حياً في ذاكرتها، وتزاحمت الأفكار في رأسها، وطوقتها من كل جانب، فاعتراها شعور بالخوف.. بالخوف والعار معاً. كان الخوف يفارقها بين آن وآخر، أما العار فقد كان يلازمها ويسكنها ويملأ كيانها.

وبدا لها أن السحب الصغيرة المتناثرة في سماء ليلة الصيف هذه، تتجمَّع، فترسم أحرفاً، والأحرف تتنضد في كلمات، فحْواها: أن رجُلَها الوحيد، أقربَ الناس إليها، أبا أطفالها، مصابٌ بمرض لا إسم له.. تنتابه ساعات، يخرج فيها عن طوره، حتى ولو حدث ذلك في ليلة واحدة لا تتكرر.. مرةً واحدة في السنة ما عداها. إنها في كل مرة، تبذل ما بوسعها لإخفاء هذا الأمر، لكنها تخشى، دائماً، أن أحداً، سيقف، يوماً ما، على سرها ويعرف الحقيقة. لقد دُفن كل شيء هذه المرة أيضاً، وانتهى دونما رجعة.

وفي الصباح، سينهض رَجُلُها في الوقت المعتاد، لكنه سيكون مُنْهدٌ القوى، شاحب اللون، وسيسعى إلى الظهور بمظهره المألوف، وكأنه لا يتذكر شيئاً مما حدث في الليلة التي انطوت. إنها ترى كل ذلك.. وترى الأسابيع والشهور التوالي.. تراه كيف يواظب على وظيفته: هادئاً، نشيطاً، صامتاً، منزوياً.. متنقلاً بين الدائرة والبيت.. لا يدخن ولا يشرب، يتجنب كل تجمُّع وكل حديث صاخب، يخفض بصره أمام كل نظرة تطول.

أما هي.. فانها سترعى أطفالها، وستغرق في شؤون المنزل وهمومه، والذعر يملأ كيانها، كسحابة لا تنقشع.. الذعر من حلول الصيف القادم، وحلول عيد شفيع زوجها.

إنها تعيش، منذ الآن، في ظل هذا الكابوس الذي سيقضُّ مضجعها، طيلة الأشهر التالية، ملتزمة الصمت، لا تنبس بكلمة، مع أن تفكيرها كله يدور حوله، وحول مستقبل أطفالها، قبل كل شيء.

وهكذا، بقيت الزوجة، وقتاً طويلاً، تغالب تلك الافكار التي تتصارع في رأسها، ساعية إلى استشفاف المستقبل الغامض

الذي ينتظرها، إلى أن غلبها الكرى، والنوم خير علاج لكل داء.
فغفتْ، مستندة الى الحائط.

غُبن

عارض الجميع تصرف آنِيْتسا. ليس جيرانها ومعارفها وأصدقاؤها وحسب، وإنما أسرتها أيضاً، باستثناء لا يُذكر. حتى والدها رفض إيواءها في بيته، لما هجرتْ زوجها في تلك الأمسية من أماسي أيلول/سبتمبر، وفي وقت لاحق، بعث إليها من يبلغها، أن لا مكان في بيته، لمن يحرد ويهجر، ولمن يجحد النعمة.

لم يستطع أحد فهم تصرف آنيتسا، زوجة أندريا زيرِيكوفيتش، وسبب هجرها لزوجها وبيتها، إذ لم يكن لهذا التصرف، سبب ظاهر وتبرير معقول، لا في حياتها الزوجية التي إتسمت بالوئام والكمال، ولا في حياتها بعد أن غادرت بيتها، حياة الانزواء والفقر. أما زوجها فقد حافظ على رباطة جأشه ووقاره، وبذل المستطاع لإرجاعها. ولما تأكد من أن زوجته لا تنوي الرجوع، ترك الأمور تأخذ مجراها وطلب الطلاق.

ولم يكن في وسع المحكمة الروحية إلا المصادقة على «الرأي السائد»، واعتبار الزواج بين أندريا زيرِيكوفيتش

ZEREKOVIC وأنيتسا ماركوفيتش، زواجاً باطلاً، وتحميل المذكورة أنيتسا تبعية ذلك.

إنها، اليوم، تعمل بائعة في متجر كبير، وقد هزل جسمها وشحب لونها، وتعيش منزوية، كامرأة منبوذة، في حجرة صغيرة، ملحقة بشقة تقع في الطابق الخامس. إنها تتغدى في مكان عملها، وتقضي أيام الآحاد في مسكنها، تغسل وتكوي حاجياتها.

وبمجرد الحديث عن هذا الزواج، يتضح على الفور، لِمَ أدان «الرأي السائد» أنيتسا.

كان أندريا قد تخطى الأربعين منذ زمن لا يستهان به، وهو صاحب مصنع لانتاج الفراشي. ولعل كلمة «مصنع» فيها شيء من مبالغة. فلنقل معمل حسن التنظيم، يشتغل فيه زهاء إثني عشر عاملاً، له علاقات تجارية واسعة ومتينة. وكان صاحبه أندريا، يشتري، بالجملة، جميع أنواع وبر الحيوانات، وكان رصيده وسمعته، قد ترسخا، منذ وقت طويل، في السوق التجارية. فمن طفل قروي المنشأ، صار إلى ملاّك وصاحب معمل، وبنى لنفسه منزلة اجتماعية رفيعة، بفضل عرق جبينه وادخاره وتواضعه. صحيح، أنه لم يكن وسيماً، ولا مليح الوجه، لكنه كان على وقار وهيبة، يتلاءمان مع سمات أبناء طبقته. كان لطيف المعشر، حلو الحديث، أنيق الملبس. وكان قد أمضى في النمسا ثلاث سنوات في تعلم المهنة، واكتسب معها آداب مجاملة الزبائن.

أما آنيتسا، فهي فتاة فقيرة، والدها موظف بسيط في شركة للتأمين، أو بالأحرى، جابي اشتراكات، رجل موثوق وبارع في عمله. ولها ثلاث أخوات وأخ، كلهم دونها سناً. وهي صموتة،طويلة القامة، مكتنزة الجسد، ناصعة البياض. وشعرها غزير فاحم، وعيناها زرقاوان، ونظرتها الهادئة،لا تبوح بما سكتت عنه شفتاها الغضتان الكبيرتان. ولا تتبجح بجمالها، بل وتستحي من إظهار مفاتن جسدها، فتراها تخفض بصرها أزاء نظرات الآخرين، وتلزُّ ساقيها لما تجالس الغير، وتقلص عضلات نهديها كي يبدوا أقل تكوراً، ما دامت غير قادرة على إخفائهما عن الأعين.

لما توفت أمها، تولت آنيتسا أعباء المنزل، وسهرت على تربية أخواتها الأصغر وعلى تعليم أخيها. انها من ذلك النوع الذي يفنى في تقديم ما ينفع دون تبجح، ودون توخي جزاء على إحسانه. فهي لا تظهر تفانيها، ولا تشعرك بانها تضحي بنفسها وبراحتها، وانما تظهر بمظهر انسان قنوع بما قسم له.

وليست حالة نادرة في أسرنا المحافظة، أن تقوم الإبنة الكبرى بدور الأم بعد رحيلها، لا سيما في حالة كثرة الأطفال وقلة الموارد، وأن تضحي بذاتها وتلزم المنزل، كأنها روح الأم الصالحة، وأن «تدفن نفسها» في بنيان الأسرة. إن فتاةً كهذه، تفقد حياتها الشخصية وتبقى على هامش الحياة عموماً، دون خبرة ومراس بما يجري خارج نطاق المنزل. وبينما أخواتها وأخوانها الأصغر، ينعمون ويترعرعون بفضل عونها، ويشاركون، كل حسب ميوله، في كل صغيرة وكبيرة، في

الفضائل والرذائل، في حياة جيلهم بوجهيها الجميل والقبيح، تبقى هي، منذ البداية، على الهامش.وبحكم الضرورة والتعود، تصبح كائناً معدوم الهوية، محافظاً، عديم المناعة إزاء أنانيات الغير، مولعاً بحب الغير، مستعداً للتفاني على الدوام، شاعراً، دوماً، بعذاب الضمير، لأنه لم يعطِ المزيد من العطاء. وبما أن فتاة كهذه، تَخنقُ في داخلها كل نزوة انثوية غريزية في مهدها، فانها تضحي بنفسها من أجل كل كائن، فاسحة المجال لكل كائن لاستغلالها.

وبما أن آنيتسا، فتاة من هذا النوع، فإنها كانت مستعدة للمضي في تحمل أوزار المنزل، وفي خدمة أبيها العابس، القاسي القلب، وفي تزويج أخواتها الأصغر منها، لو أن أندريا لم يستهوه كدها ولم يأسره جمالها المستتر، ولو أنه لم يتزوجها . فلقد وجد فيها كل ما كان ينشد، ولم يجده من قبل، وما تزوج، بسبب ذلك، حتى هذه السن المتأخرة. لقد رأى فيها فتاة جميلة، مكتنزة الجسد، عفيفة النفس، مطيعة. زد على ذلك، أنها فقيرة. فالزواج من فتاة فقيرة، كادحة، يزيده كل يوم، رضى يفوق الرفاه الذي حققه بعرق الجبين. صحيح أن النيل والكسب هما هروب من الفقر، ولكن أنّى لك أن تقدر قيمة النيل والكسب اذا لم يكن ثمة فقراء؟ أما الجمال، الجمال الصامد الذي لا يفنى، فهو بنظر أندريا، ثروة ثانية يتلهف الى نيلها طيلة حياته.. هو بذرة صالحة، تنبت وتنمو أينما تقع، أفي وسط فقير أم في وسط غني. لكنما الثراء يجذب جمال الفقراء، كما تجتذب البقاعُ الباردةُ الهواءَ الساخن. إنه واحد من القوانين

الكلية القدرة السائدة في مجتمعنا. ولأندريا وجهة نظر ايجابية جداً إزاء هذه القوانين. وهو إذ يلم بها إلماماً تاماً، فإنه تسلَّق، بفضلها، السلَّم الاجتماعي، وكَبُرَ في نظر نفسه.

كان زواجها من أندريا، موضوع أحاديث استمرت طويلاً، ليس بين الجيران وبين المعارف وحسب، بل بين أناس لم تكن بينهم وبينها أية معرفة عن قرب. كما كان هذا الزواج مثالاً من الأمثلة النادرة على أن الفضيلة تكافأ بمثلها، حتى ولو كانت هذه الفضيلة مستترة.

إنتقلت أنيتسا من منزل فقير يسوده الاضطراب والتوتر، توتر ضعيف لكنه دائم، بين أب قاسي الطباع وأخوات طائشات اللب وأخ ممراض،إنتقلت، فجأة، إلى دار واسعة الأرجاء، حسنة الترتيب، يسودها الهدوء، دار زوجها الذي كان بمثابة هبة، شاء الحظ أن يهبها إياه،على غير توقع.

كانت هذه الدار، من حيث ترتيبها وأثاثها وتجهيزاتها بمثابة تاريخ أصم، يروي صعود أندريا من صانع فقير مجاهد متروي إلى «اقتصادي» مرموق. (إن عبارة «اقتصادي»، شأنها شأن العديد من العبارات التي شاع استعمالها عندنا، لم يحدد معناها بدقة وبوضوح، حتى يومنا هذا، مع أن شيوعها يعود إلى أيام كفاح أندريا الصانع) لقد جعل من هذه العبارة، هدف معاناته وكفاحه. ولما بلغ الهدف، صار يكررها، في اليوم الواحد، مرات ومرات، لا يُحصى عددها، وراح يلفظها كتشفيِّ المنتقم، ولا أحد سواه يدري سبب ذلك.

هي دار قديمة، جميلة، من طابقين، تجاور المعمل (بموجب تقليد قديم غير مكتوب) دون أن تتصل به.وكان أندريا، أيام شبابه، يسكن في أحد غرفها، عند أرملة فاضلة تملك الطابق الأرضي. ولما توفت الأرملة، وكان ما يزال في بداية صعوده الشاق، اشترى من أقاربها، كل ما تركته الأرملة وراءها. وهكذا تملّك الطابق الأرضي بحجراته الثلاث. وفي وقت لاحق، وبعد أن اتسعت اعماله وازدهرت، وبات يدوِّر ماله، بمهارة لم يكن يتوقعها منه أحد، إنتهز الفرصة واشترى الطابق العلوي من مالكه نقداً. وكان هذا، رجلاً وحيداً منزوياً، لا خلف له ولا سلف، أبقاه يعيش حيث كان الى أن مات. وبقي كل شيء كما كان من قبل، بفارق وحيد، هو أن أندريا بات المالك، بينما المالك الأسبق بات مستأجراً عنده. وقد حرص المالك الجديد على عدم إظهار أي تبدل في العلاقة بينه وبين المالك الأسبق. ولما مات هذا، انتقل أندريا الى الطابق العلوي، محتفظاً بأثاثه القديم الوثير، أثاث الاثرياء أصحاب الذوق الرفيع.(بهذه الطريقة، كانت تؤول ملكية وثروة أسرة على طريق الإنقراض، الى الآخرين، ولكن لم يكن يتم ذلك دفعة واحدة).

أحضر أندريا زوجته الفتية الجميلة الى هذه الدار، وعاشا معاً زهاء عامين ونصف، حياة زوجية، إن اختلفت عن غيرها، فانما اختلفت بالهدوء والوئام. حتى أن عدم انجابهما للأطفال، لم يعكر صفو هذه الحياة. فقد كان هو، محبوباً بين الناس، وكان عضواً في مجلس الغرفة المهنية، يغدق بتبرعاته

لنصرة منظمات التجار الفتيان. وكانت هي تدير أعمال هذا البيت الكبير، بتفاهم تام مع زوجها الذي لم تنقصه المعرفة باحتياجات المنزل. وكانت تزور أباها وأخواتها، وقد تزوجت اثنتان من بعدها.

تحررت أنيتسا تماماً، فور دخولها البيت الجديد، وازدادت جمالاً، أو قُلْ، أن جمالها قد بان على حقيقته، إذ تلاشى ذلك التشنج الذي كان يقيد جسدها المكتنز أيام عزوبتها. لقد انطلقت قواها ولانت نظرتها واكتسب شعرها الأسود الغزير بريقاً. وتبدلت معالم البيت، بفضل حركتها الدائمة،الصامتة الهادئة، وبفضل حضورها وعنايتها بكل ركن من أركانه. فلو أخذ أندريا يحسب بينه وبين نفسه، بحكم العادة، ما آلت اليه ثروته من غنى، إذ اختار أنيتسا، شريك حياته، لتَعَطَّل ذهنه ولاختلطت حساباته، ولوجد أن المرأة الصالحة لا تُثمَّن، ولشعر لأول مرة في حياته، بعجزه عن اتمام العملية الحسابية حتى نهايتها، ولبقي ساهراً، مدة طويلة، أمام حساباته غير المنجزة، تغمره السعادة والخوف في آن، لأن ليس بوسعه الإحاطة بكل ما يملك، ولأن بامكان ثروته مفاجأته دوماً بأمور سارة.

ضاعف الزواج متعته بثمار عمله وبثروته وبمنزلته الاجتماعية، وأشبع رغباته التي ما كان يجرؤ حتى على التفكير بامكانية تحقيقها. فلقد غمرته سعادة لا حدود لها، من جراء قيامه بهذا الواجب الاجتماعي الذي يُسخِّر من هم على شاكلته، كل قواهم من أجل القيام به. كما ازدادت آفاقه

امتداداً، وتفتحت عن نعيم غير متوقع، يجمع ويوفق، بحكمة وبأعجوبة، بين المنشود والمتحقق، وبين المسموح والممنوع. لأنه يصعب على المرء أن يدرك ماذا كانت تعني هذه المرأة لأندريا الذي جاء بها، ذات يوم، الى بيته، دونما عناء ومخاطرة، فكانت بمثابة مكافأة له على العناء والهوان ونكران الذات. إن باستطاعته الآن أن يتمشى، في أيام الآحاد والاعياد، برفقة زوجته الجميلة الصموتة في حلتها الأنيقة، وأن يصحبها الى المسرح أو الى السينما، وأن يقوم معها بزيارة الاصدقاء والمعارف للتهنئة بفرح أو بعيد. وإن بمقدوره الآن أن يتحدث عن زوجته أمام الناس، بطلاقة وصراحة واعتزاز، دونما خجل ولا مواربة، كأن يقول: «كنت ذاهباً برفقة زوجتي..» أو «قلت لزوجتي، كُفّي عني بربك!..» أما الذين كانوا يستمعون إلى هذه العبارات الساذجة المبتذلة، فما كانوا يشعرون، بالطبع، باللذة المستترة فيها، ولا يتصورون كلمة «الزوجة» التي يحلو له استعمالها كثيراً أثناء حديثه، «محطة» محببة له، كان يفتقدها من قبل. إن بوسعه الآن أن يسر لنفسه أكثر بكثير مما يُقال للآخرين، أو ما لا يجوز البوح به أمامهم. كان يضع يديه، في الظلام، على جسد زوجته الغافية، جسدها الغض الدافيء، في أي موضع تقعان عليه صدفة، ويهمس في قرارة نفسه: «هذا كله لي، من شعر رأسها حتى أصابع قدميها.. لي وحدي، دون سواي.» كانت شخصيته تنمو بلا حدود من جراء الشعور، ثم يغفو على هدهدته.

كان للمرأة، أو بالأحرى، لمفهوم المرأة عنده، مغزى عظيم

الأهمية، طوال سنين عمله وكده وتضحيته. فقد كان أندريا، كما سبق القول، مثالاً للعامل الحي الضمير، المتفاني، المطيع أيام شبابه عندما كان صانعاً، وكان صارماً، عادلاً، كما يحب أن يصف نفسه، عندما صار صاحب معمل. وكان الكمالَ بذاته، باستثناء هيئته. فلم يكن جميلاً حتى ايام طفولته الأولى، ثم فيما بعد، شكلته الحياة وفق قالب عجيب. لقد كان حقاً، انموذجاً للقبح إذ يكتمل: ساقان نحيفتان قصيرتان، تحملان جذعاً قوياً، تتدلى من على جانبيه ذراعان طويلتان. ورقبته رفيعة ولا تكاد ترى، تحمل رأساً ضخماً يغوص بين الكتفين. لا شك انكم صادفتم مثل هذا الرجل الذي ليس بالأحدب، غير أن عدم التناسب بين الرأس والعمود الفقري والجذع، يجعله يبدو كأنه أحدب. لقد سمن وترهل مع تقدمه في السن، لكن ساقيه ظلتا نحيفتين، وكذلك وجهه. أما شارباه، فهما مقصوصان فوق فم كبير، يكشف عن أسنان سفلية نخرة مشوهة، وعلوية بيضاء منتظمة، كونها اصطناعية. وأما عيناه، فهما صفراوان عكرتان متغضنتان، تبتسمان عند الضرورة، حزينتان فيما عداها، حزناً قبيحاً. ثم أن قمة رأسه عارية إلا من بعض خصل مستعارة من شعر الصدغين. وان ضخامة قدميه وراحتي يديه وكثرة عقدهما، أمر لافت للنظر. لكن هول ذلك كله، يتضاءل بفضل اسلوب معاملته للناس ودماثته في التعامل مع الزبائن. فقد كان له، فعلاً، اسلوبه الخاص تجاه كل نوع من البشر، اسلوب من التواضع الذي يطري الآخرين، دون أن يتذلل لهم أدنى تذلل. وكان يسدي بالنصح للفقراء والمنكوبين، ويتكلم مع الميسورين والمتنفذين عما يثير فضولهم في اللحظة عينها. كان

يحتكر لسنوات عديدة تموين مؤسسات هامة في الدولة بالفراشي، كالجيش والسكك الحديدية، إذ كان يفوز بالمناقصات دون أن يترك لمنافسيه حجة للطعن أو التشكي.

هذا هو اسلوب أندريا زيريكوفيتش، اسلوب طغى على علات جسده فأخفاها، رغم وفرتها وكبرها، فما كان يتسنى للناظر ادراكها. ولئن كان بسجيته محنكاً ودمثاً وكريماً ومحباً للمساعدة، فقد كان، بفضل طبيعته هذه، يجني ثمار عمله.

إن أعز الثمار اليه، هي هذه المرأة التي وهبها القدر له، فتحققت بذلك، رغبته الأخيرة التي كتمها ردحاً طويلاً من الزمن.

على أن تحقيق رغبة ما، تحقيقاً تاماً، ينطوي على مخاطر كبيرة، يلوح أكبرها في ظهور رغبة جديدة، تحل محل الرغبة المحققة.. رغبة لا ندري ما هي والى أين تقودنا. كما أننا لا ندري مما حمانا وجود الرغبة الأولى، حينما كانت تتأجج في أعماقنا، تكوينا بنارها، قبل أن تتحقق.

لقد بدأ أندريا في حياته الجديدة، التي كانت تعني له، تحقيق جميع رغباته وبلوغ ذروة الكمال، بدأ لأول مرة، ينشغل بشخصيته، يروزها ويثمنها ويتفحصها ويقارنها بالآخرين. إن الرخاء الذي توفره الثروة والحياة الزوجية، يتيح للانسان الوقت والامكانات لذلك. فثمة فترات طويلة هنيئة، في الأماسي والأصباح وأوقات الأصيل، يسترخي فيها الانسان ويتحرر من توتره، وتتبدل الصورة، تبدلاً كاملاً، أمامه: تغيب الأفكار

والرغبات الخُرس التي تخنقها حياة العزوبة الأشبه بصمت الطرشان، ويتلاشى السأم الناجم عن حضور أزلي لشخص واحد، هو شخصه، ويدب الدفء، وتتسع الأرجاء بحضور انسان آخر، لا يشعر تجاهه بأي حرج، بل يستطيع أمامه، ولأول مرة في حياته، أن يتكلم بحرية دون حساب أو اعتبار، وأن يفكر بصوت عال، وأن ينشر كل ما تفيض به نفسه من خواطر. ففي ذلك لذة ونشوة، وكأنه يخاطب البشرية جمعاء، وشعور بالطمأنينة، وكأنه يأتمن سكان القبور عليها. إن أمام مثل هذا المستمع فحسب، يرى الانسان نفسه: من هو، وما هو، وكم هو قدره، وماذا يعرف، وما هي قدرته.

كانت الأحاديث بين الزوجين، في البداية، قصيرة، لا تتعدى شؤون المنزل والحياة اليومية.

فاثناء حديث معتاد بينهما، ذكرت آنيتسا، بشكل عابر، أنها كانت في السوق ونوت شراء حاجة، لكنها لم تجد في محفظتها ما يكفي من نقود لشراء تلك الحاجة. فأنّبها أندريا بلطف، بما يشبه المداعبة، وهو يبتسم:

- آهٍ منك يا مسكينتي. ففي مثل هذه الحالة، تدخلين المتجر، وتشترين ما تحتاجين، ثم تقولين للبائع: «أنا السيدة زركوفيتش، زوجة أندريا زيريكوفيتش. من فضلك ارسال هذه الحَاجة الى البيت» - أجل «ارسالها الى البيت». ثم تضيفين: «زوجي سوف يسدد الحساب».

- إني لا أستسيغ ذلك.

ـ لمَ لا تستسغين؟ أنت لا تدرين من هو زوجك. فهل تدرين أنه لا يوجد في السوق إثنان يتمتعان بما أتمتع به أنا من رصيد وثقة؟ وهل تدرين أن البنوك تعطي مئات ألوف الدنانير مقابل كفالة تحمل توقيعي؟ وها أنت تعودين صفر اليدين لأنك لم تجدي في محفظتك مائتي دينار! إياكِ أن تكرري ذلك مرة أخرى! فلا وجود لمتجر إلا ويرسل، بكل امتنان، ما تشترين باسمي، مهما كانت قيمته.

وينهض أندريا، ويباعد ما بين ذراعيه، ويحركهما يمنة ويسرة، ويلوي قسمات وجهه (الأمر الذي لا يمارسه اثناء النهار في المعمل)، ويأخذ يشرح لزوجته التي تصغي اليه ساكنة، شبكة علاقاته التجارية في مجال الأعمال، وكأنه يشرح نظاماً فلكياً جديداً.

ذات يوم، تسلم أندريا، اعتراض مندوب الحكومة لدى مديرية الضرائب، على قرار لجنة تخمين الضريبة، اذ يعتبر أن اللجنة قد اقترحت ضريبة منخفضة جداً على شركة أندريا زيريكوفيتش. غير أن أندريا، قدم، في وقت لاحق، شكوى على اعتراض المندوب، أرفقها بأدلة دامغة على أن مديرية الضرائب قد بالغت في تخمين حجم الأعمال التجارية لشركته، وبالتالي، في تخمين أرباحها. أما الآن، فانه يُطلع زوجته على نص ذلك الاعتراض، متباهياً، راضياً:

ـ إسمعي الى ما يُكتب عن زوجك! «لقد اقترحت ضريبة

منخفضة جداً.. علماً بأن هذه الشركة تتمتع بسمعة حسنة، وأن حركتها التجارية، وبالتالي أرباحها، تفوق بكثير، الأساس الذي انطلقت منه اللجنة عند تخمينها»، ويريها كتاب الإعتراض، ويشير إلى «الترويسة»، والى الختم الرسمي، ويضيف:

- إذن: «سمعة حسنة» و «.. تفوقُ بكثير..» هكذا يتكلمون عني في مديرية الضرائب، وهكذا أيضاً في البنك المركزي، وكذلك في مختلف الوزارات. وكم من البنوك الخاصة تطلب مشورتي عند منح القروض للأشخاص والشركات؟ فإن قلت: «إمنحوا»، لمنحوا، وإن قلت: «لا»، فلا يمنحون. إذن، الموضوع، هو موضوع مسؤولية. أتفهمين؟ وما دام الأمر كذلك، فعلى الانسان أن يفكر، ملياً، قبل تقديم مشورته. تفهمين؟!

أما الزوجة، فانها تصادق على ذلك، بحركة طفيفة من رأسها، دون أن تحرك شفتيها وتحدق في وجهه لا في عينيه، وانما في وجهه، بعينيها الزرقاوين الباردتين، اللتين لا يراهما، بل يواصل حديثه عن علاقاته التجارية ونجاحاته، عن نفوذه الكبير في عالم الأعمال، عن تجاربه ومشاريعه ونواياه الجريئة. وأثناء ذلك، يكون قد نسيها كلية. إنه لا يبتغي منها ولا ينتظر، سوى مشاركتها الخرساء، مشاركتها السلبية، وحضورها أمامه. إن صمتها الأزلي، يسحره ويفعمه بالنشوة، فِعْلَ مياه البحر الهادئة بسبّاح في أوجِ ابتهاجه.إنها بتصرفها هذا، انما تلهمه وتحضه علىً البحث عن صور جديدة، غير اعتيادية،

تفجئها وتربكها.

ومع مر الأيام، باتت أحاديثه تزعجها وتكدرها، لكنها كانت تأبى أن تعترف أمام نفسها بأن أحاديثه تعذبها وتنهك قواها. صار يربكها أسلوبه الجديد في الحديث الذي يفيض بالتهكم والعنف والسخرية والخيال المريض، على عكس حديثه وتصرفه اثناء النهار ووقت العمل وبين الأصحاب. كانت تزعجها عبارة «أتفهمين؟»، كما تُزعج العينين الإنارةُ الشديدة. ولكن رغم ذلك، كانت تحدق فيه، دون أن يرف لها جفن، بينما كان هو يسترسل في أحاديثه، التي تستحيل الى مونولوجات جريئة، يترك فيها العنان لخياله الخصب وللسانه الذي لا يعرف الكلل، ويبرز فيها شخصيته التي لم يكن يعرفها حتى ذلك الحين، ابرازاً يزداد عظمة وبريقاً أمام زوجته المشدوهة والمرتعدة والصامتة صمت الموتى.

كان هذا المشهد يتكرر، بصورة منتظمة، بعد العشاء.

كانت أنيتسا تتناول شغل الصنارة وتأخذ تحيك قرب ضوء المصباح. وكان أندريا يشعل سيجارة، وينشر جريدة الصباح، ويغوص في مقعده المريح، (إنه لا يدخن إلا بعد الطعام، إذ يتحرر من ربطة العنق ويفك زر ياقة القميص ويرتدي معطفاً قصيراً من وبر الجمل، يلامس ركبتيه تقريباً) ويأخذ يقرأ لنفسه أولاً، ثم الى زوجته، بصوت عال، ويدلي أثناء ذلك برأي، أو يستعيد ذكرى، بينما تنظر اليه زوجته، من فوق يديها المنشغلتين بالحياكة، ويندر لها أن تعقب بكلمة، لأن كل كلمة كانت تؤجج ثرثرته وتقود سرده في طرق لم تكن في

منظوره حتى حينه. وها هو يقرأ الآن بصوت عال:

- «بأمر من صاحب الجلالة، الملك.. والخ، عُيِّن السيد ن.ن. محافظاً للمدينة.» ثم يستطرد:

- مرة أخرى يُرتكب خطأ فادح. لا يهمني من الذي ارتكبه، لكنه خطأ. لقد تم اختيار شخص آخر من بين صغار الموظفين الجياع، شخص طأطأ رأسه للقاصي والداني، وتملق لليهود حتى يتجنب احتجاجهم على كمبيالته. فأنّى له الآن أن يكون ما ينبغي له أن يكون؟ محافظ العاصمة! أتدرين ما يعني هذا المنصب؟

تنظر إليه آنيتسا مرتبكة من جراء هذه اللهجة الصارمة المؤنبة، التي لم تستطع أن تتعود عليها، رغم علمها، من خلال تجربتها معه، بأنها ليست مطالبة إلا بمنحه نظرة هادئة، تعبِّر بها عن جهل مهين، عن جهلها وحب فضولها. فيسترسل أندريا:

-.. يعني أنه مطالب باستقبال كبار الشخصيات واقتصاديين مرموقين وضيوف أجانب. وهذا يستوجب أن يكو حسن الهندام، دمثاً، مهيباً، وأن يعرف متى يقول: هذا ممكن، وهذا غير ممكن. أما مع مرؤسيه، فينبغي أن يكون ذا قبضة حديدية. فمعاذ الله أن أكون رئيساً عليهم! وينهض أندريا من مقعده، ويواصل تفنيده للأمر:

– فأنا لن أسمح بالتأخر أو بالفوضى أو بالرشوة أو بالتهرب من الواجب. أتفهمين؟ ولو كنت أنا محافظاً، لسارت

الأمور كالساعة.. أقول لكِ: كالساعة. ومن يشذ، فمصيره الإقصاء، دون تلكؤ ودون أي اعتبار ودون رأفة!

ويكرر أندريا العبارة الأخيرة بتلذذ، ويعيد خصلة الشعر التي تدلت، الى موضعها، يشعل السيجارة التي كانت قد انطفأت، ويعود الى مقعده، ويتابع الموضوع بصوت رخيم جليل:

– ثم لا بدَّ من المثول شخصياً أمام الملك لتقديم تقرير دوري عن عمله. فما الذي يستطيع قوله للملك، هذا الموظف النكرة، عن الوضع في العاصمة وعن مزاج المواطن؟ إن كل ما يستطيع فعله، هو أن ينحني، ضاماً عقبيه، وأن يذعن لكل ما يُطلب منه. بيد أن المفترض من رجل في هذا المنصب، أن يقف منتصباً، وأن يُبرز صدره في اللحظة المناسبة، أتفهمين، في اللحظة المناسبة! وأن يقول: «يا صاحب الجلالة، هذا غير ممكن». – «ماذا؟ أغير ممكن؟» – «غير ممكن يا صاحب الجلالة، لأن الأمر كيت وكيت».

ينهض أندريا مجدداً ويبدل صوته وحركاته، إذ يتناوب تباعاً، تقمص دور الملك تارة، ودور المحافظ تارة أخرى. وعندما أخذ يتقمص دور الملك، أطفأ سيجارته، لقد انتهى المشهد الآن، فعاد إلى جريدته يواصل تصفحها، بينما تابعت زوجته الحياكة حتى حان موعد النوم.

ذات مساء، تناول أندريا جريدة الصباح، ووضع نظارات القراءة، وأخذ يقرأ بصوت عال:

- اسمعي هذا الخبر: «فضيحة غرامية أمام القضاء»، «إبن تاجر ثري، يقع في مخالب فاتنة محتالة». أترين هؤلاء الحمقى فاقدي البصيرة؟ لشد ما كنت متعقلاً، قاسي القلب ازاء نفسي وحيال الآخرين! فما أكثر الفرص التي اتيحت لي.. ما أكثرها، يا هوْ!

زمّ أندريا شفتيه وقدح الإبهام بالاصبع الوسطى ليده اليسرى، فاعترت زوجته قشعريرة سرت من رأسها حتى اخمص قدميها، وخفضت نظرها، لعلمها اليقين بأن زوجها سيشرع بالحديث عن أمور، لشد ما كانت تكره الاستماع اليها، كحديثه عن الحب الجسدي وأمازيحه وتلميحاته بهذا الشأن. وبعد صمت قصير، أخذ يتكلم:

- ما استطعت أبداً تفسير ذلك. فلم أكن، يوماً، متأنقاً، تيّاهاً، متسكعاً.

وثمة العديد من الرجال الأوسم مني.. - يقول أندريا ذلك، باحثاً في عينيها عن ردة فعل - لكن النساء كنَّ يحمن حولي ويلتصقن بي. إنهن كالصاعقة إذ حلت بقوم، من حيث الجمال والجاه. ومع ذلك، لم أضعف ولم أتساهل. فلقد كنت أعرف دوماً ما أريد، والى اي حد يمكنني أن أتورط. ولم يكن القرار بأيديهن، بل بيدي. لم يكن ثمة استثناء، حتى ولو كانت حورية. أتفهمين؟

ثم تلي حكايات مبتذلة، مموهة، غامضة، عن مغامراته الغرامية في الغربة، أيام تعلمه المهنة، حيث كان المنتصر دوماً

في دور العاشق الخطير، الذي يسيطر على جموح غرائزه وعلى نزوات الطرف الآخر، بتعقل وحكمة. ويأخذ يعدد ضحاياه، بدءاً بصاحبة المنزل حيث كان يسكن، ونساء المانيات وبناتهن، وزوجات المراكبيِّين [1]، وانتهاءً بكونتيسة من بودابست، كونتيسة فعلية، رأته، مرة، في ورشة ا لعمل، فأعجبت به، وراحت ترسل وصيفتها، مرات عديدة، لتنقل اليه رسائلها، غير أنه نجا بأمان من كمائن هذه العجوز الشمطاء الداعرة.

– أنا لست بأخبل، حتى أهدر قواي وأضيع شبابي كيفما كان، مع أنني كنت ألهو مع عشرات من الحسناوات. وإن شئتِ الصحيح، فمع ثلاثة أضعاف هذه الأصابع.

كان أندريا يُقرِّب أصابع يديه الغليظة ذوات العقد، من وجه زوجته الفاتنة المكتنزة، التي تصغره بعشرين سنة، فتنظر الى تلك الأصابع بذهول تحاول إخفاءه.

وهكذا الى أن يحين موعد النوم.

حينها، تتحرر الزوجة الشابة من كل ما اضطرت الى سماعه في المساء، فتخلد الى الراحة، وحيدة، ساهدة في فراشها النظيف الهنيء، اذ تستطيع، في آخر المطاف، أن تداعب أفكارها حسب هواها. أما أندريا، فانه يقوم، أثناء ذلك، بتحضير نفسه للنوم. ينزع، أولاً، وجبة الأسنان العلوية،وينظفها بفرشاة خاصة، ويضعها في كأس ماء،

---

(١) جمع مراكبيّ، وهو العامل على المركب (المترجم)

يتغرغر بسائل خاص، ثم يحشو منخاريه بمرهم ممزوج ببلسم من صنع البيرو، ويسد بقطعة قطن صغيرة أذنه اليسرى (اليسرى فقط، لأنه ينام على اليمنى). وباستثناء شهور الصيف، فانه يرتدي

ملابس داخلية من الصوف، ويتدثر بجلباب للنوم، من أصغر مقاس يتوفر في الأسواق. ومع ذلك، فإن حوافيه تلامس الأرض. ويغطي رأسه الأصلع، بقلنسوة من الصوف الأبيض.

ولما ينهي ذلك كله، يضطجع في فراشه، يلقي نظرة أخيرة على زوجته المغمضة العينين دوماً في هذه اللحظة، متظاهرة بالنوم، ويرسم اشارة الصليب، ثم يطفيء المصباح، ويستلقي على جانبه الأيمن، ظهره لزوجته، ويغفو في الحال، كأي حيوان.

في اللحظة نفسها، تفتح أنيتسا عينيها، وتتنفس الصعداء، وتبدأ تعيش حياتها، حياة السهاد المضنية.

ومع انقضاء الشهور، باتت هذه السويعات التي تقضيها في الفراش، قبل النوم أو اثناء استيقاظها، تزداد أهمية في نظرها.

ففي الشهور الأولى من حياتهما الزوجية، كان أندريا يراود زوجته كل ليلة. كان ذلك في البداية. ثم مرتين في الأسبوع، إلى أن صار يكتفي بمرة واحدة فقط. وسرعان ما عزف عن ذلك كلية. كان بعد اعطاء تعليماته بخصوص شؤون منزلية والتزامات اجتماعية قليلة الأهمية، وبعد حكايات طويلة

منهكة عن شخصه.. كان يضطجع في فراشه، راضياً عن نفسه وعن العالم قاطبة، كما كان يفتح عينيه في صباح الغداة المبكر، وعلائم الرضى لم تفارقه، فيهيء نفسه لحياة النهار والعمل اليومي.. (إنه لم يعد يشعر منذ زمن بعيد، أن امرأة فتية مستلقية بجانبه، أهي غافية أم أرقة، ولا يتساءل عما اذا كانت لديها رغبات أو أحاسيس. فهو لا يرى فيها، إلا كائناً يشاطره المنزل، ورفيقاً ملزماً بالاستماع الى حديثه)

في سويعات الليل هذه، كان النوم يهرب من بين جفونها. فهي من جهة، لا تريد، بأية حال، أن يراودها زوجها، بل يسعدها أنه نائم. لكنها من جهة ثانية، لا تستطيع أن تغفو ولا أن تبقى صاحية. كان الفراش من تحتها، يبدو لها رئة تتنفس، والوسادة من تحت رأسها، لهباً محرقاً. كانت تحاول اقناع نفسها، بأن عليها أن تصبر قليلاً وان تهدأ للحظة، عسى أن ذلك كله مجرد وهم لا أكثر. كانت تستلقي على ظهرها وتسدل جفونها، وتتنفس تنفساً عميقاً منتظماً. فإذا لم يسعفها ذلك، تنهض وتتسلل الى الحمام بهدوء، فتبلل بالماء البارد، نهديها وعنقها. ولم يكن استيقاظها أقل عناء. كانت توقظها مع مطلع الفجر، خلجات في عضلات ساقيها، ووخزات طفيفة في ثدييها، لم تحدث لها من قبل. ومع استيقاظها، كان يتسرب الى داخلها شعاع أمل غير محدد، لكنه أمل كبير وواعد بدون حدود.

كانت سويعات الأرق التي تقضيها مضطجعة في فراشها مضنية، لكنها رغم ذلك، عزيزة عليها، سوية مع لحظات

استيقاظها، لأنها كانت ملكها وحدها، أو بالأحرى، هي الشيء الوحيد الذي يمت بالكامل اليها، اليها وحدها في حياتها الراهنة.

لكن أندريا، أخذ يسلب من زوجته، في الآونة الأخيرة، بعض هذه ا لسويعات، لأن ولعه بأن يقص عليها وأن يُمثِّل أمامها، كان يزداد باضطراد، اذ لم يعد يقنع بفترة ما بعد العشاء، وإنما أخذ يطيلها الى أن صار يواصلها في غرفة النوم، عند فراشها، متفاخراً، معجباً بنفسه.

يبدأ الأمر، كالمعتاد، في ذلك المقعد الواطيء المريح، حيث يأخذ يقرأ بصوت عال، مقالاً ما حول ضرورة اجراء اصلاحات جذرية في مجالات الاقتصاد والادارة الحكومية والتعليم والجيش. ثم يشرح لزوجته، بلهجة ساخرة، أن محرري هذه المقالات، إما كُتَّاب مرتزقة، أو «أساتذة» سذج، يعتقدون بأن التنظير كفيل بتغيير الوضع:

– إننا نفتقر الى وجود يد صلبة، يا عزيزتي. عليكِ أن تسمعي! لا وجود ليد تستأصل دون رأفة، كمبضع الجراح! أجل، دون رأفة، دون رحمة! أتفهمين؟

إن أندريا يصيح على زوجته، وكأنها عارضته، أو أثبتت عكس ما قال، ويريها بذراعه الطويلة كيف يتم الاستئصال. وتتابع الزوجة حركة ذراعه، ثم تثبت نظرها على وجهه.

– لاحظي! إن ما يجري عندي في المعمل. بصورة مصغرة، هو بالضبط ما يجب أن يحدث بصورة مكبرة:

إحتراس وتصميم وصمود! وهنا يكمن الحل. فلو استدعاني ا لملك، بالصدفة، وقال لي: «يا سيد زيريكوفيتش، الأمر هو كذا وكذا، وانت ترى كيف تسير الأمور، وتعي الحالة التي وصلنا اليها. ولطالما ورد إلى مسامعي بأنك «اقتصادي»، ومجدٌ في عملك، وأنكَ بدأتَ من العدم، وأنك اليوم، والحمد لله... الخ، فقد استدعيتك لأوكل اليكَ أمر اقتصادنا، لكي تعيد تنظيمه، وتنقذ الوضع في اللحظة الأخيرة، والخ.» لو تم ذلك، لانحنيت، ولقلت له: «عذركم يا صاحب الجلالة، لأنني سأتكلم، بحرية وصراحة! إذ اعتبر انني لن أكون ذا نفع لجلالتكم ولمصالح الدولة، إلا إذا قلت الحقيقة. والحقيقة هي أن أنصاف الحلول لن تجدي نفعاً ولن تفي بالغرض. فلا بدَّ من تبديل الأمور من جذورها، ولا بدَّ من استخدام مبضع الجراح. ولن استطيع تحمل أعباء المسؤولية التي أوكلتموني إياها، إلا اذا أعطيتموني صلاحيات لا حدود لها، لأنه ينبغي كيت وكيت، كيت وكيت».

كان أندريا يلُّوح بيده، وكانت زوجته تتابع بنظرتها حركة يديه، لأن كل حركة كانت تعني إصلاحاً عظيماً، لأنه كان قد قبل المهمة التي أوكلت اليه باصلاح الوضع الاقتصادي.

– انتبهي! الكل سواسية أمامي. أتفهمين؟ استدعي الجميع واحقق معهم دون تهاون، ودون مراعاة لظروف مخفِّفة. فالمتقاعس والفاسد وغير الأهل بالثقة، أقطع رأسه دون رأفة. يأتي أحدهم متدخلاً: «يا سيادة الوزير، هذا فلان بن فلان، وراءه زوجة وأطفال صغار!» أما أنا، فأبقى كالصخرة الجلمود، بلا إحساس. ليس عندي تسامح. سترين بنفسك أن

الأمور سوف تأخذ مجرى آخر في فترة قصيرة، ولسوف يحكي الجميع عن أندريا زيريكوفيتش وسوف يتذكرون اللحظة التي تسلم فيها دفة الحكم.

كانت يداه المليئتان بالعقد والشعر الغزير، تديران دفة الحكم الوهمية أمام عيني زوجته.

ينتهي المشهد إذ تحين لحظات التثاؤب والتمطي، وتضمر العيون وتأخذ تدمع. لكن أندريا، بعد أن ينهي تحضيراته الطويلة المعقدة استعداداً للنوم، لا يأوى الى الفراش، بل يجلس على حافة فراش زوجته، طاوياً إحدى ساقيه تحته، ويواصل حديثه.

وعلى الوسادات الكبيرة المغطاة بالكتان التشيكي الأبيض، يتجلى وجه زوجته الجميل وشعرها الكث الأسود وعيناها الزرقاوان وعنقها الغض. أما ثدياها المتواثبان من تحت قميصها الهفهاف، فهما عنوان صارخ للعافية وللقدرة المختزنة في جسمها الرائع. لكن أندريا لا يرى من كل ذلك شيئاً، وانما ينظر عبر زوجته ومن خلال الأشياء المحيطة بها، إلى أرجاء خياله النائية، نظرة المزهو بنفسه الى مرآة أمامه.

وبصوت خفيض جليل، وبنظرة حادة ثاقبة ترافق كل كلمة ينطق بها، يواصل الزوج، وهو في ثياب النوم، ما بدأه في المساء.

– إن أحداً لا يعرف مقدرتي على الصرامة وعدم التسامح. أجل، أجل! إن الناس لا يعرفونني إلا سطحياً،

فيظنون أن لطفي ومجاملتي ودماثتي، ضعف وعجز، وبأنني لين ومِمراض. يا لهم من مخدعين! إنني أفعى سامة! أرنؤطي! فاذا اقتضت مصلحة الدولة ذلك، لأقصيت، ولملأت السجون.. و.. ولقصصت الرقاب. أجل، لقصصت الرقاب! ولن يرف لي جفن. أتقصى أولاً، ثم أقيِّم ثم أحكم، ثم: سكْ! سكْ! سكْ!

في هذه اللحظة، يصور أندريا كيف تتم عملية قص الرقاب، بأن يمرر راحة يده اليمنى، مرات عدة، يمررها كلمح البصر، فوق قبضة يسراه المشدودة. وعلى الحائط المقابل، كان يرتسم ظله المطوط، الأشبه بوحش من قبْل الطوفان، وظلُّ يديه اللتين تقومان بالقص، أشبه بشكيمة لا تهدأ بين فكي ذلك الوحش.

أما آنيتسا، فقد كانت تراقب رجُلها القزم الأشعر، في جلبابه وملابسه الداخلية الصوفية وقلنسوته البيضاء على رأسه. وحين كان يلوح بيديه، كانت تنزاح حافة جلبابه عن قدم رجله المطوية تحته، فيظهر، تارة، ظفر الابهام، ظفر ضخم، قاس، ملتو، وتارة عقب القدم المتجعد الجاف، كما لدى المومياء. أغمضت المرأة عينيها المتعبتين للحظة، فانعكس نور المصباح الصغير الذي بجانب السرير، خيوطاً فضية على جفونها المثقلة، وكانت أثناء ذلك، تسمع لهاث رجُلها، وهو يواصل مهمته الحكومية.

كانت هسهسته تزداد اهتياجاً وانفعالاً:

سكْ! سكْ! سكْ!

ولما فتحتْ عينيها مجدداً، رأت نظرته المرتابة الثاقبة، تبحث في تعابير وجهها، عن موافقة أو استنكار. ولكي يؤكد لها قوة إرادته وجسارة فؤاده، يروي لها إحدى مغامراته في أيام الصبا، وهي أربع أو خمس، يكررها، دوماً، وكأنه يرويها لأول مرة. وكثيراً ما يكرر واحدة منها بالذات، لأنها تبدو، أقرب الى التصديق من غيرها، مفامرته في بودابست، وكان يومها «صانعاً» غِرّاً. يروي أنه على مرأى من جماهير العمال المذعورة التي لطت في زاوية ميتة، عَبَرَ الميدان بكامله، برباطة جأش، بينما كانت قوات الدرك تصلي بنيرانها من على ضفة الدانوب المقابلة. إثر ذلك، أخذ الناس يستفسرون عمن يكون هذا الفتى المقدام، الذي نجا من زخات الرصاص، وارادوا رفعه على الأكتاف، وأخذ صور له، واجراء تحقيقات صحفية معه، لكنه تهرب من كل ذلك، لأنه يكره المظاهر.

إن آنيتسا تعرف هذه القصة عن ظهر قلب. لكنها تتابع سرده لها، كل مرة، لترى فيما اذا يبدل فيها، ينقص أو يضيف، فتجد أنه يرويها دائماً بكل تفاصيلها، دون زيادة أو نقصان، شأن سرد أي قصة مختلقة.

– أجل يا عزيزتي، إن أندريا كما ترين، ليس نواحاً على المقابر.

يقول ذلك، بصوت مهين مؤنب، مع أن زوجته لم تنبس بحرف. ومن فرط انفعاله، كان جانب من شفته العليا، يختلج برجفات واهنة. وما كان أمام آنيتسا إلا أن تخفض بصرها، كي تتحاشى هذا المأزق.

وأخيراً عزم أندريا على النوم، فأطفأ النور، والتف بلحاف ذي ملاءة حريرية وردية اللون، وغفا على غمغمة خفيفة، خبت حتى تلاشت. أما زوجته فقد بقيت ساهرة تحدق في الظلام، بجانب كومة من لحاف وزوج نائم، لا تعرف الى النوم سبيلا.

إنقضت السنة الأولى من حياتها الزوجية، بالاستماع الى تبجح زوجها والى قصصه المبتذلة التي يدور جميعها حول شخصيته العظيمة. فقد كانت تصغي اليه دون أي انفعال ودون أية مشاركة، وتمسك عن التثاؤب، متصنعة بأن الأمر يهمها الى حد ما. غير أن موهبة الزوج كانت ماتني تنمو، وسرده ما ينفك يطول ويزداد غرابة ووقاحة وعدوانية. فبدأت تتقزز. وبدا لها مهيناً، أن تبقى ساعات طويلة، تستمع اثناءها الى تباهيه وتبجحه وتلفيقاته، وأن توليه انتباهها، فيظن انها تشاركه اللعبة. وبدا لها مهيناً أيضاً، أن يعاملها معاملته لجماد أو لكائن لا عقل له، وأن يطلق العنان لخياله ولسانه وأكاذيبه وأوهامه. فلما كانت عزباء، سمعت من رفيقاتها المتزوجات، قصصاً عن رجال تافهين، شواذ، ذوي نزوات مريضة، يطلبون من المرأة أموراً مخزية وغير طبيعية. ولئن كانت عديمة الخبرة بهؤلاء الرجال وبتصرفاتهم، فقد بدا لها أن أفعال زوجها قد تكون شيئاً من هذا القبيل أو ما يشابه. وعلى أية حال، فانها تشعر أن زوجها يسيء اليها، باسلوب ماكر، خال من الشفقة، وإن يبدو، في ظاهره، اسلوباً ساذجاً. إنها تشعر بالخجل، ويؤلمها ويحرقها الى حد لا يطاق، شعور عميق بالذل والعار، يزداد مع كل يوم يمضي. وبدل أن يثير هذا الألم فيها، غريزة

الدفاع عن النفس، فانه يلجم لسانها ويكبح حركتها ويقضي على كل قرار في طور تكوينه. ان سلبيتها وعدم مقاومتها، قد حفّزا زوجها على التمادي في تبجحه وتباهيه ببطولاته. لقد كان بوسع هذه المرأة المتمتعة بالصحة والذكاء والأنوثة الثائرة التي لم ترتوِ، كان بوسعها بحركة واحدة من يدها القوية، أن ترمي هذا القَزم أرضاً، وأن تلفه بلحافٍ كطفل معوق وتنهره بأن ينام، وكان بامكانها، بكلمة واحدة، أن تخرسه وتعيده الى رشده، وأن تفهمه بأن تصرفاته هي تصرفات انسان مجنون، وأنه مجنون بالفعل، إن كان يتصور بأن ثمة مجنوناً مثله يصدق كلامه. لقد كان بوسعها فعل ذلك كله، لكنها لم تفعل، لأنها لم تجد القوة لفعله. كانت كالمسحورة، تسمع ما تشمئز من سماعه، وتنظر إلى ما تقرف من رؤيته، وتحتمل ما تكره احتماله. وكانت تسمح له كل مساء، بأن يمثِّل أمامها، وكأنها متفرج مأجور، دوره التنكري الذي قوامه الكذب والخيال المريض. وما أن يُشبع نزوته ويشعر بالرضا، حتى يستلقي ويغفو، كما هو الآن، بينما هي تغوص في التعاسة وتشعر أنها ذليلة، قذرة، كمِمسحة، تمسَّحتْ بها أيد لزجة متسخة، ثم رمتها في هذه الحفرة المظلمة.

تفكر بأن عليها أن تدافع عن نفسها كي تنجو، لكنها لا تعرف وسيلة لذلك، لأن للمصائب درجات. فما هي درجة مصيبتها؟ أمر يصعب تحديده. في مثل هذه الحالة، ليس أمام صاحبها إلا أن يتحمل وزرها لوحده، لأنه فاقد الوسيلة الشرعية للدفاع عن حقوقه وغير قادر على التشكي. فلكي

يستطيع الإنسان الدفاع عن حقوقه وعن شخصه، عليه أن يجد له سنداً بين الناس، وفي نصوص القوانين، أو على الأقل في مفاهيم وتقاليد المجتمع، بخصوص هذه الحقوق. فما بالك اذا كان الأمر يتعلق بامرأة، وبآنيتسا تحديداً؟ فمن أي شيء تشكو في هذا الزواج المثالي في ظاهره؟ وكيف تقول للآخرين أنه يُساء اليها بطريقة بشعة لا يمكن تحملها، تضطرها الى الهرب والنجاة برأسها، وإلا لجنَّتْ وانفجرتْ من شدة السأم والخجل والقرف منه ومن نفسها؟ وكيف تبرهن على أن الحياة في هذا البيت الثري، الوجيه، والى جانب زوج، ذكي، لطيف المعشر، متدبِّر، حياةٌ لا تُطاق؟ وما هو السبب؟ كيف يتسنى لها ذلك، وهي تفقد القدرة على التعبير، حتى في ذات نفسها، وكيف تحمي نفسها وهي تعجز عن شحذ قواها لتواجه هذا الجبان، حتى داخل هذه الجدران الأربعة؟ إنها لا تعلم سوى أمر واحد، وهو انها تعاني ولن تستطيع التحمل طويلاً. ولعل المصيبة الحقيقية الكبرى التي يمنى بها انسان ما، هي أن يصبح ملجوم اللسان، مشلول الحركة، بسبب قرفه وحيائه مما يتعرض له من سوء معاملة، فيعجز عن الدفاع عن حقوقه، بل يضطر، الى جانب كونه ضحية، الى الظهور بمظهر المذنب.

في هذه اللحظات، غالباً ما كانت تفكر بالهرب من هذا البيت. وكما يحلم الطفل، وهو في فراشه الدافيء، بأمور غريبة عن الواقع وبمغامرات خيالية خارقة، كذلك تتخيل الآن، مدى روعة وهول هروبها من هذا البيت ومن هذا الزوج. فبقرار واحد وبخطوة واحدة، تتحرر من كل شيء وإلى أبد الآبدين.

انها تدرك مدى فظاعة هذا الأمر وجنونيته، ومدى استهجانه في أعين أسرتها والعالم أجمع، كما تدرك استحالة تنفيذه. ولكن بعد دقيقة، تعود وتستعرض عملية هروبها حتى أدق التفاصيل. تتصور أنها وحدها في البيت، وأنها تناولت حقيبتها، حقيبة الفتاة العازبة، التي أحضرتها يوم تزوجت، وانها وضعت فيها الحاجيات الضرورية، حاجياتها التي حملتها معها يوم انتقلت الى هذا البيت، وأنها عادت الى منزل أبيها في الضاحية، حيث شقيقتها الصغرى وشقيقها. إن شقيقتها تدرس الفلسفة وتنظم الشعر. أما شقيقها المراض، فلا يحب العمل لكنه يُحسن العزف على القيتارة، وهو مثال للطيبة، وقد استحق عن جدارة، لقب «الملاك». وصحيح أن أباها صعب المراس، وأن المنزل متعِب، يتطلب عملاً دؤوباً واحتياجات ملحة لا تستكمل أبداً، ولكن ما قيمة كل ذلك، اذا قيس بما تعانيه هنا! إن حياة الفقر والكدح، التي عاشتها قبل زواجها، لتبدو لها الآن حلماً لا يمكن تحقيقه، وسعادة لا يمكن بلوغها، مهما كان الثمن، ومهما تنوعت الطرق. فهي تعلم، علم اليقين، أن أباها لن يأويها في منزله، وانها ستجابه لوحدها الناس أجمعين دون معين لها، كما تعلم أن هروبها خطوة منافية للعقل، كالانتحار تماماً. تطبق جفونها بقوة، تريد أن تنام، لكنها لا تستطيع، فتواصل حلمها بالهرب الى منزل أبيها.

كانت أحلام اليقظة هذه، تتكرر وتطول، بينما هي مستلقية الى جانب زوجها الراقد، المتكوِّم كأكمة من تراب، هذا الذي

سينتهز أول فرصة تُتاح له، ليقول للضيوف، اثناء الحديث، بلهجة تشف عن تواضع واعتزاز بالنفس في آن معاً:

- من يعمل، لا يأرق. فأنا أغفو حالما أستلقي. ولا أتذكر أنني رأيت مناماً قط!

ان آنيتسا تعرف هذا القول عن ظهر قلب، شأن جميع أقواله.

وبينما كانت تفكر في ذلك، شعرت بألم يمزق نهديها، يدعوها لضغطهما بكلتا يديها. فلما فعلت، سرى الألم في أنحاء جسدها، فابتعلت آهاتها سوية مع دموعها. وشعرت بخلجات في فخذيها تحضها على النهوض، وبانقباض في صدرها يقطع أنفاسها، فكابدت كل ذلك، حتى هدها التعب والأرق، واستسلمت الى النوم، بأمل غد أفضل، أو على الأقل، مختلف عن الأيام السابقة. لكن الغد لم يختلف عما سبقه، وكان أسوأ.

ولئن كانت آنيتسا تقضي فترة الصباح وحتى الظهيرة، في طمأنينة نسبية، متلهية بالأعمال المنزلية البسيطة واصدار التوجيهات الى خادمتها، فما أن تمضي الظهيرة حتى يبدأ الخوف يتسلل إليها.. خوف من الليل ومما سيجلبه من عذاب.

إن أندريا اذ لا يستطيع مقاومة النزوة إلى إعلاء شخصه والاستخفاف بكل ما حوله، فإنه كان كل مساء، يهدم ويحطم المؤسسات والمهن والشخصيات البارزة، ثم يبني على الحطام، تمثالاً لشخصه، بحجم يفوق الحجم الطبيعي، معبراً بذلك عن

كراهية دفينة مكبوتة، وعن حسد لكل الناس على مآثرهم. كان كل ما هو حوله، يبدو له، في ضوء نقده وسخريته، ضعيفاً وناقصاً وبعيداً عن الكمال: ادارة الدولة والجيش والاقتصاد. وحتى الكنيسة التي كان يكنُّ لها عظيم الاحترام، كانت في نظره موغلة في الليبيرالية ومهلهلة من حيث التنظيم. أما الطبقة العاملة فهي مهملة ولم يحسن استغلالها. وأما القضاء، فهو رخو وبطيء. وأما السلطة، فهي فاقدة زمام الأمور وغارقة في الاهمال. وهكذا دواليك، إلى أن يعمم ذلك على الناس أجمع. فالناس، في نظره، إما اشرار، أو عديمو القدرة، أو كسالى. وباختصار، انه يرى العالم مشوهاً، مليئاً بالعيوب.

في بعض الأماسي، كان يذهب الزوجان الى المسرح. فكانت آنيتسا تفرح بذلك، لأنها، منذ صغرها، تعشق المسرح ولا سيما الاوبرا. وكان يسعدها مجرد الفكرة بأن يخرجا معاً، الى اي مكان كان، لأن أندريا يكون حينها، ذلك الرجل الهادىء، الجدِّي، الذي «يُحسن المعاملة»، ودون أيٍّ أثر للوجه الآخر الذي لا يعرفه أحد سواها.

فعندما يرجعان من المسرح، تسرع الزوجة الى فراشها، لتتجنب الحديث مع زوجها، محتفظة بذلك، بحرارة النشوة التي تبقى إثر حضور مسرحية أو أوبرا أو باليه. لكن الزوج لم يكن يترك لها هذه الفرصة. فبعد أن ينهي التحضيرات الطويلة للنوم، بكل دقة وعناية، وكأنه يؤدي طقوساً دينية تكريماً لشخصه، يجلس على حافة مضجع الزوجة التي كانت تترقب قدومه بذعر، ويأخذ يشرح لها كيف أن فرقة باليه «المسرح

الوطني» دون المستوى الذي يُفترض أن تكون عليه، وأن كل شيء يقوم على أساس خاطيء، على الغش وعدم المقدرة وسوء التدبير ووو.. الخ. ويقترب منها مزيداً من الاقتراب، ليشرح لها كيف أن راقص الباليه الشهير «كرايفسكي» الذي شاهداه في تلك الأمسية، ليس جديراً بالسمعة التي نالها، وكيف أن حركاته خالية من الرجولة، خاصة وأنه يؤدي دور الفارس الشاب أمام الأميرة الغافية.

– ماذا يظن هذا الغر الوسيم؟ أيظن أن المهارة تكمن في العيون اللوزية والشوارب المفتولة؟ أهكذا يدنو عاشق ولهان من حبيبته التي يتلهف عليها؟ أنا لست براقص أو فنان، وليس الفن مهنتي. ولقد خامرتني الرغبة لأنهض وأريه كيف يؤدي ذلك. فمعاذ الله أن أكون قائداً لفرقة الباليه هذه! فأنا لا أسمح بأن أكون ضُحكة، وأن يتواثبوا أمامي هكذا. كُوني على ثقة من ذلك! إن عليهم أن يقفوا على رؤوس أصابعهم، وأن يدوروا حول أنفسهم حتى يروا نجوم الظهر تلمع أمام أعينهم. عليهم أن يحلِّقوا متى طرفتُ لهم بعيني.. أتفهمين؟ – لا أن يتخلَّعوا بخطاهم كالدمى في مسرح العرائس!

إن أندريا الذي كان قد تهيأ للنوم، يتقمص في الحال، دور قائد الفرقة، ويأخذ، وهو في جلبابه الفضفاض وفتائل القطن تبرز من منخريه ومن أذنه اليسرى، يأخذ يقود العازفين والراقصين معاً، وعلائم الصرامة ترتسم على وجهه، ثم يثب فجأة، مبيِّناً لزوجته، ما كان على الراقص الأول أن يفعل، في ذلك المشهد، عندما كان بجوار الأميرة.

إن ذلك كله ينتهي باستسلامه الى النوم العميق الذي يفاخر به، وببقاء زوجته تعاني الأرق المضني. وفي مساء اليوم التالي، يتكرر المهشد بمضمون آخر.

إنها لم تعد تدري كيف تفسر ذلك حتى لنفسها، فكل الذي تعرفه، هو أن زوجها، بعد أن ينهي عمله ويبقيان معاً لوحدهما بعد العشاء، يتحول الى إنسان شاذ، إلى مسخ، حيث يتقمص كل أمسية دوراً جديداً يؤديه أمامها، دوراً يزداد، كل كرَّة، بعداً عن المنطق والواقع، كما يزداد قبحاً وفظاعة. وهي لا تقوى على ردعه ووضع حد لتصرفاته. إنها تستمع إليه بسأم ومقت، بل وبذعر شديد، إذ بات يعتريها في الآونة الأخيرة خوف حقيقي. وتعلم أيضاً أن ذلك كله هو مجرد جعجعة، جعجعة، إنسان بائس لا حول له ولا قوة، يُمضي نهاره في عمله بكل اتزان واخلاص، فما أن يحل الليل ، حتى يأخذ بفض جعبة أعاجيبه أمامها، أمام زوجته التي يُطعمها ويكسوها، وبالتالي، يستطيع أن يتصرف معها دون حياء ودون أقامة أي اعتبار لها. إنها تعلم ذلك، ورغم علمها، يعتريها الخوف. لأن أندريا قد أمسى يتجاوز حدود الممكن والمعقول والمسموح، عندما يتباهى بما يمكنه فعله، لو كان كذا وكذا، كما يتيح له خياله الخصب.

كانت الأماسي بالنسبة لأندريا، بمثابة طقوس سرية، ترضي غروره، وتروي تعطشه للسلطة، وتشبع نهمه للقوة والمجد وجميعَ غرائزه التي يخفيها أثناء النهار، أو التي لا يدري بوجودها في كيانه، كما كانت بالنسبة لآنيتسا، بمثابة

رعب مستتر وأرق يحتد من ليلة لأخرى.

وكانت البواعث عديدة: أي أمر من الأمور، كان بمثابة باعث. يشرع الحديث، مثلاً، بمناسبة خبر مفصل ورد في زاوية الجرائم: «تحت جسر للسكك الحديدية، عُثر على جثة امرأة، يعتقد أنها أجنبية طُعنت بمدية في أكثر من موضع» –«صبية، فاتنة، تشير المظاهر الى انها تنتمي الى المجتمع الراقي» – «غموض يلف دوافع الجريمة» – «لم يُكشف حتى الآن عن هوية الضحية» – «من يقف وراء الجريمة – من هو القاتل؟»–

بعد أن قرأ أندريا الخبر بصوت عال، غاص في مقعده الخفيض، وأخذ يحدث زوجته ساخراً:

– يا لهم من أغبياء حقاً! لم كل هذه التساؤلات؟ أهي المرأة الجميلة الوحيدة التي تعمل في خدمة المنظمات السرية وشبكات التجسس؟ ما اكثرهن! اليكِ كيف تعمل هذه المنظمات: أولاً، يغرونك بشتى الوسائل، فتقعين في شباكهم، وتصبحين واحدة منهم. ثم تقسمين على المسدس والخنجر، بأنكِ سوف تنفذين، دونما اعتراض، كافة الأوامر، وبأنكِ لن تفضي بالسر أبداً لأي انسان. فلو ارتكبتِ خطأ ما، أو بحتِ بالسر، تضعين رأسكِ بنفسكِ تحت المقصلة. لا مفر لكِ ولا نجاة. وفي لحظة تظنين فيها أنكِ آمنة، وإذ بالمدية تطعنك في ظهرك. وهذا ما ينبغي أن يحصل! لا رحمة ولا تلكؤ! حتى ولو كانت المعنية شقيقتي، لحكمتُ عليها بالموت. والتنفيذ فوري وبسرعة البرق. وإذاتطلب الأمر لنفذت الحكم بنفسي. أتفهمين؟ اما أفراد

الشـرطة الأغبـياء، فـهم الآن يسـرحـون ويمرحـون ويقـرأون في الغيب: «الشـبهـةُ تحـوم حـول رجل أسـمـر، طويل القـامـة»! قد يكون أو لا يكون، وهذا مسـتبعـد.. والخ. إنـهم لا يعرفـون شيئاً. صـدقيني إذ أقـول لكِ! انـهم جميعـاً عميان وجهلة، ويحسبون أن الآخرين على شاكلتهم.

ينهض أندريا ويقترب من زوجته.

– لعل القـاتل، هو بالذات، الشـخص الذي تعتبره الشـرطة الحكيمة «مستبعـداً كل الاستبعاد» أو الذي لا يخطر ببال أحد. وربما القـاتل ليس بأسـمـر ولا طويل القـامـة. أو ربما يمر مـدير الشـرطة الجنائية بجـانبه، كل يوم، ويتبـادل معه التحـية، كونه أحد معـارفـه القدامى. أو لعل القـاتل يتلذذ برؤيتـهم يتـخبطون خبط عشـواء، اذ يوجـهون التـحقيق الى الطريق الخطأ، ويهزأ منهم مقهقهاً: ها، ها، ها، ها!

يدور أندريا دورة كاملة حول الطاولة، وهو يقـهقـه. ثم يقف مقابل زوجته، ويواصل:

– فليكن من شاء أن يكون، غير أنه معلِّم. رجل لا يخفق له فؤاد، اثناء تنفيذ مهمته في سبيل الأهداف العليا.. رجل له عينا صقر ويد لا تخطيء الهدف.

يرفع أندريا قبضة يده المشدودة، ويحدق في عيني زوجته:

– يمكنني قـول ذلك، لأنني أنا كذلك. يعـتقدون أن أندريا، لبق، لين العـريكة، طيب القلب، لكنهم لا يدرون، وليس بوسـعـهم

أن يتكهنوا من هو أندريا زيريكوفيتش! ها، ها! فأنا لست بحشرة ولا بنملة. انني أسد، أسد متربص، سبع من أخطر السباع. أتفهمين؟ وأنت أيضاً تحسبين باني لا أقدر، حتى بالمنام، أن أقتل مثل هذه المرأة التي زلّت.

ويفيض وجه أندريا بابتسامة، هي مزيج من الشفقة والازدراء. أما آنيتسا، فتخفض بصرها، ويصعد الدم الى وجنتيها، وتتحرك شفتاها، لكنها تبقى خرساء، لا تجد ما تقول.

فينقض عليها أندريا كالمحقق:

– ها أنتِ أيضاً تظنين ذلك؟! إذن، لقد حزرتُ. إنك لا تعرفينني كما لا يعرفني الآخرون. ولكن عليكِ أن تعلمي ما يلي: فيما اذا كان الأمر يتعلق بمبدأ، بمصالح قضية مقدسة، عاهدتُ نفسي على خدمتها، فإني لن أتوانى عن قتل هذه الجوّالة المتدثرة بالحرير والفراء. إن قتلها عندي، أهون من شرب كأس ماء. «فإن تخوني، فمصيرك معروف». طعنة هنا.. تحت الرقبة، حيث الشريان الرئيسي، ثم ثلاث طعنات: واحدة في الظهر، واثنتان في الصدر: طَع! طَع!طَع!طَع!

نظرت اليه الزوجة خائفة، مذعورة، وهو يلوح بقلمه الأصفر القصير، ويلهث: طَع! طَع!طَع!طَع!إنها تعرف هذا القلم جيداً، لطالما حدثها عنه مراراً وتكراراً. كان يقول لها، أنه يستخدم هذا القلم ذاته للعام السادس، لأنه يعرف كيف يقتصد، اكثر من اي انسان آخر، أثناء الكتابة وعند بَرْيِه. أما

أن يفقده أو ينساه في مكان ما، كما يفعل الآخرون، فمعاذ الله! «إن هذا القلم سوف يخدمني ست سنوات أخرى، بفضل اقتصادي وحرصي. ولو حذا الآخرون حذوي، لمات أصحاب معامل الأقلام من الجوع». كذلك كان يقول لها، وهي تتذكر جيداً كل كلمة.

كان أثناء ذلك يواصل حديثه ويلوح بقلمه:

– هكذا، بالطبع! دون تأوه. ثم يغسل الفاعل يديه، ويعود أدراجه، وكأن شيئاً لم يكن. ولما يدور الحديث عن الجريمة، يشارك في الحديث، ويتصفح الجريدة ببرودة أعصاب، كأي جليس آخر، دون أن يرف له جفن.

بعد ذلك، تناول أندريا كأس الماء التي كانت تنتظره على الطاولة، وشربها، ورمق زوجته بنظرة تبدلت على وجه السرعة، من تأنيب الى تسامح فإلى استخفاف، كأنه يغفر لها عدم فهمها وقلة درايتها بأمور يصعب حتى على الأفطن منها، فهمها ومعرفتها. ثم تصفح الجريدة لبعض الوقت، فنهض وخطا خطوات متزنة، هادئة، خطوات تلائم رجلاً أطول منه وأقوى، وتوجه الى الحمام لتحضير نفسه للنوم.

استلقت أنيتسا في السرير مثل جثة هامدة أُحضرتْ من عملية تعذيب. أمستْ تخشى الظلام ولا تجرؤ على إشعال النور. واعتراها شعور بالتقزز مما سمعت طيلة المساء، فحاولت صرف أفكارها في منحى آخر، لكنها لم تستطع. غفت للحظة. تراءت لها في المنام، جثة امرأة ملطخة بالدم،

فاستيقظت مذعورة على صيحة مكتومة انطلقت من حنجرتها. أما زوجها، فلم يسمع صيحتها، لأنه ينام، دوماً، على أذنه اليمنى، وقطعة من القطن تسد اذنه اليسرى.

في مثل هذه الليالي، لم تكن آنيتسا تجد الى النوم سبيلاً. كانت تراودها فكرة الهرب من هذه الغرفة الخانقة، من ايقاع هذا التنفس الرتيب بجوارها. وكانت غالبا ما تغادر فراشها وتتسلل الى الحمام وترطب يديها ووجهها، وترش بالماء البارد نهديها المحتقنين. كان ذلك يخفف عنها قليلاً، ولفترة لا تطول. ففي الفراش الدافيء، حيث تنتظرها الأفكار القديمة، سرعان ما تتحول برودة الماء الى سخونة رطبة تخنق الصدر. فتثب الى الحمام مرة ثانية، وترتمي على بلاط أرضيته البارد، وتبقى متمددة وهي تتوجع وتئن، حتى تشعر بخدر يسري في جسمها، من جراء صلابة البلاط وبرودته، فتعود الى مضجعها، مع البرد الموجع ومع فكرة باتت هاجسها الدائم، وهي أن ما تفعله يسبب المرض أو الموت.. والموت تحرر في أية حال.

هكذا كانت تُمضي في الغالب، جلَّ ليلها، وتقضي نهارها بشؤون المنزل، ويأتي المساء ويمر بأحاديث الزوج، ثم تحل ليلة أخرى بعذاب جديد.

وهكذا، فإن التباين بين النهار والليل، هائل جداً، في حياة العديد من النساء اللواتي تزوجن، مثل آنيتسا، واعتُبِرَ زواجهن فرصة نادرة لا تُثمَّن. إنه زواج سعيد في مظهره ليس إلا. ففي وضح النهار، تبدو كل منهن راضية قنوعة. وما أن يأتي الليل

حتى يأخذن يعانين عذاباً، لا يستطعن معه التعرف على أنفسهن من خلال ظلام مضاجعهن المحرق. ولما يستفحل التباين بين النهار والليل، في ظل حياة كهذه، تُستنفذ القدرة على إخفاء المعاناة، وعلى التظاهر بعكس الواقع المرير. وكمحصلة لهذا الاستفحال، تتصدع الحياة وتؤول الى شظايا.

لقد عاشت آنيتسا اكثر من عامين على هذا المنوال. ولم يكن ثمة سبب يحول دون انقضاء عام ثالث ورابع، وهكذا دواليك. فلقد قررت في سريرتها ألا تشعر أحداً بأنها تتعذب، فما بالك أن تبوح بذلك جهارة! كان للسنين أن تنقضي، وكان بوسع آنيتسا أن تتخطاها بصمت - لو قُدِّرَ لها أن تبقى على قيد الحياة - كان بوسعها ان تتخطى السنين، لكنها لم تكن تستطيع تجاوز الساعات ودقائقها.

إن ساعة من هذه الساعات المصيرية التي لا يمكن تجاوزها، حانت في أواسط العام الثالث من حياتها الزوجية. إنها مجرد لحظة مضيئة، ترينا بشكل جلي لا يقبل الشك، أن حياتنا التي نحياها، هي حياة بائسة، ذليلة، لا تُطاق. عندئذ، يرتعد كياننا من جذوره، ويجمع قواه، بغية اتخاذ القرار الصعب، وقد يكون قراراً مأساوياً. ولئن كان العالم من حولنا في حركة دائمة، ولئن كنا بطبيعتنا، نميل الى تجنب الانعطافات الحاسمة، فانه يكفي أن يلفت انتباهنا، أمر بسيط، أو شخص نلتقيه صدفة، أو حديث عابر، أو كتاب نقرأه، أو عمل بسيط نتلهى به، حتى نصرف النظر عن الحقيقة المبينة، فنواصل خداع أنفسنا، ونتهرب بجبن من اتخاذ القرار السليم، ونعود

الى اسلوب الحياة القديم. غير أن ما يحدث في غالب الأحيان، لم يحدث هذه المرة.

ففي تلك الأمسية من أماسي أيلول/سبتمبر، طُرق الباب، ففتحت الخادمة. وظنت آنيتسا أن زوجها قد عاد من عمله قبل الأوان. لكنها تبينت أن أحد الشغيلة في المعمل قد أتى لأمر ما. ولو كان القادم زوجها، لأمضت تلك الأمسية، كأية أمسية أخرى مضت، ولاستمرت الحياة في هذا البيت، شأنها حتى ذلك الحين. أما الآن، فينبغي لها انتظار قدوم زوجها. وبدا لها ذلك مستحيلاً. فتأججت في جسمها المكتنز الذي ما زال يفيض بنضارة الشباب، رغبة جامحة لمغادرة هذا البيت. وخالطت أفكارَها المخاوف من الإقدام على أمر غير مضمون النتائج. وألحَّ عليها سؤال واحد، لم تستطع التهرب منه: ما هي، يا ترى، المشاهد والأحاديث التي تنتظرها هذا المساء وهذه الليلة؟ ولو كانت الخادمة موجودة، لتبادلت معها بضع كلمات، لا على التعيين، ولانصرفت أفكارها نحو أمر آخر، ولظلت حيث هي. لكن الخادمة كانت قد خرجت، صدفة، لشراء حاجة، وهكذا، وجدتْ آنيتسا نفسها في غرفة النوم، أمام خزانة الملابس. كما وجدت حقيبتها مفتوحة، حقيبة العزوبية، الصغيرة، الرخيصة، من الجلد الاصطناعي، فوضعت فيها، مثلما كانت تفعل أثناء أحلامها وهذيانها، بجوار زوجها الغافي.. وضعت الأشياء التي في أمس الحاجة اليها، وملابسها التي أحضرتها معها يوم زفافها، وضعتها على عجل وهرعت كالمجنونة، وهبطت الدرج، والحقيبة في يدها. لم

تلتقِ بأحد ولم تسمع حساً. كان فكرها قد توقف. أما ذلك الجموح الذي كان يفتعل في جسدها، فقد حملها مثل قشة عبر الطريق المخدر، وأوصلها إلى منزل أبيها.

سيرة ذاتية

وقعتْ لي هذه الحادثة قبل بضع سنوات، في الإقليم الشمالي الشرقي من البلاد، على حد تعبير نشرة الأنباء الجوية، أثناء إحياء الذكرى الثلاثمائة لإحدى المناسبات. ولئن كان أهالي هذه المنطقة يحسنون تنظيم مثل هذه التظاهرات الثقافية، فإن الإحتفال بدأ واختتم على أحسن حال. كان عدد الخطباء قليلاً، وكانت خطبهم قصيرة، فلم يتسرب الملل إلى نفوس الحاضرين، إذ اقتصر الإحتفال على جلسة افتتاح، فحفلة موسيقية، ثم عشاء مشترك. كنت أثناء ذلك أشعر بارتياح، طيلة الفترة، وكنت طيِّب المزاج. فبدا لي الماضي الذي كنا نُحييه، أكثر وضوحاً وضياء، وهو ما لا يحصل لي عادة. أما الحاضر، فقد كان دافئاً، جميلاً، وكان الناس من حولي، عقلاء وذوي مبادرة. أما المستقبل، فهو أسمى من الحاضر، من جميع النواحي. وحينما يشعر المرء بارتياح كامل، حيال نفسه، وحيال الناس من حوله، وحيال ما مضى وما هو آت، فإن لحظة الشعور هذه، إنما تمثِّل لحظة خطيرة لأنها تعني تحرراً تاماً من الحد الأدنى للحذر الضروري لبقاء الكائن الحي. ففي مثل هذه اللحظات المفعمة بالعنفوان، يتملك المرءَ شعورٌ خاص، يُملي عليه أن يكون لبقاً في تعامله مع الآخرين، وأن يفتح لهم قلبه كي يدخلوه. فإن فعل ذلك، تعرَّض، لا محالة، إلى منغِّصات، قد تصغر أو تكبر، حسب الحالة.

قلتُ أنني كنت طيِّبَ المزاج. فكنت أتحـدث مع الجـمـيع، وكنت أجيب على كل سؤال، ومـا كنت لأرفض أي حديث مهما كان موضوعه.

وفي أثناء تلك الأمسية، وقبل نهايتها بقليل، اقترب مني رجل، لم أكن أعرفه من قبل، وكأنه وصل تواً. لقد ظهر، على حين غرّة، وكأنه الجنية الثالثة عشرة، التي نسوا دعوتها، كما تحكي الأسطورة، فجاءت لكي تنتقم.

- أُدعى نيقوليتش.

لقد تعود أناسنا، ولا سيَّما في الأماكن الصغيرة النائية، أن يذكروا إسم العائلة، وكأن الأمر يتعلق باسم شركة عالمية ذائعة الصيت. يقول لك: «أُدعى نيقوليتش». يلفظ ذلك، وكأن «نيقوليتش» واحد أوحد في العالم، وكأن الآخرين يعرفونه، بل عليهم أن يعرفوا هذا الإسم الوحيد الأوحد، ولو بسبب شهرته على الأقل، مع أن أحـداً منهم لا يعي مـغـزى هذه الإسم وأهميته.

ولئن لم أبدِ أية دهشة، ولم أستقبله بالأحضان، فقد لاحت على وجهه علائم تأفف وامتعاض. مدَّ يده مصافحاً، فضغط يدي بقوة، ورمـاني بنظرة ذات دلالة، تنمُّ عن ثقـة بالنفس، ويتخللها بعض لوم. وجرَّني، في الحال، إلى جانب.

كان قاضي محكمة البلدة، وهو الآن متقاعد. إنه رجل ضئيل الجسم، أشيب الشعر، فقير الملبس، بل إن ثيابه قد عفى عليها الزمن، تفوح منه رائحة النظافة، وكان حليق الذقن بعناية. وكانت انتصابة قامته، توحي بوقفة جندي في وضع «الإستعداد»، تكللها هالة من الحزن، وكأنه يهمُّ أن يُعزِّيك أو أن يتقبَّل منك تعزية. يداه كبيرتان، مليئتان بالعقد، هرمتان،

رمـاديتـا اللون، وقـد تقشّـرت بشـرتهمـا، كمـا هي حـال أيدي الجـرّاحين، من جـرّاء اسـتـعـمـال مـسـاحـيق الغـسـيل القـوية والفراشي الحادة. لقد كان هذا الرجل برمته، بشرته وسترته وعيناه، بلون رمادي ضـارب إلـى الخضـرة. كانت يداه، دومـا، ملتصـقتين. فـإمـا راحـتـا يديه مـتلاصـقتـان، وإمـا مـتشـابكتـا الأصـابـع،حـال إنسـان يفتش عن سند، هنا وهناك، فـلا يجده، فـيسند يداً بـاليـد الأخـرى. وعـيناه الخـضـراوان - الزرقـاوان، تضـيئـان ثم يخفت ضـياؤهمـا، على التناوب. إن المرء يصـادف مـثل هـذه العـيـون لدى المجـانين. فـهـؤلاء، يريدون من خـلال نظراتهم، أن يُنبؤك بما يدور في خلدهم، أكثـر مما يبـتـغـون التعرف على مـا يحيط بهم، أو معرفـة القليل عن الإنسـان الذي يتحدثون اليه.

قـال: «أريد أن نتحـادث». كان قد كتب سيرة حياته ويريد نشرهـا. (وقـد خفّض صـوته، وألقى نظرة قاسية على من حوله، نظرة عدم ثقة حيال أبناء بلدته. وكانوا يتسامرون بصـوت عالٍ حـولنا). وأضـاف بأن هذا العـمل يتـضـمن حـياته، وأن حـيـاته مفعمة بالأحداث المثيرة وبالأسفـار وباللقاءات، بدءاً من الحروب البلقانيـة الأولى التي شارك فيهـا، متطوعا. لقد جاء إلـى صـربيا وتطوع. ثـم الحـرب العـالمية الأولى برمتـهـا. ومن ثم المشكلات القـومـيـة والاجـتـمـاعـيـة، كل ذلك مـدعم بمعطيـات إحـصـائيـة وتفسيرات ومشاهدات حية ومن كتب.وتتضمن أيضـاً مشاريعه الأدبية والعلمية التي لم يفلح في تحقيقها أو في نشرهـا، بسبب الظروف، أو لضـيق البيـئة التي يعـيش فـيـهـا. واختتم حـديثه قـائلاً: «إن العـديد من كـبـار المرمـوقين، يرى أنه ينبـغي عـرض سيرته الذاتية على دار نشر».

هنأته ونصحته، بأن يعمل على نشر هذه السيرة بأقرب وقت. لكنه نظر إليَّ نظرة توحي بأنني لا أعي ما فهتُ به، وقال:

ـ هذا بالذات، ما أردت أن نتحادث حوله، فالوسط الذي أعيش فيه، عاجز عن تفهم هذا الأمر.

كان صفاء روحي وطيب مزاجي، يدفعانني إلى المضي في إمتداحه وتشجيعه. فأعربت عن أملي بأن سيرته الذاتية سترى النور، بل ينبغي لها ذلك.

ـ لا... لا! إن بيئتنا عاجزة عن تفهم هذه المسألة.

لقد بات أناسنا يتشكوّن من «البيئة»، وصارت أعدادهم تتزايد، وشكاويهم تتعاظم، ولكن ليس دونما سبب. غير أن تعبير «البيئة»، بدأ يفقد معناه، بل أصبح ذريعة لكل مصيبة تحلّ بالفرد، كما كانت تعني كلمة «شيطان» في العصور الوسطى.

ولئن كنت أفكر في هذا الأمر، فإني لم أنتبه إلى أن القاضي قد تخلّى عن موقفه، موقف الذي يطلب المساعدة، بل كان، وهو ما يزال يتحدث عن «البيئة» قد صوّب سبابته إلى صدري، وحدّق بي، وبدأ يكلمني، وكأن أمامه تلميذاً، يستوفي كافة الشروط ليحظى بدرجة «ممتاز»، غير أنه لا يبدي من جانبه رغبة، ولا يبذل جهداً في سبيل ذلك.

ـ يمكنك، بل يتوجب عليك، أن تساعدني، لا من أجلي أنا، وإنما من أجل القضية. فلو قرأتَ سيرتي، لتأكدت بنفسك، ولكان بإمكانك إيجاد ناشر لها.

كنت بكامل صحوي، وأراني أدافع عن نفسي. لكن القاضي مضى يتكلم بصوته الخافت، ويزيد من إلحاحه، وكأنه أراد أن يُسمِّرني، بكلماته، في مكاني:

ـ أرجوك أن تقرأها، بل عليك أن تقرأها، أنت بالذات. فما أن تقف على الموضوع، حتى تبدأ بنفسك، عملية البحث عن طريق وأسلوب لنشر سيرتي الذاتية، وإنني لعلى يقينٍ من ذلك. لأن هذه السيرة إنما هي «كتابك». فأنا لم أكتبها إلاَّ من أجل أمثالك.

في البداية، اعترتني حالة من الإضطراب، ثم بدأت أشعر بمزيد من الارتباك. فلم يمضِ على بدء حديثنا،، أكثر من عشر دقائق، حتى ابتعدنا كثيراً عن أولى العبارات المهذبة التي كان القاضي يلجأ اليها: «أعذرني»«عفوك لو أنني أزعجتك..»، «لم أكن أريد أن...»، ورغم سلوكه المهذَّب الذي كان يخالطه، إلى حدٍ ما شعور بالذل، فإن نظرته كانت تُفصح عن قساوة وصرامة ولوم. وبدا الأمر، وكأنني ارتكبتُ هفوة، أو أنني لم أقمْ بواجبي في حينه، أو أنني مذنب لأن مؤلفه لم يرَ النور بعد.

لقد بَتَرَ هذه الحالة البائسة، أحد مُضيفي الإحتفال، إذ دنا منا، واستفرد بي، وقادني إلى مجموعة كبيرة من الناس، كانوا متحلقين حول مائدة طويلة. أما القاضي، فانه ابتعد، وعلائم الإهانة بانتْ على محياه، والتجأ الى زاوية بجانب مدفأة جدارية مصنوعة من خزف. إنه بين ذلك الجدار الرمادي والمدفأة ذات اللون الأخضر الباهت، وهو بلون الرماد المائل الى الخضرة، كان أشبه بعنكبوت حيٍّ، حَذِرٍ، ذي قدرة على التنكُّر. وقبل أن أنفصل عنه، رمقني بنظرة قاسية، أعرب فيها، بلغة خرساء، ما معناه على وجه التقريب: «لقد أدركتَ الآن ما لا يدركه الآخرون، وبالتالي، بتَّ تدرك ما هي واجباتك والتزاماتك، وما هي أهمية هذا الأمر وجدِّيته فما عليك الآن إلاَّ أن تجد السبيل. فلا نفع في الندامة».

أما ذلك الرجل البدين، وردي الوجنتين، الذي بترَ حديثنا، فإنه بادرني مستفهماً عما اذا كان القاضي قد حدثني عن سيرته الذاتية. وتبادل المتحلقون حول الطاولة نظرات مشدوهة، وكانوا يبتسمون.

أمضيتُ معهم بعض وقت، وكان مزاجي الطيب قد بدأ يتعكَّر. ومع أن ما حدث، تلك الأمسية، لم يكن ذا بال، غير أنني شعرت بانزعاج ما، كان أشبه بما تحدثه سحابة دخان في عين انسان.

في تلك الليلة لم يكن نومي هادئاً. وغـــادرت المكان في الصباح الباكر. وبعد مضي بضعة أيام على عودتي الى بلغراد، وصلتني رسالة مسجلة وقبل أن أتفحَّص ختم البريد، حزرتُ، من الوهلة الأولى، من هو مُرسلِها. وتراءت لي من بين الحروف الأولى، يدا القاضي الرماديتان ذواتا العقد والأصابع المتشابكة.

يُعرب القاضي في رسالته عن دهشته، لأنه لم يتلقَّ أيَّ رد، لكنه متيقِّن من أنني أدركت أهمية سيرته الذاتية ومن أنني اتخذتُ كافة الاجراءات اللازمة لطبعها ونشرها. ثم أضاف: «إنك قادر على ذلك، وانك اذ تعيد العرفان بالجميل لشخص، مثقَّف، يعيش حياة عزلة، إنما تقوم بذلك للأجيال القادمة، شريطة أن لا تتخذ ذلك الموقف الذي اتخذه الكثيرون، ازاء عمل، يُعتبرُ عملَ العمر كله، قام به انسان، يبدو في ظاهرهِ انسانا مجهولاً غير ذي أهمية».

وأرفقَ برسالته بضع صفحات، طُبعَ عليها بالآلة الكاتبة محتوى سيرته الذاتية، أو بالاحرى عناوين فصولها. وكان عنوان الفصل الأول، (واعتقد أنه وصف لولادة المؤلف): «لم

يظهر في السماء نيزك، ولم تدوِ المدافع، ولكن...» وتتالت الفصول، وكان كل فصل يحمل عنواناً أعجب من سابقه: «طفولةٌ عادية، ليست بعادية»، «الروح الالهية ويد الشعب»، «التاريخ يكتشف الأشخاص»، «أولى علائم المأساة»، «دم»، «اضطهاد الأبرياء ومكافأة المذنبين»، «قسط من العذاب، معيار العَظَمة»، «الأقنعة، الأقنعة»، «الحرية تبحث عن صانعيها وتجدهم»، «الدم، الدم»، «مأساة العالم»، «انتقالي»، «أو بيليتش [1]، ينتحل اسماً آخر»، «الدماء تصبغ كلَّ الدروب»، «صوتٌ عبر الظلام»، «مجهولون يحملون أعباء العالم»، «مع هنِّيبعل وسوفوروف»، «موعد مع تولستوي».

وهكذا دواليك. أما الفصل الأخير، فقد كان عنوانه: «الوحي». ستةٌ وتسعون فصلاً، وثمانمائة وستون صفحة، لا غير، لمخطوطة.

لم أكن أدري ما عساني أفعل بهذه الرسالة. وكنت في حيرة من أمري: أأردُّ على الرسالة؟ وإن فعلت فبم أجيب؟ وكنت أثناء الليل، أتقلَّب في سريري، باحثاً عن حل يخلِّصني من «سيرته الذاتية» التي لم أكن أعلم بوجودها الى ما قبل عشرة أيام، وهي لا تهمني لا من قريب ولا من بعيد، ناهيك عن أنني لا أستطيع فعل أي شيء حيالها، حتى ولو شئت ذلك. وسوَّفتُ يوماً بعد آخر، وبعد عشرة أيام وصلتني رسالة جديدة بدأها بالتأنيب. فهو لا يقوى على تكوين رأي محدَّد وإن كان يستبعد

---

(١) هو ميلوش اوبيليش، بطل من أبطال الصرب، يضرب المثل بشجاعته، حيث دخل بحيلة ماكرة على السلطان العثماني مراد الاول، وقضى عليه بضربة من سيفه، فشطره نصفين. ثم دفع اوبيليش رأسه ثمناً لذلك. (ملاحظة المترجم).

أنني اتخذتُ موقفَ اللامبالي من قضية سامية، تلخِّصُ مصالح الشعوب والانسانية جمعاء، لكنَّ استمرار صمتي يضطره الى وضعي في مصاف الآخرين، الذين لا يريدون قراءة سيرة حياة انسان، هو على تماس مباشر بأحداث القرن وبمعاناة الانسانية ولا يساعدون على نشرها. كما لا يستطيع، بل يرفض، تصديق ظنونه وبالتالي لا يزال، يعوِّلُ على استلام ردٍ مني.

ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ إن الانسان يسمحُ أن يُنعت بما شئت من نعوت، ويتقبَّلها بمضض هو أقلُّ بكثير من وضعه «في مصاف الآخرين». هذا هراء، ولكِّنه واقع. ولئن لم أُردْ أن أكون «في مصاف الآخرين»، فإنني أرسلت الى القاضي رسالةً جوابية، صِغتها بأفضل أسلوب وأشرت عليه ارسال «سيرة حياته» الى دار النشر التي أتعامل معها، وزودته بعنوانها وباسم مديرها، وقطعت وعداً على نفسي، بأنني سأهتم بمصير مخطوطته.

وبعد ثلاثة أيام، تلقيتُ جوابه. كان شاكراً لردي. قال أنه يعرف دارَ النشر هذه، وأن دُورَ النشر كلها سواسية. فإما تحتفظ بالمخطوطة على مدى شهور وسنين، وإما تعيدها دون قراءتها. إن المصير البائس الذي آلت إليه مؤلفاته، يكمن سببه في أن معظم الناس لا يريدون قراءتها، وأن الذين يقرؤنها لا يريدون طبعها. ويسترسل القاضي قائلاً، بأن «سيرة حياته» التي لا تتناول مأساة فردٍ وحسب، وإنما مأساة جيل بكامله وشعب بأسره، لا بدَّ وأن يكون مأساوياً قَدَرُها. ويضيف بأنه استسلم لهذا القدر منذ زمن بعيد، لكنه يتوقع من أُولي الألباب أن يدركوا أهمية مؤلَّفه، ويراني واحداً منهم. وقد أنهى رسالته

بالجملة التالية: «إنك مدين بذلك، ليس تجاهي، وليس تجاه مؤلِّفي، بل تجاه نفسك».

لقد تداخل في نفسي شعور من الغضب والندم والغيظ. غضبتُ على هذا الانسان المجهول (المسوس بكل تأكيد) الذي جعل مني شريكاً له، والأكثر من ذلك، مديناً له. ولمتُ نفسي شديد اللوم، على سرعة اندفاعي وتورطي. وخطر لي أن أجيب على رسالته وأن أرُدَّهُ الى صوابه.لكنني عدلتُ عن هذا الخاطر، تاركاً للزمن والصمت حل هذه المسألة.

ومرَّت الأيام، والتزمتُ الصمت.

لقد التزمتُ الصمت من جانبي، أما صاحب «السيرة»، فإنه واصل مراسلاته. كانت رسائله تصلني في مواعيد منتظمة. كان يدعوني لأن أستيقظ من سباتي، وكان يتوسَّل ويتذلَّل، ويتضرَّع. ومن ثم بدأ يُؤنِّب ويُوبِّخ. فقد كتب ذات مرة: «أرى أنك تتخلَّى عنِّي وأنك تسير مع الغالبية. إن هذا الأمر يؤلمني ويُغيظني، لكنه لا يفجأني. لأن طريقي مظلمة وشاقة، ومن الطبيعي أن أحداً لا يستطيع الصمود، ولا حتى أنت.»

لم أرد على أية رسالة منها وبدأتُ أتعوَّدُ على هذه الحالة البائسة التي حَشرتُ فيها نفسي، نتيجة عدم حَذري وطيشي. كنت أتسلَّمُ كل عشرة أيام رسالة، أوراقها رمادية، طغى عليها الإصفرار لِقدَمها. وكان عليّ أن أفضَّها تباعاً، وأن أقرأها. بيدَ أنني صرتُ أسأم قراءتها بسبب النمط الواحد الذي يتكرر في كل منها. فأصبحتُ أُلقي نظرة خاطفة على تلك الأوراق، وأقفز مقاطع بكاملها. وما زلت أ ذكر، أنني قذفتُ رسالته الأخيرة بين أوراقي دون أن أفضَّها.

وبعد يومين على وصول رسالته الأخيرة، دخل عليٌّ

صاحب «السيرة» في الصباح الباكر، حاملاً في يده حقيبة صغيرة، قديمة كل القدم (فلقد جاء إليّ مباشرة من محطة القطار)، متدثِّراً بمعطف شتوي، لا يمكنك معرفة العصر الذي ينتمي اليه، وحول عنقه شالٌ رماديُّ اللون. وصفوة القول، انه يذكِّرك بمسافرٍ من القرن التاسع عشر.

وبحركات بطيئة، بدأ بِنَزْع معطفه الشتوي، أولاً، ثم الحذاء المطاطي الواقي من المطر، فالشال، وأخيراً، القفّازين. ووضع كلاً من هذه الأشياء في مكانه المخصَّص في الغرفة، وكأنه ينوي أن يقضي الشتاء كله عندي. ثم جلس، وحدَّق بي طويلاً دون أن يرفَّ له جفن. كانت نظرته قاسية وملحاحة، وقال: «دعْنا نُسوّي مسألتنا».

إن الشعور بعدم تنفيذ «الواجب» وعدم تسديد «الدَيْن»، هذا الشعور الذي كان يتعاظم مع كل رسالة يبعث القاضي لي بها، هو شعور منافٍ للعقل والمنطق، (لكنه حيٌّ ومُوجع)، سرعان ما يتحوَّل الى خوف، والخوف الى خجل، والخجل الى غيظ وغضب حيال حالة تشابكت فيها مشاعرٍ مَرَضيَّة مُبهمة. فنهضتُ عن مقعدي، متجهِّم الوجه، عازماً على حسم هذا الموقف السخيف، وعلى وضعه ضمن اطاره الصحيح، وعلى إنهاء هذه المسألة، مرَّةً وإلى الأبد.

ونهضَ أيضاً زائري المبكِّر وغير المتوقَّع، سائلاً الصفح والمعذرة.بقيتُ صامتاً، ولَمْ أتزحزح من مكاني. وبدا وكأنه عازمٌ على شيء ما. عَزْمَ القانطِ اليائس. فارتمى على حقيبته، وبحركات سريعة، أخرج منها رزمةً كبيرة من الأوراق بين دفَّتين من الورق المقوّى، مربوطتين بلفَّات عديدة من الشرائط والحبال. ثم بدأ يفكُّها باصابعه ذات العقد، وأخيراً، أخرج

مخطوطته، كما يُخرِجُ المرءُ رضيعاً من قِماطه.

كنتُ أنظر اليه، وقد اعترتني موجة من خوف. فقد بدأ لي أن قافلة من متطفلين وقطاع طرق قد دخلت بيتي، وأن هؤلاء يُخرِجون بضاعتهم من أكياس، ويكدِّسونها في أرجاء الغرفة. شعرت بحاجة تدعوني الى الصراخ، على هذا الرجل، بأعلى صوتي، والى فعل شيء لم أفعله في حياتي قط. لكنني، في الواقع، كنت واقفاً، دون حراك، صامتاً، مخدَّراً، أستمع الى صوت أجش، يوحي بأن محدِّثي لن يُطيل.

ولئن وجدني في هذه الحالة من عدم الحراك والصمت، وهي حالة منفِّرة تدعو الى الاشمئزاز، مفعولُها أقوى من أيٍّ مقاومة واعتراض، مهما بلغ غلواؤهما، فقد خفَّض صوتَه وغيَّر لهجته. بدأ يعتذر ويتشكّى ويتوسَّل.

كنت ما أزال في حالة من الغيظ،فلَمْ ألاحظ أن القاضي يزداد اقتراباً مني ويحدِّق بي. وذُعرتُ لَمَّا رأيتُ على مقربة من صدري، يديه الكبيرتين الرماديتين متشابكتي الأصابع، كعروق جذر شجرة،من أشجار المنطقة الاستوائية. فانسحبتُ قليلاً الى وراء، فتابعت خُطواتهُ خطواتي، وكأنه ملتصقٌ بي. كان قد قوَّس ركبتيه، وكان يرتعد، وكان جسده يزداد انخفاضاً. وذُعرتُ من فكرة أن يجثو أمامي. فكان، وقامته قصيرة أصلاً، ينظر إليَّ من تحت، ويهدرُ بكلام لا ينقطع.

وغابتْ، دون رجعة، لهجتُه القاسية التي كانت تفيض بهارسائله، وانعدمت الثقة والجرأة اللتان كان يتسلح بهما عندما وطأ عتبة بابي قبل هنيهة. وبات صوته الأجش،زفيراً يخرج من عمق صدره، متقطِّعاً. أما عيناه، فقد تبدل لونهما، وازدادتا تألُّقاً. فذعرتُ من مجرد الظن، بأن هذا الرجل الذي

كان حتى الآن، لجوجاً، صلفاً، سيبدأ بالبكاء. وما كان لي تصديق ذلك. لكنْ ظلاً قاتماً، ووميضاً بلورياً نديًّاً، كانا يتناوبان في عينيه بسرعة البرق. وفي هذه اللحظة بالذات، إنساب من مقلتيه، خطّان من دمعٍ رفيعان، سرعان ما امتصتهما بشرةُ وجهه الجافة.

جلستُ كالمصعوق، وبذلتُ قصارى جهدي لارغام هذا الرجل العجوز على الجلوس قُبالتي. فلقد رأيتُ بأمِّ عينيٍّ مصائر عديد من الناس، وكأنني كنت أقرأ في كتاب مفتوح، ورأيتُ عيوناً باكية لا يُحصى عددها. وتعلَّمتُ منذ زمن بعيد، أنه ليس ثَمَّة دموع كاذبة بكل معنى الكلمة، وانما نعتبرُ وننعتُ، عادةً، دموعاً، بأنها كاذبة، لأننا لا نعرف مصدرها، ولأننا لا نريد معرفة مسببها. وكان القاضي يتوسّل إليَّ ويبتهل، لأعير اهتمامي بقضيته، باعتبارها ليست قضية عادية، وإنما هي قضية كبرى.

وبعد أن فرغ من عرض أفكاره ونظرياتِه، بدأ يتكلم عن حياته، عن طفولته المبكرة التي لم تكن سهلة ولا مرحة، ثم عن أبيه الذي كتب هو أيضاً سيرته الذاتية.

كان موظفاً صغيراً يعمل في الاقاليم. وكان هزيل الجسد، فاقد الوقار وكان يُحبُّ الكتب والمطالعة، وكان يحلم، دوماً، بأمور أخرى، أسمى وأجمل مما كان يتعاطى. ولمْ يحالفه الحظ في أيٍّ من الأمور، بما فيها حياته الزوجية. وكانت أمنيته الوحيدة هي تعليم إبنه الأوحد. وما أن بدأتُ المرحلة الثانوية، حتى مَرِضَ أبي ومات. ولقد حدث ذلك أثناء العطلة الصيفية. وكان قد ازداد هزاله وشحوبه، وثقلتْ حركته في بيتنا الفارغ. (كانت أمّي قد هجرتْنا فعادتْ، ثم هجرتنا نهائياً، قبل بداية الصيف

ببضعة أشهر). وذات صباح، قبل موته ببضعة أيام، أمرني باشعال النار في الموقد الكبير، (وما كنا نُشعله منذ رحيل أمّي الأخير) فأطعته. ورأيته وهو يُحضِرُ مجلداً، سميكاً، بين دفّتين صلبتين، بحجم الدفاتر التجارية، ويحاول، عبثاً، ادخاله عبر باب الموقد. فأَمَرَني بأن أرفع أغطية فوهات الموقد العليا، ففعلتُ. لقد كان لا يقوى على فعل ذلك بنفسه. رفعتها على التوالي، حتى تسنّى له ادخال مجلّده من أوسعها. فالتهم اللهب صفحاته. فسقط على الأرض، وبذلتُ جهداً كبيراً لنقله الى فراشه. حينها قال لي، بأن ذلك المجلّد، كان عبارة عن يوميات، أو سيرة ذاتية، لخّصتْ صراعه مع العالم ومع الناس من حوله، وبأنه أراد أن يقول، بوضوح، من خلالها، بأنه لم يكنْ، في الواقع، كما كان يدلُّ عليه مظهره: هزيلاً، عديم الأهمية، قليل التقدير من قبل رؤسائه في الوظيفة، منبوذاً، بازدراء، من قبل زوجته التي هجرته.

وفي صباح الغداة مات. وقد قال لي وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة: «إنّهِ تعليمك يا بُنَيّ، حتى ولو جعت»، فأطعته. أنهيتُ الدراسة الثانوية وكلية الحقوق، ووجدتُ لي مكاناً في الحياة. إن حياتي كلها، كائنة هنا بين هاتين الدفتين. إنني لم أَعِشْ حقاً، لكنني بنيتُ سيرة حياتي. لقد سخّرتُ جميع افكاري وعملي، لا بسببي أنا، ولا من أجلي أنا، بل بسببها هي، ومن أجلها هي. فلقد التهمتْ حياتي كلها وارتوتْ من عرقي. إني لم أعرفْ في حياتي قط، يوماً هنيئاً، ولا لقمة سائغة، ولم أذقْ طوال عمري قطرة خمر، ولم أتلذّذ بأي نوع من أنواع التبغ، ولمْ أعرف معاشرة النساء، ولا سهرات الاصدقاء المرحة. وها أنا ذا اليوم دون أسرة محروم من ملذاتها وبهجتها. إن التمنُّعَ

والحرمان اللذين تتصف بهما حياةُ التلمذة، قد استمرا وأصبحا عقيدةً لحياتي .لأنني، حتى بعد إنهاء دراستي، وتوفُّرِ المال والجاه، لمْ أَذقْ شيئاً من ملذات الحياة. لكنني، عبرَ أفكاري، ومن خلال الكتب وواقع الحياة، شاركتُ، في حدود الامكان، في كل ما هو عام وانساني، وفي كل ما يسمو بالانسان ويحَقق له الرخاء على هذا الكوكب. لقد ضمَّنتُ ذلك كله في سيرةحياتي. وبقدر ما كانت حياتي وحيدةَ النمط وفقيرة، بقدر ما جاءت سيرتي غنيةً بالتجارب، والتبدلات، والأحداث الكبيرة، والآفاق الجسورة، البرَّاقة. لقد قضيتُ حياتي والقلم بيدي. والآن عليَّ أن أتخلَّى عن حياتي، عن سيرتي فقل لي، بِربِّك، أهذا عدل؟ انني أسائل ضميرك!

كانت نظرته حزينة، مفعمة بتساؤلات شتى، تشعُ من عينين نقيَّتين، كأنهما عينا طفلٍ رضيع. وكان يطرحُ أسئلته بكثير من الود والحيوية، وكان يجيب عليها بنفسه. ولكنه كان يطلب مني بنفس الوقت الاجابة عليها، اجابةً فورية، واضحة، وبشكل لا يقبل التأويل.

- انني اتساءل: لماذا يُطبعُ هذا العدد الكبير من الكتب، جيِّدها ورديئها، الهام منها وغير الهام، أما كتابي، وهو الحياة بعينها، لا يريدُ أحدٌ طبعَه؟ إنك تُحيلُني الى ناشرين ومحرِّري مجلات، وأنا مُتيَّقن بأنك لمْ تفطنْ إلى أن نصيحتك عديمة الجدوى وهراء. فجميع اولئك الناس ضدِّي، والأسوأ من ذلك، فانهم ضدٌ مخطوطتي. ان الموضوع لا يقتصر على فردٍ واحد، وليس هو محض صدفة. إنها مؤامرة، أيها السيد! نعم ونعم، إنها مؤامرة تجري في السرّ والكتمان وقد يبدو لك ذلك أمراً عجيباً وغير معقول. هكذا بدا لي أول الأمر أنا أيضاً. وفكَّرتُ

حينها طويلا: لماذا ضدّي أنا بالذات، ضد انسان متواضع، متوار، ولا يبتغي شيئاً لنفسه،... كل ما يبتغيه، هو أن يقوم بواجبه؟ وما دمنا عند ذكر الواجب، فما هو واجبي بالتحديد؟ إنك تعرف بالتأكيد، أن لدى كبار فلاسفة وكتاب العالم الأصيلين فكرةً محدَّدة حول عظمة الانسان، وحول أهمية وروعة مهمته في الحياة الدنيا هذه، كما أنك تعرف، أن ثمَّة قوىً شريرة، تعمل على دحر وتقويض هذه الفكرة بكل ما أوتيت من قوة. إن العالم أجمع، بشراً ومؤسسات، متورط في ذلك، سواء بقدر ضئيل أو كبير، وسواء بإدراك أم دون إدراك. وأنا أعتبر أن سيرتي الذاتية، هي بمثابة إسهام في دعم الفكرة الخاصة بعظمة الانسان، وحجَّة تضاف الى الحجج الموجودة ذات الصلة بعظمة هذا الانسان ومهمته. ولربما كان إسهامي متواضعاً، لكن ليس ثمَّة من يقدِّم هذا الاسهام غيري. فاذا أرغمتُ على السكوت، ومُنِعَ كتابي من رؤية النور، فان الفكرة حول عظمة الانسان، تبقى مفتقرة إلى إحدى الحجج، التي لا يمكن لأحد تعويضها. وأعتقد أنك أصبحتَ الآن تدرك ما هي قضيتي. لقد احتجتُ الى وقت طويل، حتى أدركتُ بنفسي، جوهر الأمر. ثمَّة مؤامرة تهدف الى إسكاتي والى دفن مبادرتي. أما أنت، فقد أحلتني الى ناشرين ومحرِّري صحف! إنهم مترابطون جميعاً فيما بينهم. وهذا أمر واضح. ففي البداية، وقبل أن يقفوا على الموضوع، وقبل أن يتفقوا فيما بينهم، كانوا يستقبلونني بحفاوة. كان فلان يستقبلني، ويقول: تفضَّلْ، إجلسْ. وكان يصغي إلى كل حرف أفوه به. وكنتُ أودِعُ مخطوطتي لديه، لقراءتها. وحينما أعود بعد بضعة أيام، أجدُ أن الجوَّ قد تبدَّل تماماً. إن نفسَ ذلك الشخص، لم يَعُدْ

يملك الوقت لاستقبالي، بل يُبلغني بواسطة موظف لديه، أن دارَ النشر ليست مهتمة بمخطوطتي. وتعاد إليَّ المخطوطة.لماذا؟ لماذا؟، استحلفك بالله؟ ولماذا هذا التبدُّل المفاجيء؟ فقبل قراءتها، وضعٌ معيَّن، وبعد قراءتها وضعٌ مغاير. وعبثاً كانت مراسلاتي ومراجعاتي. إن أحداً لمْ يشأ مقابلتي أو الاستماع اليَّ. وما دام هذا الأمر قد تكرر دوماً على مرِّ السنين، وفي كل مكان، وبنفس الطريقة، فقد اتضح لي، في نهاية المطاف الموضوع بكامله: إنها مؤامرة! مؤامرة ضدٌ كتابي، والأصح أن أقول، مؤامرة ضد الانسان وضدٌ عظمته. ولربما كانت مخطوطتي المتواضعة (ولكنها أصيلة)، حلقةً من حلقات البرهان على عظمة الانسان، أو قطعة فسيفساء لا يملكها غيري، وبدونها ستبقى الصورةُ ناقصةً إلى الأبد، ولربما هذا بالذات ما تهدف المؤامرة إليه؟ ها أنت الآن في صلب الموضوع، وها أنت تعرف ما لا يعرفه أحدٌ غيري البتة: أين تكمن حبائل المؤامرة ضدي، وما هي مكوِّناتها؟ والآن أسألك: أتريد أن تقف الى جانبي، والأحرى أن أقول، الى جانب الانسان، أم أن تقف الى جانب المؤامرة ضد الانسان؟

وفي هذه اللحظة، نهض القاضي، واقفاً على قدميه، وكان في ذروة الانفعال. ونهضتُ أنا أيضاً، أملا بأنه ينوي الرحيل. لكنٌ سحابةً قاتمة مرَّتْ في مقلتيه، وغضباً تطاير شرراً من عينيه. أما يداه اللتان كانتا إلى حين متلاصقتين، في وضع ابتهال يائس، فقد تباعدتا فجأة، وإذْ هو يُشهرُ سبَّابة يمناه باتجاه صدري.

- إنني أسألك، وأنتَ مَدينٌ لي بالاجابة: بنعم، أم بلا؟

أمـا أنا، فلمْ يكنْ في رأسي أية فكرة وأيُّ قرار. كان

يغمرني شعورٌ من الخوف والشفقة في آنٍ معاً. وأفترضُ أن ملامح وجهي قد تبدَّلتْ، حتى أن هذا الرجلَ البائس، الحالم، الذي لا يرى ولا يدرك ما يدور حوله، لاحظَ شحوبي واضطرابي وعجزي، فبدأ يشفق عليَّ. فثني أولاً اصبعه التي كان قد صوَّبها إلى صدري، ثم سحبَ يَده كُلّها، ودمدمَ بصوت ضعيف:

- نعم، هذا هو السؤال. وعلينا أن نجيب عليه. إنني أقترحُ بأن نجلس وأن نبحث عن الجواب.

- لِنجلس.

قلتُ ذلك بيأس واستسلام، كابحاً زفراتي، محتفظاً بها لنفسي.

الحَذَر

وُلِدَ هنا، وهنا أنهي دراسته الابتدائية والثانوية وكلية الحقوق... أنهاها كلها في الوقت المحدّد، وبدرجة «جيّد». كان موظفا مستقيماً، وكان أعزب، وكان يعيش وحده. وحين بَلَغَ الستين، تقاعد.

حياة عادية لإنسان عادي. بيد أن سيَرَ حياة أمثاله، حينما تُعرفُ من قرب، تبدو طريفة، أو، تدعو الى التفكُّر، في أقل تقدير.

إسمه جورحي جورجيڤيتش، وقد ورث عن جَدِّه، وكان يُدعى أيضا جورجي جورجيڤيتش، تاجر مرموق وثري، ورثَ عنه ليس قامته ومشيته ولون عينيه فحسب، بل وفضيلة كبرى، نَمَت إلى حدود الكمال، هي: الحَذَر. لقد لاحظت العائلة خصلتَهُ هذه، منذ نعومة أظفاره.

أنجبت أمّه سبعة أطفال، لكن ولادته كانت أصعب الولادات السبع، وكادت أن تودي بحياة الأم. كان حجمُهُ لمّا وُلد، طبيعياً، لكنه كان يتردد في الخروج الى الوجود، مما دعا الطبيب والقابلة الى التحايل عليه واغرائه بشتى الوسائل. وما أن رأى النور، حتى أجمع أفراد العائلة على أنه نسخة طبق الأصل عن جدّه. كان جده رجلاً معروفاً ومقدّراً بسبب حذره. فقد كان شعاره الدائم الذي كان يردده (أحيانا بصوت عال، وفي كثير الاحيان بصوت خافت، وفي غالب الأحيان دون صوت) هو:

«حذار مما تفعل يا جوكا[1]!» لقد كان هذا الشعار مرشداً له وهادياً في حياته،

زمن الحكم العثماني وشبه العثماني، وذا فائدة جمّة له ولأعماله التجارية وللذرية التي ورثته. فان ذاك الشعار لم يكن له نفس المفعول ولا عين النتائج. بل، بالعكس. فخطاه الأولى التي كانت تجسيدا للحذر، أظهرت أن فضيلة جدّه هي عائق وكابح. فلقد بدأ مشيه في وقت متأخر، وكان مشيه أصعب من مشي أي طفل آخر في البيت، لأنه كان ينظر دائما الى الموضع الذي ستطأه قدمه، وكان يقيس كل خطوة، مرتين، قبل أن يقدم عليها.

وهكذا كان يتصرف في وقت متأخر: في المدرسة، وفي حفلات الشباب، وفي علاقاته مع الجنس الآخر. فحينما كان تلميذا وطالبا، كان أنجب من الآخرين، لكن معدل نجاحه لم يكن يتعدى الوسط، لأن حذره كان يحول دون تطوير فكره والتعبير عنه. كان يدرس بكل جدّ، وكان يعرف المادة التي يدرسها تمام المعرفة، ولكن ما قيمة ذلك كله، اذ هو يتلكأ اثناء الاجابة، ولا يثق بأساتذته ولا بنفسه، ولا باجوبته. ورغم أن رفاقه كانوا يكنون له كل مودة وحب، لما يتحلى به من خصال طيبة، لم تنعقد بينه وبين أي منهم صداقة حقيقية، لأنه لم يَبُح أبداً بسريرة نفسه لأحد، ولم ينذُر نفسه قط لأي منهم. وكانت الألعاب الرياضية ونوادي الطلبة وسهراتهم الليلية، غريبة عنه كل ا لغرابة. كان دمه الحار، يدفعه في بعض الاحيان، الى هذا الوسط، وسط الطلاب والشباب. لكن تفكيره البطيء

---

(١) هو احد الالقاب التي يكنى بها اسم جورجي (المترجم)

الحذر،.كان يُرجعه من منتصف الطريق. وحدث، غير مرة، أنه وعد بحضور سهرات الرفاق، وكان يبتهج سلفا لها، ويُحضّر نفسه،ومن ثم، يُمضي الأمسية وحيداً في منزله، حَيران بين الذهاب أو البقاء. وذات مرة، أنهكته الحيرة، حتى غفا في ثياب السهرة. ولما استيقظ وفرك عينيه، وجد أن الليل قد انتصف منذ أجل.فتملكه ذعرٌ، ثم شعور بالأسف لأنه غط في نومه، وضيّع فرصة حلوة، ممتعة. فهرع كالمجنون الى المقهى، مكان الملتقى. ففجيء، حين رأى الأنوار خافتة، والكراسي منضّدة على الطاولات كالاهرام، قوائمها متجهة نحو أعلى، وندلاً يطفيء ما تبقى من مصابيح مضاءة.

- الوقت متأخر أيها السيد. ليس ثمة أحد. لقد كانوا هنا وذهبوا. ألا ترى أننا نغلق؟!

جال في شوارع المدينة مدة طويلة، وحفرت تلك الليلة الربيعية في ذاكرته، صورة حزينة، مُحَذرة. لكنه لم يكن ليستطيع تبديل نمط حياته وتصرفاته تجاه الآخرين. فكان عَيْنُ الأمر يتكرر دوماً. كان يمضي مع أبناء جيله ورفاقه الى أمام، لكنّ يدَ جدِّه الباردة وغير المرئية، كانت تشدُّه الى وراء: «حذارِ يا جوكا، حذار...!»

فما يحدَثُ اليوم يتكرر في الغد، والشباب ماضٍ دون رجعة، ورفاقه يخطون الى أمام (وهو يرى ذلك!) وتزداد المسافة بينه وبينهم. فقد يسهل على المرء أن ينفصل عن الناس، ولا سيما اذا كانت ثمة قوة داخلية تدفعه الى ذلك،لكن، يصعب عليه، فيما بعد، ان يحتمل وحدته.

فبعد أن أنهى دراسته، بدأ حياته الوظيفية، كاتبا في وزارة

العدل. وتوفرت أمامه ظروف مواتية لكي يرتقي في وظيفته إلى درجات أعلى، لكنه لم يكن يستغلها، فتجاوزه من كان يصغره سناً ويقلُّ عنه كفاءة. وقد حدث، غير مرة، أن عرض عليه رؤساؤه، عملاً أفضل، ومركزاً أعلى، لكنه كان يرفض كلّ هذه العروض، تخوفاً من المسؤولية والمكائد والصعاب التي لا يمكن التكهُّن بها. كان يلخّص كل ذلك بكلمة واحدة هي: «السيرك»، ويردد دائماً: «لا أحبّ السيرك!» كان ثمّة العديد ممن لا يخشون «السيرك»، بل، بالعكس، كانوا يبحثون عنه. فالمتواضعون في مجتمعنا، قلائل. اننا ننظر اليهم نظرة احترام، يمتزج فيها الحزن والسخرية. ومن يشاء أن يبقى متفرجاً، بعيداً عن التزاحم والتنافس، يمكنه تحقيق مشيئته بسهولة، شريطة أن لا يطالب بتقدير استثنائي. لقد رسم جورجي جورجيڤيتش حياته الوظيفية كما شاء، في حدود الوسط، وتقاعد، دونما ضجة، بل تقاعد قبل الأوان.

ولم تشذ علاقاته مع النساء عن هذا المنوال، ولم تكن تتميّز عن سائر علاقاته بشيء. ففي عهد شبابه، كان منشدّاً اليهنَّ بكل قواه، لكن حذره الموروث اللعين، وهو أعتى من جميع القوى، كان بمثابة حائل بينه وبينهنّ.

كان في الصف الاول الابتدائي، حين شعر، لأول مرة، بهذه القوة الجاذبة. كانت ثمة شجرةُ جَوْز ضخمة، تتوسط مرجا قريبا من بيته، تحيطه من جميع أطرافه جذوع اشجار وعوارض خشبية، منضّدة الى مستوى عالٍ، هي ملك شركة لتجارة الأخشاب. وحينما تصبح ثمار الجوز يانعة، وتبدأ قشورها تتشقّق وتتساقط على عشب المرج الأخضر، كان جورجي يهرع مع بزوغ الفجر، الى المرج، شِبهَ عارٍ، ليسبقَ

الأطفال الآخرين في لم ثمار الجَوْز التي تساقطت أثناء الليل. وكانت بنيّة في سنه،من بيت مجاور، تفعل عَينَ الأمر، فما أجمل تلك الأصباح الباردة، وما ألذُّ الجلوس على العشب الندي، في ظلّ جذوع الشجر المنضّدة، وكسر الجَوز ومضغ لبّه الذي لم يَيبَس بعد.

وذات صباح، وبينما كانا مقرفصيَن في الظلّ، أحدهما بجانب الآخر، حدّقت البنية فيه طويلا، ثم مدّت عنقها، وطبعت قبلة على خده، بجوار أذنه، وابتعدت وفمها ما زال يمضغ الجوز الأخضر، ونظراتها ما زالت مثبّتة عليه.ونظر هو إليها أيضاً، نظر الى شفتيها المكتنزتين اللتين ندّاهما حليبُ الجَوْز، فدفعته رغبة في أن يَرُدَّ لها قبلتها بقبلة منه، لكن صوتا قويا هرما، صوت جدِّه، كان يصل الى سمعه من بعيد: «حذار يا جوكا مما تفعل!» تردد الصبي واستمر تردُّده طويلا، فضاقَت الطفلة بالأمر ذرعا، ولمّت جَوْزها، وانسلّت، «كإبن عِرسْ»، من تحت جذوع الشجر المنضّدة، وذهبت الى بيتها. ولم تُتح له هذه الفرصة مرة ثانية. كانت الطفلة تأتي إلى المرج للّم ما تساقط من جوز تحت الشجرة، لكنها كانت تبقى بعيدة عن «جوكا» الحَذِر، المتردّد.

هذا كان في البداية، وهكذا استمر حتى النهاية.

للوهلة الاولى، لم يكن «جوكا» يختلف بشيء عن أبناء جيله. كان يرى فتاة في الشارع، تختفي عند أول منعطف. تغيب هي، لكن صورتها تبقى في ذاكرته، وتبقى الرغبة، وتبقى الأحلام. وأثناء الليل، كانت تقتحمُ أحلامه، نساءٌ مجهولات، دون ملامح، جسورات، بل قل بلا حياء، كُنّ يغتصبنَ منه، عُنوة أو بموارية، ما هو مَدينٌ به للطبيعة.

وفي أكثر من مرة، كان يتحادث مطوّلاً مع فتاة ما، أو كان يُحَيِّ، بشكل عابر، زميلةً في الجامعة، بدماثة وكياسة،وكانت هي تردُّ عليه بنظرة ذات مغزى. إن مثل هذه الامور تحدث لاي انسان وهو في اجمل سنين حياته، لا سيما، لشاب مثله، بقامته، وجماله وحسن هندامه. لقد كان يشعر في مثل هذه اللحظات برضى كبير، ولَم تكن الفتاة نادمة على نظرتها التي وهبتنه.لم تكن ثمة شائبة في كل ما جرى. وما أن يصل بَيْتَه ويستسلم لوحدته، حينها يبدأ الشك والحَذَرُ يخامرانه. يبدأ يتفحّص كلّ كلمة قالها، وكلّ حركة قام بها. كان يبدو له، أنه تسرّع، ومضى أبعد مما ينبغي، وأن تصرفه هذا، قد يجعلُ الفتاة تأمل بما لا يستطيع تلبيته. كان يُصاب بحالة من الهلع، من جرّاء الحماقة التي ارتكبها. وكان ينتظر على أحرّ من جمر، فرصة تصحيح الخطأ، و «اعادة الأمور الى مجراها الطبيعي». ولّما كان يلقى الفتاة نفسها، مرّة ثانية، كان يتصنّع البرودة والصلافة وعدم اللياقة. وكان في بعض الحالات، يكتب رسالة اعتذار، راجياً ألا يُفهم تصرفه على نحو خاطئ.

ولئن كانت النساء لا يرتحنَ لهذا النوع من الاعتذار، فإن رسائله كانت تبقى دونما جواب. ولو صدف أن التقت به احداهنّ في الشارع، عرضا، كانت تغضُّ الطرف عن هذا العاشق الجبان المتخوّف.

لقد عاش قِصتَّيْ حُبٍ حقيقيتين، كبيرتين.جَرَت القصة الأولى أيام دراسته الجامعية، وكانت بطلتها شقيقة أحد أصدقائه، وهي على قسط وفير من الذكاء والجمال، لكنها كانت معتلّة الصحة، فكانت تقضي جُلّ وقتها في البيت، في العزف على البيانو ومطالعة الكتب. وبدا له، أن الحياة بدونها

تكاد تكون مستحيلة، وأن لا بدّ من أن تربطَه بها رابطة أبدية. تردّد في إتخاذ ما يلزم لتحقيق ذلك. تردّد سنة، سنتين، وفي السنة الثالثة ماتت الفتاة، وغابَتْ بصمت وبدون ضجة، عن عالم، لم تكن تحتلُّ فيه إلا جزءً صغيراً جداً. أما هو فقد استقبل رحيلها، كحّل طبيعي، لمسألة تردّد كثيراً في ايجاد حلّ لها.

وبعدما أنهى دراسته الجامعية، دخلتْ حياته فتاةٌ ثانية، وهي نقيض صارخ للأولى. كانت في غاية الجمال، نَضِرَة، شقراء الشعر، قوية البنية، تقرأ الحقيقة في عينيها، والطهارة والصدق في تصرفاتها. فَخَطَبها. يومها، شطّ في حذره وتردده، حتى جاوز كلّ حد. لقد استمر تردّده ردحا طويلا من الزمن، حتى أنّ هذه الفتاة السليمة، المعافاة، المعتزّة بنفسها، المزهوّة بجمالها، باتت تعاني وتتعذّب، لأنها لَم تكنْ تفهم أسباب تردّده، ولا كان هو قادرا على تفسير ذلك. جرت محاولاتٌ جمة للتقارب أو التباعد، وكانت مُضنية لكليهما، فاتخذت الفتاة قرارا جريئا وحازما، رغم قسوته، ففسخت الخطبة.

- هيّا انصرف يا أتعس التعساء! لقد كادت عيناي أن تذرفا الدمع من أجلك، لكنني أرى الآن أنك لست جديرا بدمعة واحدة.

هكذا قالت حينما افترقا، وكان الشرر يتطاير من عينيها الجافتين.

إتضح، من جراء ذلك، ومن خلال مجمل سلوك الفتاة ما يمكن أن يحقّق من ربح أو خسارة. كان الأمر جليّاً. لكن هذا الجلاء لمّ يسعفْه ولم يُمكّنه من تغيير مجرى حياته. ففي حين

كان يقضي حياته حَذرا، كان الآخرون يعيشون من أجل سعادتهم.

وهكذا، وَلّى الحبُّ، ووَلّى زمنُ الحُبِّ. وهكذا، حلّ الموت الصغير في الحياة الوظيفية، الذي يُدعى بالتقاعد. لم يشأ جورجي جورجيڤيتش يومها، أن يخون فضيلته في الحياة. لا، بالعكس، كرّس نفسَه في سبيلها، ووظّف كامل جهوده وقواه من أجلها، في حين كانت هذه القوى وهذه الجهود، كفيلة بأن تتيحَ له، حياتَيْن - لا حياة واحدة - غنيُّتَيْن، مفعمتيْن بالجمال وبكل ما هو لائق. لكنه لم يتمتع حتى بحياة واحدة. وكلما كان يزداد حذَرُه مما سيفعل، يصعب عليه اكثر، الإقدام على فعل شيء، أيّا كان، وكانت تقلّ أفعاله أيضا. وهكذا، كانت حياته تتحوّل، دون أن يشعر، الى صحراء من حَذَر، صحراء رمادية، يُخيِّم عليها الركود.

كان يسكن في منزل صغير، أرضي، متداع، متآكل، هو منزل جده. لم يكن ينضمّ إلى معشر المتقاعدين، أمثاله، حيث يثرثرون طويلاً، بأحاديث لا طائل تحتها، بغية تقصير ساعات النهار الى حدود معقولة. ولم يكن يمارس هواية صيد السمك، أو جمع الطوابع، وإنما استسلم كلياً لشغفه الخاص: أن يحسب، وأن يتنبأ، وأن يتفادى، حتى لا يفجعه او يفجئه، الناس والاحداث ،والطبيعة. جهد هائل، دون طائل، يضيع الانسان فيه. فكل الحذر، وجميع الاعتبارات، وكافة المخاوف، ينصبُّ جميعها في بوتقة واحدة كبيرة، تُدعى بالذُعر النافع. الذُعر من تقلبات الطقس، من الجراثيم، من النشّالين، من اللصوص، من اللقاءات الرخيصة التافهة، من خطى ليست على صواب، من كلمات ليست في محلّها، فاللسان يَزِلُّ بكلمة،

في لحظة من اللحظات، في أزمنةٍ، يُحاسَبُ فيها الانسان من أجل كلمة واحدة (وهي، في الغالب، مستعارة من غيره) ويتعرض الى «سيرك» كان يمكن تحاشيه، وهو غير مرغوب أصلاً. ولم يكن تخوفُهُ يشملُ ما قد يفجئهُ ويهددهُ الآن وحسب، وإنما كان ما يني يتسع نطاقاً وتفرعاً وشمولاً. كان يعود، عبر ذاكرته المشكوك بأمرها، الى سنين الشباب، فيسترجع جميعَ الأحداث التي كانت تهدّده، وجميعَ المخاطر التي مرّ بها ونَجَا منها، بفضل «رجحان الحظ على العقل»، وكان يرتعد ويعاني لمجرّد تذكر ذلك.

ولم يعد تخوفُهُ يقتصر على وسطه الضيق المتواضع، بل باتَ يشمل كلّ مجالات الحياة والأحداث الدولية. وتغيّرت نظرتُه الى الحياة، فصارتْ تبدو له، مفعمة بالأحداث وذات جدوى. وكان يعتريه، أحياناً، شعورٌ بأنه يلعب دوراً كبيراً ويُعنى بنفس الهموم التي تقض مضاجعَ أصحاب البواخر العابرة للمحيطات، أو أصحاب المصالح المالية والسياسية في مختلف القارات (وفي حالته هو، فإن رهانه كان يقتصر على شخصه وسلامته وأمنه). فشبكة اهتماماته واستطلاعاته واستنتاجاته، وقاعدتها هي منزله الصغير، الأرضي، المتواري في أحد أزقة بلغراد الضيقة، كانت تتشعب في سائر بقاع العالم، وتشمل كل موضوع. نَعَم، كلّ موضوع. فهو يعلم أن السطحيين والطائشين من الناس، يردّدون بأنه لا يمكن التنبؤ بكل الأمور. حسناً، هَبْ أن هذا صحيح: لا يُمكن! إلاّ أنه يبقى للإنسان الحَذِر، في أيّة حال، الشعور بالرضى والسلوى، لأنه أدّى واجبه الإنساني، ويبقى له الاعتزاز بأنه كائن بشري، يستغرق في التفكير، ويتنبأ، وينظر الى بعيد، وهذا ما يُميّزه عن

الحيوان. ولعلّ ما يردّده أولئك، لا يتعدى الكسلَ وقصر النظر. فمن يدري؟! ولربما يُمكن التنبؤ بكل الاشياء! ففي هذه اللحظة من الشعور، ينحبس نَفَسُ جورجي جورجيفيتش، فيحلّق عالياً، عالياً، الى الكمال خارج حدود التصور. ومن أتيح لهم، في بعض الأحيان، فرصة رؤية هذا المتقاعد، النحيل، المتأنق، أثناء نزهته المسائية، بعد الغسق، وكيف يرفع رأسه عالياً، وينظر الى المارة من عل،نظرةً تشع بالظفر والازدراء، مثل توهّج السماء في قاع شارع.. لم يتوجسوا الآفاق التي فُتحتْ أمامه تلك اللحظة، ولا السعادة التي ملأت كيانه. صحيح، أنها سعادة متخيّلة ومفترضة، لكنها في نظره، أكثر وَجْداً من ألف سعادة صغيرة، تُتيحها الحياة للناس من حوله، للناس المتهورين، قصيري النظر.

في لحظة من لحظات الوَجد هذه، في لحظة النشوة الباردة التي تسري في عروق المسنّين، في هذه اللحظة بالذات، خطا جورجي جورجيفيتش خطوةً مصيرية، خطا خطوته الأخيرة.

ففي سنيّ ما بعد الحرب، ترسّخ وتطوّرَ نظام حَذَره ومراقبته الثاقبة، وازداد قوةً وشمولاً.كشفتْ له الحربُ العالميةُ الثانية أن ثمّة ترابطاً بين مصائر الناس وبين كل ما يحدثُ في العالم. لم يعدْ ثمّة، إن جازَ القولُ، أماكنَ محميّة أو مراكز معزولة.فالنزاعات الدولية، والأوبئة، والأزمات، والحروب، والاختراعات، وتجارب الاسلحة النووية، والإشعاع الذي يلوّثُ الهواء والماء والتربة وثمارها،...إن كلّ ذلك يهدّدُ كلّ فرد، حتى ولو كان بلا إسم وهوية، أو كان متوارياً عن المجتمع. وهذا الواقع، يفرض الآن على الانسان، بعيد النظر، والحَذِر، أن ينظرَ الى مسافات أكثر بُعداً، وأن يعرفَ أكثرَ مما كان يعرف.

لذا، فإن جورجي جورجيڤيتش شدّد من حَذَره ووسّع نطاقَه. صار يواظب على شراء الصحف المحلية، ويَجمعُ النشرات التي توزّعها الوكالات والمراكز الثقافية الاجنبية، ويلتقطُ محطات الإذاعة النائية. لكنّه لم يكن يفعل ذلك، كما يفعله غيرُهُ من المتقاعدين، سطحيا وعابراً، لتكوين مادة للثرثرة على مقعدٍ في الحدائق العامة. بل، بالعكس. كان يكدّ ويشحذ ذهنَه، محاولاً إيجاد مفتاح لحل رموز كل خبر صحفي، وترجمته، وايجاد علاقة بين هذا الخبر وبين سلامته وأمنه. ولم يكن ذلك بالأمر السهل.

لقد حدث، غير مرة، أن وقفَ مكتوف اليدين، خائر القوى واهن العزيمة، من جراء خبر مزعج أو مشهد مظلم، لكنه كان في غالب الحالات يفلح في ايجاد حل بارع وآمن من أجل حماية نفسه، وإنْ كان الحل يبدو معقداً وصعبا. كانت هذه الانتصارات غير المرئية (لكنها كانت تُلهب حماسَهُ) وكان الجهد الذهني الذي ما يني يبذله بصورة مستمرة... كانا يملأن وقت فراغه، ويُعطيان للحياة مغزى ما.

في أمسية ذاك اليوم الخريفي، خرج جورجي جورجيڤيتش، كعادته، لشراء صحف المساء. هبط السلَّم الذي يصل زقاقه بأحد الشوارع الرئيسية، وكان السلم شديد الإنحدار، وكانت درجاتُه ندية، بللتها رطوبة تشارين.

لم يكن يحب البتة هذا المكان، بل كان يخشاه بعض الخشية. وكثيراً ما كانت تطرأ على خاطره، صورُ هذه السلالم ودرجاتها الحجرية، التي تصل بين شوارع بلغراد، ذات المناسيب المتفاوتة، التي نشأت في عهود إعمار مختلفة . ان هيئة هذه السلالم توحي للناظر بإنها بُنيت على عجل، منذ عهد

بعيد، لقضاء حاجة ضرورية، شيء يحمل كافة علائم الارتجال الذي تحجَّر، فاستمر، رغم قبحه وتجاوزه الزمن، استمرار نفس الفكرة المكرّسة للأشياء الدائمة. فهذه السلالم، من حيث شدة انحدارها، ومواد البناء المكونة لها، وأشكالها، وعدم التناسب في قياساتها...لشاهد على جور الزمن في فترة ما بين الحربين. لكأنَّ انحدارها والارتفاع الكائن بين درجتين لم يحسبا وفقا لخطوة رجل عادي او ربّة منزل عائدة من سوق الخضار، تحمل سلة مملوءة بأشياء وأشياء، بل وفقا لمتطلبات مقاول قوي الجسم، مفعم بالحيوية، لا تغامره الوساوس، يدفعه جشعه لتحقيق المزيد من الربح السريع. كما أن التلاميذ البعيدين عن هموم الحياة. والجنود، وما شابههم، يصعدون ويهبطون هذه السلالم، درجتين بخطوة واحدة، يختصرون الزمن ويسابقون المسافات. لكن انزلاق التربة، كان يحدث في هذه السلالم على الدوام، تصدّعات، أو كان يوسع ما بين درجاتها، فصارت أشبه بورق «الشَدّة»، إذ رمي على المائدة بصورة اعتباطية. إنها أماكن قد تخلّى عنها الزمن، وغابتْ عن بال خدمات الصيانة، فصارتْ الى قبح وبؤس لا غنى عنهما، مع ذلك، بالنسبة للسكان الذين لا يملكون إلاّ هذه السلالم طريقاً لبيوتهم وإلى كمينٍ فعلي، ولا سيما في الشتاء، لانسان ضعيف، في لحظة قصيرة، مصيرية، من لحظات التشتت الذهني. فالحَذَرُ الحاضر دوماً وأبداً، ينبغي الآن مضاعفته.

كان هذا هو انطباع جورجيفيتش، منذ وقت طويل، بصدد «سلّمه»، ورأيه الراسخ فيه. لكنه في المرة هذه سها عن ذلك. لقد كانت قدماه على الدرجة الاولى من السلّم. وكان قد أبعد الصحيفة عن عينيه، بقدر ما أتاحت ذراعاه إبعادها وحاول،

دون نظارات، قراءة النشرة الجوية لذاك اليوم ولليوم الذي يليه، التي تطبع بأحرف كبيرة على الصفحة الاولى.(كان يواظب يومياً على قراءتها، كواحد من اجراءات الحذر) جاء التبنؤ بتغيّر الطقس، مطابقاً لتوقعاته ورغباته فشعر برضى دَفّأهُ وأنعشهُ. نعم. يُمكن للمرء أن يتنبأ بأشياء كثيرة وكثيرة. وربما، بها جميعاً! ولكن، في نفس هذه اللحظة، تحول هذا الرضى الى خوف وذعر ورعب، والى سقوط دورراني دون نقطة ارتكاز، أو شيء يُمسك به. ان حالات السقوط هذه، لا تحدث إلا في الأحلام ففي الحلم لا ينتظر المرء جلمود مميت، بل استيقاظ منقذ. لكن، هذا السقوط هو سقوط فعلي، لا يحدث إلا مرة واحدة، ولا ينتهي إلا في ظلمة داكنة. لأن احداً حياً لا يستطيع وصف سقوط مميت، لا تفصيلاً ولا نهاية. وهذا صحيح بقدر صحة الحقيقة الشائعة بأن كبار الأعاصير التي تبتلع السفن ومن عليها من كائنات حية، لم توصف، لان احداً لم ينجُ منها. وتبقى مثل هذه الأحداث المثيرة التي لا شاهد عليها، تبقى في الظلام إلى الأبد، كونه جزء من الموت نفسه.

السقوط يستمر. وهو يُحس بأنه يهوي، تارة على بطنه وتارة على ظهره، بسرعة لم تكن تسمح للعقل أن يتدخل، ليساعد، لينقذ، لا شيء، إلا السقوط. كانت درجات السلّم الحادة الصلبة تجلد انحاء جسمه كلها. وكانت تنطوي وتنتشر، كأضلاع مروحة حجرية هائلة في وضع الحركة. كان، لوقت، يستطيع عد الضربات والجلدات. حتى أصابت احداها قمة رأسه. كان الوقت متأخراً ولم يكن ثمة أحد. وأنطفأتْ آخر المصابيح. وبدا له انه يرى الكراسي منضّدة كالأهرام، متجهة قوائمها نحو الاعلى. حتى هذه الصورة قد تلاشت. عدم. ملأته

ظلمـة، ظلمـة فـقـدان الوعي، ظلمـة صـمـاء، لا اسـم لـهـا، لـكنهـا أبدية.

وهكذا، فقد جورجي جورجيڤيتش حياتَه الضائعة، سوية مع كل فرصة للتنبؤ، لأنه أغفل درجةً واحدة.

كلمات

ربما مثل هذا الجو ليس غريباً: ممر في عربة النوم، في القطار، بين زغرب وبلغراد. الساعة السابعة صباحاً، محطة ستارا پازوڤا.

كنت قد خرجتُ من مقصورتي واقتربت من النافذة، ورحتُ أتابع بنظري، السطح المتموج الأصفر لحقول اللفت في طور الإزهار، وإذ بيد إنسان تقبض على كتفي. وكان قد شرع بالكلام.

إنه ميلان ديميجان، زميلي في الدراسة الثانوية. وعندما يلتقي زميلان، مرة في عشر سنوات، يحتار كل منهما، عادة، كيف يبدأ الحديث وماذا يقول. لكنني في حالتي هذه، لم أشعربأي حرج. فلقد كان ميلان يتكلم.

هو رجل أشيب الشعر، قوي البنية، حسن الملبس، شديد العناية بمظهره، مبتسم دوماً. أسنانه سليمة بيضاء وشفتاه كبيرتان مكتنزتان. وهو كبير الثقة بنفسه ويفرضُ حضوره، معتدل في كل شيء إلى أن يشرع بالكلام.

أتذكر، أنه كان، دوماً، على هذه الصورة: قوي الجسم، ضيق الأفق، بليد الحس، مغروراً، ثرثاراً إلى حد مزعج. ولكأن ثرثرته هي تعبير عن قوة جسده، وجزء لا يتجزأ من نظام، استطاع بفضله شق طريقه في الحياة، والبسمة لا تفارق وجهه، ولا يشكو من علة، راض عن نفسه أولاً، ومن ثم عن كل ما حوله. فكأن صروف الدهر التي أصابت الآخرين، قد

استثنته وحده.

كـان حليق الذقن، مـتـورد الوجنتين، وكـان يتكلم بملء شدقيه، وبملء رئتيه، عن الماضي، وعن الحاضر، وعن نفسه، وعنّي، وعن كل الأمور، شـارقـهـا وغـاربها. كـان يتكلم عن كل ذلك، بانسـيـاب وابتـهـاج، لكن، بلا مـضـمـون فـعلي أو هدف محدد. كان يتكلم مثلما يتنفس ويمشي.

وإذ يراقبه المرء ويستمع اليه، فإنه لا بدَّ أن يتساءل: كيف يتسنى لهذا الإنسـان أن يتدفق بهذا القـدر من الكلام، وأن لا يقول، اثناء ذلك، شيئـاً؟ كيف لا يخدر لسانه ولا يتـآكل باطن فمه ولا تتلثم أسنانه الأمامية؟ نظرتُ إليه للحظات، ثم شحبتْ صورته أمام عينيَّ..

شـحـبتْ الى حد لم أعد أراها. لأن مـعـالم وجـهـه كـانت تتداخل مع جدار المقطورة الخشبي تارة، وتارة أخرى، تضيع مع انسـيـاب الحـقـول، التي تحولـهـا سـرعـة القطار الى نـهـر أخضر، يجري خلف زجاج النوافذ. لكن استماعي اليه قد دام فترة أقصر، اذ فقدتُ خيط كلامه، لأن كلماته كانت قد تحولت الى نهر سريع من أصوات جوفاء لا تعني شيئاً. فرُحتُ أفكر بأمر آخر.

من أين يأتي هـذا الشلال من الكلمات؟ وما هي فائدتها؟ ومـا هـو مـغـزى الكلمـات في نظر الانسـان؟ الكلمـات، أجل، الكلمات! وفجأة، وبموجب قانون الأضداد، أثارت الكلمات في نفسي، ذكرى مـشـهـد من الماضي، فـمـا عـدت أرى أو أسـمـع شيئاً من حولي، وأخذتُ استرجعه بصمت، منقذاً نفسي من فيض كلمات لا تهمني، لا من قريب ولا من بعيد.

***

حـدث ذلك في باريس، وكنت، حـينهـا، أسكن في الدائرة السـادسة عشـرة، في فندق قديم، يعود بناؤه الى اواخر القرن التاسع عشر. وكـان الفندق من حيث كثرة ابوابه الزجاجية المتـعددة الألوان، وكثـرة زخارفـه الجـصـية والخـشـبـيـة التي تصـادفـهـا في جـمـيـع أرجـائه، عنواناً للذوق الرديء، وهو أمـر نادر في باريس. لكن نظافته وحسن ترتيبه قد طغيا على رداءة الذوق، وأكسبا جوّه العام رونقاً متميزاً، ولكأن رداءة الذوق، كانت شرطاً ضرورياً لهذا الرونق.

كـان نزلاء الفندق، كـمن نثـرتهـم الريح من جـمـيـع أرجـاء المعمورة: طلاب اسكندينافيون، وعازفات على البيانو بولونيات يبحثن عن أشـهـر اسـاتذة الموسـيـقى ويأملن ببلوغ المجـد بلمح البـصـر، ومـهـاجـرون من أمـريكا الجنوبية، وأزواج فـرنسـيـون وأجانب، أوغلوا في العمر كثيراً وباتوا على هامش الحياة.

إن زوجين من هؤلاء، كانا يسكنان غرفة مـجاورة لغرفتي، عجوزان جليلا المظهر، بثياب بطُل استعمالها، وبسلوك محافظ، فـرضـا الاحـترام أكـثر مِمّا أثارا الضـحك. فـقد كـانا أشـبـه بعـارضَتَيْن يشـاركـان في مـعـرض متنقل للأزياء والطبـاع، من أواخر القرن الماضي. ومما يثير الغرابة، هو أن ثيابهما لم تكن رثة ولا مـبتـذلة، بل كـانت تدل على حسـن العناية بهـا وحـسن الحـفـاظ عليـهـا. لقـد كـانـا يرتديان هذه الثياب، بشـكل طبـيـعي وعفوي، مثل ممثلَيْن بارعَيْن، يعبِّران بحركاتهما عن روح عصر الزي الذي يرتديانه، ويتـصـرفـان وكـأن الناس من حـولهـمـا، يرتدون مثلهما، زيٌ ما قبل خمسين عاماً.

كانت العجوز نحيفة الجسم، ناتئة العظام. أما زوجها، فقد كان مقوس الظهر، ذابل الجسد، وذا عينين سوداوين تشعان

بالحياة، وكثتي شعر على جانبي الوجه، فضيتي اللون، مهذبتين بعناية، ووجنتين متوردتين قليلاً.

وكان الرجل في وقت مضى، صاحب متجر لبيع الصور والأثريات، وخبيراً بارعاً في هذا المجال، له علاقات عمل جيدة في عدة بلدان، وفي فرنسا خاصة. وكانا قد غادرا النمسا قبل دخول هتلر ببضعة أسابيع.

كان هذان العجوزان متلازمين دوماً. كنت تصادفهما في كل مكان حوالي الفندق، على مقاعد الحديقة، أو بالقرب من المقاهي الصغيرة. وكانا يتبادلان التحية مع النزلاء المجاورين لغرفتهما، بكل لباقة، بلباقة القرن التاسع عشر، لكنهما ما كانا يصاحبان أحداً من النزلاء، ولا يبقيان في المطعم بعد تناول وجبة الطعام، ولا يجلسان في بهو الفندق.

كنتُ أرى هذين العجوزين يهرمان أمام عيني، وكأنهما يكبران شهراً علي الأقل، مع كل يوم يمضي. ولم تكن عليهما علائم فقر أو عوز، وانما علائم ضياع وخيبة أمل، فما كانا يمشيان، بل يدبّان دبيب حشرة جانب قشة، دون وجهة معينة أو هدف واضح. لقد كانا يضيقان ذرعاً بنفسهما، ولم يكن أحد من حولهما بحاجة اليهما.

هكذا كانا يتحركان ما داما يستطيعان ذلك. مضى الصيف والخريف. وما أن حل الربيع حتى ساءت صحة الرجل.(لأول مرة لم نرهما وقت الغداء). وبعد يومين، هرعتْ الى غرفتي، خادمة الغرف لتخبرني بأن جاري يحتضر. ثم جاءت صاحبة الفندق، فخرجتُ معهما، يدفعني ذلك الشعور الذي يعتري كل انسان في مثل هذه الحالات، علّني أساعد المرأة المسنة، مع أنني لم أكن أعرف على وجه الدقة، بما

استطيع مساعدتها. وانتهى كل شيء بلا انفعال وبلا كلام فائض.

فعندما لفظ الرجل أنفاسه الأخيرة، غادرت الزوجة الغرفة، ولم ترجع إليها إلا بعد أن أحضر التابوت ونقل جثمانه إلي مستودع الجثث. وقالت صاحبة الفندق: «لا ينبغي لها أن تراه ميتاً». ولكي لا تبقى العجوز في بهو الفندق البارد الضيق لغاية انجاز هذه التدابير، دعوتها الى غرفتي الأكثر اتساعاً وضياء ودفئاً، فقبلتْ.

جلستْ الى جانب الباب الزجاجي المفضي الى شرفة الغرفة، وكانت متدثرة بثياب من سميك الجوخ والمخمل المزركش بمخرمات متعددة الألوان. عرضنا عليها بعض المأكولات والمشروبات، فرفضتْ. وكانت في تلك اللحظة أشبه بتمثال حجري لا يعرف معنىً للطعام والشراب. لكنها، بعد إلحاح كبير، رضيتْ بتناول قليل من القهوة. فأسرعتْ صاحبة الفندق، وسكبتْ في القهوة خفية، قليلاً من الكونياك، إسوة بالنساء الفرنسيات، اللواتي يعبِّرن عن حكمتهن، بالتفاتات صغيرة.

انتعشت العجوز بعض انتعاش، لكن حديثها كان يدور ضمن حدود ضيقة. أطرت غرفتي وحسن ذوقي، حكماً بلوحة يتيمة معلقة على الجدار، ليست لي. لم نتطرق الى المرحوم بكلمة واحدة. وما أن أخبرنا بأن التدابير قد أنجزت وأن التابوت قد نُقِل، حتى بدتْ من العجوز حركة، وكأنها تهم بالانصراف. شكرتني، لكنها ظلت جالسة. ولاحت على وجهها، لأول مرة، علائم تشنج لا تكاد تُرى، كأنها تهم بالبكاء. فقد كانت جفونها ترف رفاتٍ طفيفة، دون أثر للدموع في عينيها

الجافتين الشاحبتين. قلت لها إني ما أزال تحت تصرفها. ولا أدري بأية كلمات قلت لها ذلك. لكن كلماتي أعطت لها فرصة الكلام. لم تحكِ طويلاً، ولم تقل شيئاً مميزاً. حكتْ أشياء لم أكن أتوقعها، لأنها تتعارض كلياً مع طبيعتها وسلوكها العام، قبل الذي حدث وبعده.

قالت ما معناه، إن مصابها كبير، ولا سيما في عمرها، وفي مثل ظروفها، ولها أخت متزوجة في انجلترا، وتنوي الذهاب الى هنالك، لتقضي بقية حياتها بقربها.

فقلت لها: لِمَ لا! إنك محظوظة. لسوف تجدين انساناً من لحمك ودمك، ولسوف تتحدثين إليه.

حافظت المرأة العجوز على سكونها، وقالت بصوت فيه شيء من صلابة وفيه بعض اعتزاز:

- إني لم أتعود على الحديث.

ومرة أخرى، ظللت وجهها علائم التشنج المؤذنة بالبكاء،لكنها اختفتْ في الحال، وتابعتْ:

- أمضيتُ مع المرحوم زوجي، اكثر من ثلاثين سنة. أجل، ثلاثين عاماً من الصمت. وإني لا أتذكر الآن، أنه قال لي يوماً، كلمة واحدة، باستثناء الضروري جداً، الضروري الذي تتطلبه الحياة اليومية. فقد كان يخجل عندما كنت أتكلم مع الناس. وقد ادركت ذلك منذ البداية. وعندما كنا نبقى لوحدنا، كان يخلد إلي الصمت، بل وكان ينزعج اذا بادرت بالتحدث اليه. ولم يكن يخفي انزعاجه. لقد وجدنا طريقة للتفاهم، وكنا نتفاهم بشكل جيد. لكننا لم نكن نتكلم قط. كانت البداية صعبة، حالة لا تُحتمل، لكنني استسلمتُ للواقع فيما بعد. لقد صمتنا دهراً بأكمله، وواحدنا بجانب الآخر.

عادت أهداب الحياة الى وجهها الميت، وارتسم عليه تعبير الاستهجان الأشبه بابتسامة رقيقة. فهل جرى ذلك، فعلاً، أم تهيأ لي، لا أدري. لكن المرأة واصلت الكلام وقالت بالفعل:

ـ أجل، يا له من أمر عجيب! لكن الأعجب، هو ما حدث الليلة الماضية. ففي اليومين الأولين لمرضه، ظل هادئاً، صامتاً، كعادته. حتى مع الطبيب، لم يتبادل اكثر من كلمة أو كلمتين. لكنه في الليلة الأخيرة، قبيل بزوغ الفجر، ناداني وأمسك بيدي، وقال أنه لا يرى من حوله إلا ظلاماً، ظلاماً رهيباً لا يطاق، مع أن جميع مصابيح الغرفة كانت مضاءة. وكرر مراراً، أنه ظلام رهيب، وطلب مني أن أتكلم، أن أحكي له. «ماذا أقول لك؟» – «قولي شيئاً، أي شيء. تكلمي وحسب!» – كان يكرر هذه الجملة،تكراراً متواصلاً، راجياً أن أتكلم. لقد فاجأني رجاؤه وأثارني. أردت أن أساعده، وأن أسلو عنه، فوضعت يدي على جبينه، لكنني لم استطع ايجاد كلمة واحدة أتفوه بها. كان يغيب للحظات عن وعيه، وما أن يعود إلى نفسه، حتى يكرر رجاءه: «تكلمي يا باولا، تكلمي! قولي شيئاً، أيَّ شيء، قولي، قولي!» استمر ذلك حتى الصباح، الى أن لفظ أنفاسه الأخيرة. كان فمي منقبضاً، ولم استطع، فعلاً، أن أنطق حتى بكلمة واحدة، مع أنني اردتُ وسعيتُ صادقة لفعل ذلك. هدهدتُ له كما يُهدهَدُ لطفل، ودلكتُ له يديه اللتين أخذتا تبردان. أما الكلمات، أجل، الكلمات، فلم استطع قولها.

ـ عجيب!

بهذه الكلمة، قطعتُ الصمت الذي خيَّم فجأة. ولم أجد كلمة أخرى أضيفها، لأعبِّر عن دهشتي وتأثري بصراحة المرأة العجوز.

- أجل، أجل، انه لأمر عجيب!

قالت المرأة ذلك، وقد أظلمت عيناها، وأحمرت جفونها، لكنها لم تذرف دمعة واحدة.

استغرق ذلك كله بضع دقائق. وقد قيْلَ ما قيل، بكل واقعية وتصميم، ولم يشبه، بأيٍّ من الجزئيات، اعترافاً مهيناً يتناول الخصوصيات. ونهضت العجوز عازمة على الانصراف، وغادرتْ غرفتي بعد أن وجهتْ الي بضع كلمات مجاملة، لا علاقة لها البتة بتلك الكلمات التي فاجأتني بها، وهي جالسة على الكرسي، ساكنة دون حراك.

بعد بضعة أيام، ودعتني العجوز، بعبارات المجاملة نفسها، وشكرتني على حسن الجوار وعلى مساعدتي لها في ذلك اليوم، وسافرت الى لندن بصحبة العديد من الحقائب، وجرّة صغيرة تحتوي على رماد زوجها.

بقيت واقفاً على درجات الفندق الصغير، وأمامي صورة انسان كان يبحث، في أصعب لحظات حياته، عن كلمة واحدة، بحثه عن قطرة ماء في الصحراء، فلم يجدها، وفي رأسي أفكار لا تحصى، عن الحياة وعن مغزى الكلمة وقيمتها. وبعد عدة أيام، سافرتُ أنا أيضاً ونسيت.

وها هي الأفكار نفسها تمر الآن في خاطري، وما تزال تبحث عن نهايات وعن أجوبة.

***

انتشلني من هذه الخواطر، تبدل مفاجئ في جريان ذلك النهر الأخضر المتدفق، الذي أخذ يتباطأ ويفقد اخضراره تدريجياً، ليتحول إلى كتل صلبة رمادية. وكان صخب الكلام

بجانبي يزداد شدة ووضوحاً.

ـ بلغراد! أنظر! أترى؟ ها قد وصلنا!

هكذا هتف ميلان الذي لم يكن قد كف عن الكلام طيلة تلك الفترة. تابعته بنظراتي، وكان ما يزال يتكلم، ويتناول حقائبه الانيقة بعناية، وينادي على الحمّال، وكأن الحمّال قد كُلِّف بانتظاره، وخُصِّص لخدمته. ثم ودّعني على عجل، بهدير من كلمات مصطخبة، مؤكداً على ضرورة لقاء قريب، لكي نتحدث مطولاً.

حملتُ متاعي وسرتُ مع سائر البشر الذين كانوا يتقدمون ببطء نحو المخرج. ولمحتُ ميلان في الأمام، يتحدث الى الحمّال بانفعال، ويشق طريقه في الزحام، وكأن الناس من حوله ظلال.

كنت أتقدم بصعوبة وأتلكأ في المسير. وكانت مناجاتي الداخلية قد انطفأت، وأخذ جو محطة بلغراد الدافيء الصاخب، يغمرني ببطء، ويطغى على صحراء الصمت البشري القاتل، هذه الصحراء اللامتناهية التي انبعثت في نفسي على حين غرة.

على المركب

يُخيّمُ جوٌ متميزٌ على مراكب نقل الركاب في نهر الدانوب، عندنا، حيث تمتزج القسوة والبساطة الساذجة القروية، بالعقلية التركية والفلاهية [1]، التي ما زالت متأصلة في نفوسنا، حائمة حولنا. رحلة بطيئة تستغرق بضع ساعات، وتجد نفسك كليةً على مشارف الشرق، على مصراعيه، حيث تُكوِّنُ القهوة، وأنواع الكحول والتبغ، والاحاسيس بأشكالها الدنيا، عالماً خاصاً، يتسمُ بالبطء في التفكير، وبالمشاعر العَكِرة، وبالعقل المضطرب، الجامد. وكما تتلاشى، تدريجياً، المناديل الشامية [2] البسيطة، والمعاطف من القماش الخشن، وتغيب، تدريجياً، وجوه الفلاحين والفلاحات، ذوات التقاطيع القاسية، والنظرات الحادة، كذلك يبدأ جوُ الشرق يسودُ تدريجياً. يتلاشى ما هو قوي ومعافى وخطر، ويبقى ما هو خامل وسهل المنال وعذب.

وبينما كنت أراقب أثَرَ هذه التبدلات على المسافرين، مضت الساعات دون أن أشعر بها. كنت أستمع لعزف غجريين: أحدهما يعزف على البوق، والثاني على الكمان، ولكأنهما قد هبطا من السماء، تواً، على هذا المركب. كانا يعزفان ويغنيان،

---

(١) الفلاه، قوم قطن هذه المنطقة قبل مجيء الصقالبة الى البلقان (المترجم)
(٢) وردت بالعربية في الأصل، لا كصفة، وانما كلفظة، تستعمل في البوسنة كدلالة على المناديل التي تغطي النساء بها شعر رؤوسهن (المترجم).

تارةً، أغاني مجرية، وألحان الفالس من فييناوتارةً، أغاني بوسنية ومقدونية، بلكنة مدينة «شاباتس»[٣]. ولما غادر هذان الغجريان المركب، في أحد الموانئ المظلمة، بصمت، ودون إثارة الانتباه، مثلما جاءا، وجدتُنا في بهو المركب، ثلاثة أو أربعة رجال فقط.

حينما كان الغجريان يعزفان، كنت جالساً إلى طاولة كبيرة نسبياً، حيث جلس مسافرٌ آخر، كان يأكل بشهية. انني لا أتذكر كيف بدأنا الحديث، لكنني أتذكر أن رفيق سفري كان يشرب أكثر مما كان يأكل. وبحركة ملحوظة تدل على صدق مشاعره تجاه إبن بلده، عزمني على كأس نبيذ. كان مظهره يوحي بعدم الرضى، الذي يشعر به الكثيرون ممن يعيشون في الريف، الذين يصبون إلى العيش في العاصمة، فلا يجدون فيها مكاناً لهم.له وجه حاد التقاطيع، لكنه أصيل. أنفه مستقيم، وشارباه غير مشذبين. لكن ما كان يعكر هذا الوجه، هو اضطرابه المنفر، وإمارات العزم الكاذب الذي تحدثه الخمرة.في البداية، كان يتكلم ببطء، وبشكل متقطع، سوية مع اللقم التي كان يبتلعها. لكن رغبته في الكلام وفي التخيل، بتأثير الخمرة، كانت تتنامى باستمرار.ففكّرتُ: لو صح ما يُقال، بأن لكل انسان قدْراً محدوداً من الكلمات، يحقُّ له أن ينطق بها أثناء حياته، لكان على هذا الرجل أن يموت صباح الغد. إن ما رواه كان عبارة عن مغامرات لا رابطة بينها، عاشها أثناء الحرب وفي سنين ما بعد الحرب، أو مشاهد مثيرة، متداخلة، لا يمكن تحديد زمنها أو الظروف التي جرت

---

(٣) مدينة في صربيا، تقع غربي بلغراد. (المترجم).

فيها. وفي كل ما رواه، كان ثمة ضراوة وعنف وأفكار مستترة وعميقة. كانت ذاكرته متّقدة، لكنه لم يكن يتحكم، هو، بها، وإنما كانت تعمل من تلقاء نفسها. كانت الصور والاحداث تتوارد وتتقاطع وتتزاحم. ليس ثمة حياة

يمكنها أن تستوعب كل الاحداث التي رواها، وليس ثمة إنسان يستطيع القيام بما قام به هذا الرجل. ومع هذا، لم يكن كل ما رواه، كافياً، ليذكي نار حبه للكلام، إذ كان حبه هذا، يتطلب المزيد والمزيد من الاحداث.

كان قد مضى وقت طويل، ولم يكن في بهو المركب إلا سوانا نحن الإثنين. ولم يكن يُضيء وسط المركب إلا مصابيح صغيرة، فكان شبه مظلم. ولم تعد تُسمع في المطبخ أية حركة، وساد الهدوء المركب كله، فازدادت بذلك وضوحاً أصوات هدير المحركات وتلاطم الامواج. واطفئت جميع مصابيح البهو، سوى مصباح يعلو المدخل، وآخر فوق طاولتنا. لم أنتبه متى حدث ذلك، إذ كنت شارد الذهن. كان محدثي قد انتهى من رواية مشهد حربي هائل، ثم أعاد على مسمعي، للمرة الثانية، قصة تأخره على موعد اقلاع المركب، وكيف أنه قفز عليه قفزاً، بعد أن أزيح الجسر الواصل بين المركب والرصيف، وكيف بقيتْ فردة - اليسرى طبعاً - من حذائه المطاطي الواقي مغروسة في الطين. ثم انتقل الى الحديث عن مسائل عامة متعلقة بالحياة وبالتبدلات فيها. بدأ يتكلم عن اللحظات الحاسمة في الحياة وعن انعطاف الانسان من طريق إلى آخر باتجاه معاكس تماماً، دون وعي أو دراية. فما أن يقطع جزءاً كبيراً من الطريق الجديد، ويصبح تصحيح الخطأ متعذراً، حينذاك، يدرك أنه سلك طريقا لم يكن يرغبها،«إن الحياة، تزخر، أيها السيد،

بمثل هذه المنعطفات غير المرئية».

وهنا توقف مُحدثي عن الكلام، ووجّه نظرة تعجّب إلى وسط المركب شبه المظلم. فتراقص شارباه الطويلان بنزق، وارتسمت على محيّاه بسمة خسيسة، سرعان ما تحولت الى تكشيرة، أرعبتني. بدأ يتكلم بصوت جهوري وبلغة أجنبية، مدعاة الى الضحك:

- احتراماتي، أيها السيد، احترامي! حذار![٤]

إلتفتُّ، فرأيت من خلال شبه الظلام ذاك، رجلاً يتجه نحو السلّم المؤدي الى الحجرات في المستوى الادنى. كان على رأسه قبعة، وكان مظهره كله يوحي بأنه وصل ، تواً، الى المركب. كان يسير بخطى بطيئة كالاشباح، خطوة تلو الخطوة، ويداه بارتفاع صدره. اعترتني رعشة. وقبل أن يهبط السلّم، أدار الرجل وجهه نحونا، فتسنى لي أنذاك أن أرى ملامحه، بفضل انعكاس نور المصباحين الخافت عليه: رجل

فارع القامة، يحمل على صحن أبيض كأس ماء، يخطو ببطء وحذر، حتى لا يسكب ما في الكأس. وهبط السلّم ببطء وهو يتلمس بيده الاخرى الدرابزين. لم يكن ينظر إلينا، وانما في الكأس التي كان يحملها. ولم أستطع أن أرى عينيه، بسبب النظارتين اللتين عكستا ذلك النور الخافت، فكانتا أشبه بمرآتين دائريتين لاقاع لهما. غاب الرجل في قاع المركب، غير مكترث بتحيات محدثي الساخرة. ومرة أخرى، كرر هذا:

- حذار![٥] طابت ليلتك. احتراماتي!

تنفستُ الصعداء، حينما لاح لي أن وجهه قد بدأ يسترجع

---

(٤) بالفرنسية في الأصل. (ملاحظة المترجم)
(٥) بالفرنسية في الأصل. (ملاحظة المترجم)

وضعه الطبيعي، وبدأت تلك التكشيرة البليدة، المصطنعة، تتخلى عنه، باستثناء وتر كان ما يزال يرتجف على يمين فمه، ارتجافا لا يكاد يرى. كان مزّاحاً غير موهوب. تعمد أن يتحدث عن أمور اخرى، متصنعاً وضع الانسان الهادئ. ولكي يتجنب الحديث عما جرى منذ هنيهة، عاد الى الموضوع السابق:

- أجل، إن الحياة زاخرة بالمنعطفات. ولكن ما قيمة هذه المنعطفات،

ما دام الآخرون يتحكمون بها. فلان إلى اليسار، وفلان الى اليمين، ولا يهم أحد منهم، إلى أين انت سائر. هِم! أما الذين يسيرون بحذر، خطوة، خطوة، فإنهم يعرفون أين ومتى ينبغي التوقف. إن هؤلاء لن يخطئوا الطريق. هِم! إنهم، أثناء نومهم، يفتحون أعينهم ويرفعون آذانهم كالارانب.

بتر هذا الموضوع، فانتقل الى حكايات أخرى عن ألبانيا وسالونيك، وعن مسألة اللاجئين بصفة عامة، وعن طولون بصفة خاصة. كان بين الحين والحين، يرتشف نبيذه الاحمر، ويملأ لي كأسي. وكان حديثه يزداد عنفا وحيوية. وكانت الاحداث تتراكم، أحداث غريبة، بل قل مستحيلة، لكنها مرسومة بحذق: أكاذيب، حبكتْ ببراعة، وفيها شيء من الصحة، إن جاز القول، لانك لو أردت التأكد من صدقها، بواسطة الارقام، لنفيت صحتها فوراً، ولما كان بامكانك تبنّيها أو الدفاع عنها. أما حينما تستمع إليها، ليلاً، وأنت على ظهر مركب، فإنها تبدو لك وقائع حقيقية، متداخلة.

كان رفيق سفري يتنقل بحرية، من جزيرة كورفو الى سالونيك، ومن سالونيك الى جينيف. أطلعني على كافة المهام الخطيرة التي كلف بها، وكيف لقّن دروساً لاوغاد، كانوا، في

آن معاً، خونة للوطن، وخصوماً له على الصعيد الشخصي.
كان يروي كلّ ذلك، مع وقفات، يستغلها ليحدق في عيني بالذات، أو ليوجه إليَّ اسئلة يُستعصى الإجابة عليها، لما يتطرق، فما عساك فاعلاً؟

لاحظت أن الطرق التي كان الخيال والنبيذ يقودانه فيها، تلتقي جميعها في طولون. وفي لحظة، إنهار صرحُ الكذب، مثل سقالة لا ضرورة لها، وبدأ يروي قصته، قصة طولون، وهي في غاية البساطة.

كان ورفيق له يدعى «ستانيسافليفيتش»يسكنان بيتاً قديماً، في شارع ضيق، هادئ، بطولون. ثمّة صيدلية مقابل البيت، فوقها بيت الصيدلاني، وللصيدلاني إبنة. كان الاثنان يلتهمانها بنظراتهما، لكنها أظهرت ميلها، طبعا، لمحدّثي. ولئن كان هذا لا يعرف من اللغة الفرنسية إلا بضع كلمات، فإن رفيقه كان يقوم بدور مترجم بينهما. كان يجيد الفرنسية، لكنه لم يكن يجيد شيئاً غير ذلك. في البداية، كانا يتحادثان عبر النوافذ، عبر الشارع، ثم عن قرب، بواسطة رفيقه المترجم. وساد الوئام بينهم، حتى أن الرفيق تعرف شخصياً بالصيدلاني، وبعد فترة، طلب يد إبنته، مترجماً، في هذه اللحظة، عواطفه الذاتية. ففضّلَ الصيدلاني هذا الصربي الهادئ، الذي يعرف الفرنسية، عن ذلك الطائش الذي لا يعرف كلمة فرنسية واحدة. وغيّرت الفتاة رأيها، وتبنّت موقف أبيها. تزوج رفيقه إبنةَ الصيدلاني في يوم توقيع الهدنة بين فرنسا وألمانيا. في ذلك اليوم كانت الاعلام والمشاعل، تُزَيِّن شوارع طولون. أما مُحدثي فقد خُدع وفُجع، وبقيت له الذكرى... ذكرى النظرات الوديعة والعبارات غير المفهومة، في أيام تعارفهما

الاولى.

ـ لم يكن الامر سهلاً.

قال ذلك ببساطة، لكن بصوت رجولي وقور، وكانت عيناه تُحدِّقان إلى أمام. لاح، للحظة، رجلاً وسيماً، رصيناً، وكأنه جالس على مقعد في كنيسة. ثم حدّق في عينيّ، وبدأ يتكلم:

ـ لو أنك تعرف أين ترعرتْ! إنها نشأتْ وترعرتْ في ما يشبه الاديرة. إن جسدها ليس جسد إمرأة.. إنه زهرة. صدّقني، فأنا على يقين مما أقول.

وضعَ يدهُ على صدره، كأنه يتهيأ لاداء القسم.

كان هذا، هو سرّهُ الدفين، عار، دون حجاب. لكن إمارات وجهه سرعان ما تغيّرتْ، على حينٍ غرّة، وارتسمت عليها تلك التكشيرة المصطنعة المنفرة.

ـ لست أدري، أيها السيد، فيما اذا كنتَ تعرف فرنسا، وتلك المدارس الملحقة بأديرتها. إنها تُعلّم كل شيء: الغناء، الرسم، الآداب، لغات متعددة، أصول السلوك... إنهن ينهضن في الاصباح الباكرة، ويذهبن إلى الكنيسة، ويتناولن القربان أمام مذبح الكنيسة وأزهار الزنبق تحيط به من كل جانب. إنني رأيتُ ذلك، أيها السيد، بأم عيني. كان ذلك الامر يهمّني. فأنا مولع بمعرفة العالم وبلاده. وإنني شغوف بذلك.

كان يتكلم ويتكلم، دون نهاية، لكن بان عليه التعب وعدم القدرة على الاستمرار والتكرار. فقد فقدت نظرته ثباتها وبدأت «تفاحة آدم» تتراقص على حنجرته. كنا قد توغلنا في الليل عميقاً، وصار طعم النبيذ حامضاً.فانتابتني رعشة. كان رأسي ثقيلاً بتأثير النبيذ. وكنت متعباً ومنفعلاً. وكانت الوقفات تزداد وتطول. وفجأة مال محدّثي نحوي بغنج، وسألني بطريقة يغلب

عليها الطابع الرسمي:

- أتعرف أين هو الآن صاحبي ستانيسافلييفيتش؟

-؟

لم ينبس بكلمة، وإنما وجّه سبّابته نحو أسفل، مشيراً الى قاع المركب.

- لعلّك رأيته، قبل هنيهية، حاملاً كأس الماء إلى زوجته في الحجرة. انهما الآن نائمان!

وبعد فترة صمت قصيرة:

- أتعرف مقصده، ولماذا؟

لم ينتظر جوابي، بل تابع:

- إنه ذاهب الى «كلادوفو». أرسَلَتْهُ وزارة المالية ليحل مكاني. لدي نقص في الصندوق. ليس الذنب ذنبي، لكن النقص حقيقة قائمة. كنت في بلغراد، وطلبت مبلغا، لاغطي النقص، لكن أحداً لا يُعطي. وها أنا ذا أعود على نفس المركب. وغداً، عليّ أن أسلّمه الصندوق. أما البقية، فسوف تقرأها في الصحف.

كنت أشعر بالغثيان، فلملمت قواي لاغادر. لم يُمانع، وإنما ملأ كأسه، كأسه فقط، ببرودة وازدراء، وفاه ببضع كلمات وهو يبتسم، وكأنه يغنّي:

- إنه ينام مع زهرة.. مع زنبقة، أيها السيد!

وكأنه أراد أن يمحو ما قاله، فأضاف بلهجة مغايرة تماما:

- ويحسِنُ مسكَ الدفاتر أيضاً. فهو دقيق في هذه الامور. إنني أعرفه جيدا. وداعا أيها السيد، إحترامي!

كان الجو في حجرتي خانقاً، فلم أنم إلا قليلاً، وكان نومي متقعطاً. وفي حوالي السابعة صباحاً، وصلنا الى تورن

سيفيرين حيث غادرتُ المركب. ألقيت نظرة وجلة على البهو أثناء مروري، فوجدته فارغا. كانت الطاولة التي جلسنا إليها، نظيفة ومعدّة لزبائن جدد. غادرتُ وبضعة مسافرين، وبقي المركب برمته نائماً.

وتسـاءلت: ماهو، يا تُرى، مصير رفيق سفري وصاحبه وزوجته الفرنسية؟

طالت سفرتي. أمضيت وقتاً في رومانيا ومن ثم في تركيا، فما تسنى لي قراءة صحفنا. وكنت قد نسيت ذلك اللقاء على المركب، كما ينسى المرء حلماً داهمه اثناء نومه. وبمحض الصدفة، وقعت عيناي، مساء البارحة على رجلين ثملين، يتحادثان بانفعال، أمام مقهى في الميناء على نهر سافا. كان أحدهما يصيح بأعلى صوته، فعرفته: إنه رفيق سفري على المركب. كان في أسمال بالية، أشبه بالخارجين عن القانون. كان يصرخ على ذلك الثمل الآخر، وهو يجرُّه من معطفه:

ـ هذا ما حصل أيها السيد. أما البقية.. بقية القصة، فستعرفها من الصحف، إشترِ عدد الاحد... الاحد القادم.

الغرفة المجاورة

عندما حان موعد رحيلي الى تلك المدينة الجامعية العريقة في النمسا، من أجل الدراسة، كنت أعرف، مسبقاً، مكان اقامتي.

لقد حالفني الحظ في أن أكون واحداً من بين قلة مختارة، جديرة باستئجار غرفة في منزل الآنسة ماريانا.(إن طبيباً تشيكياً، جاء ليعمل في بلدتنا، وكان طيلة فترة دراسته، يسكن في منزل الآنسة ماريانا، زوّدني برسالة تذكية اليها، تضمنتْ جميع المعلومات عن أسريَ وعني شخصياً).

إن الآنسة ماريانا في الستين من عمرها، وهي آخر من بقي على قيد الحياة، من اسرة وجيهة وثرية في وقت مضى، اسرة ضباط، تملك منزلاً مكوناً من أربع غرف، يشغل الطابق الأول كله، من مبنى ذي دورين، أرضي وعلوي، يفصله عن الشارع، حديقة غنّاء وفناء مرصوف ببلاط حجري قاس. وكانت الغرف وملحقاتها، واسعة جداً. لكنها، رغم اتساعها، كانت مكتظة بأشياء أُحضرت من بيت أكبر وأفخم. ولئن كان المنزل، من حيث اتساعه وعدد غرفه، يفيض عن حاجة الآنسة وخادمتها المسنة ليزا، فإن الآنسة ماريانا، كانت تؤجر غرفة من الغرف الأربع، تشكل مع مدخلها، مسكناً صغيراً مستقلاً. كانت تؤجرها لكي ترفد ايراداتها المتواضعة، فتغطي نفقات معيشتها، ولكي تستأنس الإمرأتان بوجود شخص ثالث، لأن

الآنسة ماريانا كانت تخشى، شأن جميع النساء المسنات، مداهمة اللصوص لمنزلها.

كانت ليزا، المرأة العانس، الورعة، الصلفة، التي تصغر سيدتها بقليل، هي التي تقوم، في الحقيقة، باجراءات تأجير الغرفة للشاب «المختار»، بينما تبقى الآنسة ماريانا في حجراتها، متوارية عن ا لأنظار. أما الأمور الأساسية المتعلقة بتأجير الغرفة (هل ستؤجر،وكيف، ومتى، ولمن، وبأية شروط) فقد كانت موضع بحث وتمحيص طويلين، بين الامرأتين. فالشروط لم تكن سهلة ولا بسيطة. لقد كان الايجار مرتفعاً، أعلى من أي ايجار لسكن مشابه في نفس المنطقة.ثم كان لا بدّ لمن ينوي السكن عند الآنسة ماريانا، أن يحمل رسالة تزكية من جهة موثوقة. كما أن طريقة الاستئجار، وتسديد قيمة الايجار، واسلوب التعامل، لم يشبه أي منها، الأساليب المألوفة والدارجة عند تأجير الغرف للطلبة.

ولقد كنت على علم مسبق بذلك، عن طريق الطبيب الذي أوصى بي.

لما وصلتُ، استقبلتُ بعدم ثقة. كان عليَّ أن أودع الرسالة، وأن أجيء في اليوم التالي. وحينما جئتُ، حُقق معي، وفُتشتْ أغراضي. ومن ثم، نَقلتْ ليزا حصيلة ذلك كله للآنسة ماريانا. وقد دار بينهما حديث طويل، وبصوت عال، لأن الآنسة، كما بدا، ضعيفة السمع. فكنت أسمع كل شيء تقريباً، وأنا في الغرفة المجاورة.

وأخيراً، تغلبت ايجابياتي وقبلتُ، فانتقلتُ إلى المنزل.

كان أثاث مسكني من النوع الوسط، والسجاد من النوع الرخيص. لكن الغرفة في غاية الترتيب، ولا أثر لغبار قط.

الأرضية الخشبية تلمع، والستائر ناصعة البياض، والنوافذ نظيفة. كان يخيم جو من النظافة، أشبه بنظافة الأديرة ومصحات النقاهة، وكل ما في المنزل، ضروري ونافع. فلا وجود للكماليات أو لأشياء ترضي الأهواء والنزوات. فكل شيء هو في خدمة النظام والراحة والصحة والحياة الرمادية المديدة. نظام ونظافة في عالم ورع، خال من الأوهام والرغبات الشخصية.

وكان يخيم على المنزل كله، صمت ينسجم كل الانسجام مع النظام والنظافة، صمت ليس حزيناً او فرحاً، وانما هو صمت المنشغلين دوماً بأعمال بسيطة، يرون فيها أبدية العالم الآخر.

كما قلت سابقاً، لقد تم الاتفاق حول استئجار المسكن، مع ليزا، وهي إمرأة سريعة الحركة، نحيفة، ذات وجه متورد، وعينين خضراوين، ونظرة حادة مرتابة. وكانت ليزا، اثناء تفاوضها معي، تعزو كلامها دوماً إلى «آنستها»، وكانت تنطق اسمها بجلال ورع، كأن تقول: «الآنسة لا تحب هذا..» و «الآنسة لا تسمح بهذا..» فبدأت أتصور الآنسة ماريانا، رمزاً من رموز القوة والحكمة، هالة لا يمكن الاقتراب منها.

بعد انتهاء الشكليات مع ليزا، قمت بتسليم النقود، مقابل الايجار،إلى الآنسة ماريانا، شخصياً. وهكذا، مثلتُ أمامها، للمرة الأولى، وقدّمتُ اليها. ولشد ما كانت دهشتي كبيرة. فلقد كانت الغرفة الواسعة الأرجاء، بشبابيكها العريضة الثلاثة، شبه مظلمة. ستائر مزدوجة سميكة، ومفروشات ضخمة مكدسة. وكانت أرضية الغرفة مكسوة، بطبقات من السجاد العجمي الداكن الألوان. والجدران مغطاة بلوحات لرسامين

ألمان من القرن التاسع عشر، ذات أطر غليظة بلون الذهب المسود. وفي الزوايا نبتات زينة، أوراقها متصلبة، كأنها نبتات إصطناعية.

وثمة باب كبير، مفتوح على مصراعيه، يفضي الى غرفة مجاورة، شبيهة كل الشبه بهذه الغرفة، من حيث اتساعها وظلمتها واكتظاظها بالمفروشات والسجاد واللوحات.

وبين طاولة للكتابة، ومنضدة صغيرة تلمع، مع أن القدم قد ظللها بالسواد، كانت تنتصب امرأة مسنة، بالغة الصغر، ملفعة بثوب أسود. كانت واقفة دون حراك، كأنها جزء من هذا الاثاث الأثري، أثاث المتاحف.وقد أنار وجهها، شعاع تسرب من الشباك الأقرب اليها. إنه وجه أبيض، يتعارض مع جو الغرفة الأقرب الى الظلمة، ومع ثوبها الأسود الذي يصل الى الرقبة، وهنا ينتهي بشريط رفيع أبيض. لكن بياض وجهها، لم يكن يمت إلى بياض الناس الاصحاء، بل إلى بياض الذين يعيشون في أماكنة مغلقة لا يبارحونها. وإن شعرها أبيض أيضاً، مفروق في وسطه، ومصفف بعناية. فكان وجهها وشعرها، ببياضهما، أشبه بالأشباح، ولكأن ذرات غبار رمادي، تساقطت، على مر السنين، على هذه المرأة الساكنة في مكانها، فصارت أشبه بشخوص من شمع، شخوص تخيف الصغار، وتضع الكبار، وجهاً لوجه، أمام عبثية صراع الانسان ضد قوى الزوال. وما كان يشذ عن هذا الوجه الرمادي الشاحب، إلا عينان مطفئتان، أشبه بكرتين سوداوين.

قالت لي الآنسة بضع كلمات لا أكثر. وكانت تنطق كل كلمة، على حدة، وبصوت عال، وببطء، كما يتكلم الطرشان. وبحركات، كحركات جهاز آلي قديم، التقطت النقود، ووقَّعتْ

إيصالاً، ثم ودعتني، دون أن تمد لي يدها، بنظرة متصلبة، من عينين مظلمتين، يصعب تمييز حدقيتهما.. عينين خاليتين من الأهداب والحاجبين.

هكذا، تعرفتُ على الغرفة المجاورة لغرفتي، وعلى الآنسة ماريانا التي كانت ليزا تنطق اسمها. بخوف واجلال، وتسند اليها كلامها، اسنادها إلى أحكام غير قابلة للطعن. ومنذ ذلك الحين، صار يُسمح لي، في مطلع كل شهر، رؤية الآنسة بحضور ليزا. كنتُ ألقي التحية، واستلم الايصال الموقع، وأغادر.

صرفني انشغالي ولهو حياة الطلبة، عن ا لتفكير بالآنسة ماريانا. ولئن لم تكن تتوفر لي فرصة رؤيتها إلا نادراً، فقد كنتُ أسمع صوتها كل يوم تقريباً. وكما سبق وأن قلتُ، فإن الغرفة التي تُمضي الآنسة فيها جل نهارها، كانت مجاورة لغرفتي. لقد كانت هاتان الغرفتان في وقت مضى، متصلتين بباب، هو الآن موصد، ومبطن بفرش، تغطيهابُسطٌ ذات رسوم زخرفية صاخبة، كانت تملأ مجال نظري، صباحاً لما استيقظ، وليلاً، قبل أن أطفيء النور واستلقي لأنام.

لست أدري هل ثمة جيل طلابي مثل جيلنا، أمضى في النوم وقتاً أقلّ مما أمضينا؟ ما كنا نشعر بمرور الوقت، لا متى تضاء المصابيح الكهربائية، ولا متى يبزغ الفجر.حينها، كانت تبدأ حياتنا الفعلية، في المقاهي وفي الحانات وفي الحدائق أو في غرف الطلبة. لم يكن المكان مهماً، وانما المهم أن لا ننام. وكانت لحظة الافتراق من أصعب اللحظات واكثرها مرارة. فعندما كانت تحين ويتجه كل منا إلى بيته، لكي يأخذ قسطه من النوم، كان واحدنا يرافق الآخر، مرات ومرات، وغالباً حتى

طلوع الفجر. لقد كنتُ واحداً من بين الطلاب الذين يمقتون النوم، ويطلبون السهر بالحاح لا يمكن تعليله. ولمن الطبيعي والأمر على هذا المنوال، أن أبقى في فراشي حتى قرابة الظهيرة. ولكن، ما أن حلَّ الأسبوع الثاني، حتى جاءتني ليزا محذرة، بأن الآنسة تعتبر نمط حياتي في منتهى السوء، وبأنها لن تسمح في بيتها، بأية حال، أن ترتب الغرفة عند الظهيرة بدلاً من الصباح، مثلما يفعل العقلاء وأولي السيَر الحسنة. لا أدري لماذا أذعنتُ الى ارادة الآنسة ماريانا؟ كنت أنهض في الثامنة وأغادر المنزل، مع أنني كنت آوي الى فراشي مع بزوغ الفجر.فما كنت أنام إلا ثلاث ساعات أو أربعاً. وكنت مضطراً الى تعويض ما فاتني من نوم، فأرقد بعد الغداء، ساعتين أو ثلاث ساعات. ولكن، في حوالي الساعة الثالثة من بعد ظهر كل يوم تقريباً، كان يجري في الغرفة المجاورة، حديث بصوت عال، بين الآنسة ماريانا ورجل كثير الكلام، يكبرها سناً، كما يبدو من صوته. إن صوته خشن أجش، لكنه قوي ثاقب. ولئن كانت الآنسة شبه طرشاء، كان الرجل يتكلم بأعلى صوته، ويفصل الكلمة عن الأخرى، مكرراً بعضها في غالب الأحيان.

ـ يا عزيزتي ماريانا، لا يمكنك أن تتصوري... أن تتصوري مدى بشاعة الطقس. طقس كئيب.

ـ أبارد ؟

ـ تعيس. التعاسة بذاتها!

بهذه العبارات، كان ضيف الآنسة، يوقظني عادة من سبات الأصيل. كانت عباراته تخترق مسامعي، ببطء، وتترجَّع مع بقايا جُمل من نقاش دار في ليلة سابقة، بين نفر من الطلبة، حول أهم قضايا العالم وأعظم قيم الحياة.

ومهما كان التعب والسهاد يقضان مضجعي، فما كنت أستطيع مواصلة النوم، إذ كان عليّ، وأنا في حالة بين النوم واليقظة، الاستماع الى الحديث الذي يدور في الغرفة المجاورة، بين عجوزين لا يقيمان أي اعتبار لأحد، ولا يفطنان الى انهما قد يزعجان أحداً، ولا يتساءلان عما اذا كان أحد يستمع الى أحاديثهما التي تتناول حالة الطقس والصحة والأمراض والمعارف باسمائهم واسعار الأسهم والأسعار في سوق الخضار وأخبار الصحف.

كان السيد العجوز يُحضر معه، عادة، جعبة من الأخبار، ينثرها أمام الآنسة التي تقاطعه مستفسرة، من حين لآخر، بصوتها المتقطع.

ـ صادفتُ آجاتا اليوم. فتقاطعه المرأة:

ـ من؟ آجاتا؟ ماذا تبغي؟

ـ لا تبتغي شيئاً، إنما الاصفرار... اصفرار بشـ ... فتقاطعه الآنسة ماريانا:

ـ هذه هي صبغتها منذ...

ـ لكنها تشكو من المرارة.. الـ ..مـ..ر ا ر ة ! أتفهمين ؟أما هو فطريح الفراش، لا يقوى على النهوض. عرق النسا! هكذا تقول.

ـ ليس بجديد. انه مرضه المزمن.

يتأفف العجوز قليلاً، ثم ينتقل الى خبر آخر: هبوط أسعار الأسهم لشركة «مونتانا». وتستقبل المرأة النبأ بتأوه مرير:

ـ إلى متى سيستمر ذلك؟ أنا لم أعد أفهم شيئاً. فيعقب الرجل بمرارة أيضاً، وكأنه يخاطب نفسه، فاقداً الأمل بأن المرأة تستطيع سماعه:

ـ أنا أفهم كل شيء. ان العالم يسير في الطريق الخطأ منذ زمن بعيد. تدهور.. يتخبطون خبط عشواء.

ـ ما علاقة الشواء بذلك؟

ـ لا علاقة له. أقول أن الأمور انقلبت رأساً على عقب.

ـ فما العمل إذن؟

ـ لا شيء. يجب الانتظار. فلمن الغباء أن تبيعي الآن، لأن اليهود انما يبتغون ذلك.. يريدون احداث بلبلة وحالة من الذعر. وهكذا يدفعون الشريف والصادق والساذج من الناس، لبيع أسهمهم، فيشترونها هم بأسعار بخسة، بل بالمجان.

وبعد صمت لا يدوم طويلاً، ينتقل الحديث الى أخبار صحف الصباح، الأخبار القصيرة التي ترد في الصفحات الأخيرة، عن أسعار المعادن الثمينة وأسعار البورصة، عن دواء جديد لمعالجة السرطان اكتشفه عالم ألماني، عن الرواتب والأجور، عن أضرار التدخين على صحة الانسان، عن الأهمية الاقتصادية لفضلات الحيوان والريش والعظام.وحول كل خبر من هذه الأخبار، يدور نقاش، قد يطول أو يقصر، تبعاً لأهمية الخبر. إن الذي يدير النقاش، هو الرجل العجوز، أما الآنسة فقد كان دورها يقتصر على توجيه اسئلة قصيرة، وإصدار أصوات التعجب أو الاستنكار أو التأييد والمصادقة. كان ذلك، يمدُّ الرجل العجوز بالقدرة على مواصلة عرضه الطويل الذي يقوم به بأعلى صوته. إنه يجعل من الخبر خطاباً، يدين به غيره من الناس ويشهِّرُ بهم ويتفاخر بذكائه وفطنته وبُعد نظره.

هكذا كان يوقظني ويضطرني للاستماع اليه، نصف ساعة، أو ساعة بكاملها في بعض الأحيان، حتى يحين موعد تقديم الشاي. لقد كان صوت ليزا وطنين الفناجين الخزفية

والملاعق، ايذاناً بحلول الموعد. أما بعد ذلك، كان الحديث يتثاءب وتخف حدته.

وهكذا كل يوم. وفي كل يوم يتغيَّر موضوع الحديث. أما التأفف فهو نفسه، ولهجة التقريع والسخرية بالناس والمؤسسات هي نفسها، والتباهي بمدركاته وكفاءاته هو ذاته. ولئن كان موضوع الحديث ثانوياً وعرضياً، فإن الاستخفاف بالعالم والاعتزاز بالنفس، قد كانا من الثوابت الدائمة اللامتغيرة. وسرعان ما تعودت على هذه الحالة، وأخذتُ استمع بشيء من الفضول، الى صوت العجوز، إلى هذا الصوت المفعم بالغضب والغطرسة، الذي كان يعلو محدثاً وقع الصاعقة، والذي كان يبعد أو يدنو، لأن الرجل كان يتكلم، وهو يذرع الغرفة جيئة وذهابا.

ذات يوم بدأ العجوز يتكلم بصوته العالي المعتاد، كما يتحدث المرء مع الطرشان:

- أرجو أن تعيري هذا الأمر انتباهك: في سان فرانسيسكو، مثلاً، يجنون ما يزيد على ثمانية عشر مليون دولار، سنوياً كعائد من الخرق البالية ومن علب حفظ المأكولات ومن العظام. ولمَ لا؟ أذكياء وعمليون. فقبل إثنين وعشرين عاماً، وبالتحديد عام ١٨٩١، أعددت بنفسي، مشروعاً حول «الاستفادة من القمامة والنفايات الأخرى»، لكن أحداً في هذه المدينة اللعينة المتخلفة، لم يشأ أن يطلع على مشروعي أو أن يستمع إليّ. أذكر، أن رئيس البلدية حينها، كان حماراً حقاً، شأن الرئيس الحالي. فلو حسبنا مردود ذلك بحدوده الدنيا، منذ ذلك الحين وإلى اليوم، لكان بامكان بلديتنا تشييد حيٍّ بكامله، بالمال الذي يُجنى وفقاً لمشروعي. ولكن، أنّى لنا أن

نأمل خيراً من هؤلاء الاشتراكيين، فارغي الرؤوس، المتربعين على «كراسي» البلدية؟! إن أفضل المشاريع وأذكى الاقتراحات تذهب سدى. ليس ثمة من مهتم.فها أنا ذا، قد أدركت، قبل الاميركيين، باثنتي وعشرين سنة، أهمية هذه المسألة، لأنني تناولت جوهر الأمر، شأن مشاريعي جميعها. لقد أدركت ما لا يدركه الآخرون وما لا يخطر على بال الغالبية.إن الغالبية عاجزة عن ادراكه وقبوله حتى في يومنا هذا. فما قيمة ذلك، ما دمت أعيش بين بغال وحمير؟! وهكذا انهار الواحد بعد الآخر، أعظم المشاريع وأروع التصورات وانفع الاقتراحات. أتذكرين المشروع الذي عرضته أمامك، في هذه الغرفة بالذات، عام ١٨٩٥؟ مشروعي الخاص باستغلال الطاقة المائية في المنطقة القريبة من مدينتنا. هلاّ تذكرين؟

وتصيح المرأة بشكل آلي:

- أذكر، أذكر.

- طيب. انظري الآن. لقد مضى على ذلك أكثر من ثمانية عشر عاماً، وها هم السويسريون والطليان، يقومون اليوم بكهربة الخطوط الحديدية عندهم، على نفس هذا الأساس، بينما حافلاتنا ما تزال تستخدم الطاقة الكهربائية التي ينتجها الفحم. إذن، الفحم الغالي الثمن، بدلاً من الموارد المائية المجانية. وحتى بالنسبة للفحم، لطالما نحن الآن بذكره، كان لدي مشروع أعددته قبل خمسة عشر عاماً، إما عام ١٨٩٧ أو عام ١٨٩٨ .وقد عرضته أمامك هنا، أكثر من مرة. هل تذكرين؟

- أذكر، أذكر.

- ولكن، ما قيمة أن تتكلمي الى أناس كالحمير، ليسوا مؤهلين لاستيعاب الأفكار العظيمة؟ انهم مؤهلون فقط، لخنق

كل فكرة في مهدها، فكرة تنبع من رأس أعقل من رؤوسهم.

في اليوم الثاني، دار الحديث عن طرق العلاج من مرض السل، المتّبعة في إحدى مناطق روسيا، كما ورد في الصحيفة.

- أتذكرين، عندما قلت لكِ أن أطباءنا يقتلون مرضاهم، بارسالهم الى الجنوب وشواطيء البحار، وبتبليعهم ما هب ودب من الأدوية؟ قلتُ لكِ ذلك عام ١٨٩٨، كما أظن، وكنت قد أعددت مشروعاً حول «مستوطنات الأطفال الهزلى»، لتطويق انتشار وباء السل، وتخفيض عدد الاصابات به الى الحدود الدنيا. لكن القائمين على المستشفى الجامعي ومستشفى البلدية، آنذاك، وهم حمير طبعاً، رفضوا حتى النظر بالمشروع. تصوري لو انهم تبنوا مشروعي، لكان اسم مدينتنا على كل لسان، كون نسبة الاصابات بالسل فيها هي أدنى نسبة في العالم، ولتبنى معظم البلدان المتحضرة فكرة هذه المستوطنات، ولمجَّد العالم إسمي، كوني صانع خير للبشرية. وعلى كل حال، إنك تعلمين بما حصل.

فردت العجوز كالببغاء:

- أعلم، أعلم.

وفي اليوم الثالث، أثير موضوع الإدخار.

- ها، ها، ها!

قهقه العجوز مطولاً، وواصل بمرارة بانت في صوته:

- انظري ما نقلت صحف الصباح: «اسبوع الادخار»! بهدف تعويد كافة طبقات المجتمع، ولا سيما الشباب، على الادخار، فإن صندوق البلدية للتوفير، يعلن بدء اسبوع التوفير». أما عندما قد متُ أنا، قبل عشرين سنة، أي عام ١٩٠١ ،مشروع «التوفير الإلزامي لصالح المجموعة والفرد» فلم

يشأ أحد الاستماع إلي أو ادراك ما رميت إليه. ان أولئك السادة، لم يكونوا قد سمعوا حينها بمبدأ الادخار. حمير! إنك تذكرين مشروعي. هل تتذكرين أنني عرضته أمامك، هنا، بكامل تفاصيله؟

وتجيب الآنسة بصوت آلي:

- أتذكر، أتذكر.

وهكذا كنت مضطراً في كل فترة أصيل، لأن استمع، رغماً عن ارادتي، الى حديث الطرشان، بين هذين المخلوقين الكهلين، وأن أتعرف على مشروع أو مشروعين من مشاريع هذا السيد المسن. ومع أنني كنت شابا صغيراً، والشباب لا يعرف السأم قط، فقد اعترتني رغبة التعرف على هيئة المتكلم في الغرفة المجاورة.فإن كنت مضطراً للاستماع اليه، فلمن الطبيعي أن يتولد لدي حب الفضول برؤيته. ولم يصعب هذا الأمر عليّ، اذ كانت نافذتي تطل على بوابة المنزل. فبعد بضعة أيام، تمكنتُ من انتظار ضيف الآنسة ماريانا، ومن رؤيته، دون أن يلمحني أحد، إما عند قدومه، وإما عند مغادرته.

لم يفجئني مظهره. كان يعبر البلاطات الجميلة الواسعة للفناء الطويل الحسن الترتيب، قادماً أو آيباً في نفس فترة النهار: يجيء في الثالثة ويغادر بعد السادسة بقليل. كان صغير الجسم، لكنه منتصب بارز الصدر، ودائماً مزرر المعطف وأنيق اللباس، بزي الثمانينات من القرن الماضي. فعندما يكون الجو صحواً، يرتدي معطفاً طويلاً أسود، قبته وطرفا ردنيه من المخمل. ومن تحت هذا السواد الكالح، تبرز ياقة صلبة عالية ناصعة البياض، كما يبرز طرفا ردني القميص. وحذاؤه أسود، رقيق النعل، ذو أزارا، وقبعته سوداء

ضيقة الحواف. أما عندما يكون الطقس ماطراً أو مثلجاً، فإن العجوز يرتدي ملابس الصيد: سترة خضراء داكنة دون أردان، تحتها بذلة رمادية بازرار من قرن الوعل، وقبعة من نفس قماش البذلة، يحيط بها شريط أخضر، وفي مؤخرتها ريشة طاووس. وعلى جانبي السروال، شريطان خضراوان. أما الحذاء فهو بني، ذو نعل سيمك. ويقبض باحدى يديه على عصا، وبالأخرى على قفازين. فإما أن تكون العصا سوداء بمقبض فضي، وإما بنية، قبضتها من قرن الوعل. أما القفازان فهما إما صفراوان من جلد الخنزير أو رماديان من جلد الوعل، حكماً بالبذلة التي يرتديها، أهي سوداء أم رمادية من لباس الصيد.

أما وجهه فهو ضيق وصغير، وأنفه معقوف، وعيناه متقاربتان بجفون مسدلة دوماً، وشارباه مقصوصان بين سبلتين منخفضتين، وشعره مكتمل الشيب تماماً. إن هيئته كلها تبدو رمادية، لكأن غبار زمن اليأس القاتل، ذلك الغبار الرمادي نفسه، قد تساقط عليه أيضاً، كونه جليساً دائماً للآنسة ماريانا. وإن خطاه الثابتة، ومجمل طلعته، وحسن ملبسه، يوحي جميعها بسيد من سادة النمسا، بزيٍّ القرن الماضي.

ومن خلال حديثي مع ليزا في نفس تلك الفترة، علمتُ أن جليس الآنسة ماريانا. هو بارون. هذا كل ما استطعت معرفته، لأن ليزا كانت بخيلة في كلامها، بخلها في بقية الأمور.

وبتُّ أتساءل أثناء استماعي المرغم عليه، للأحاديث الغريبة بين العجوزين، ما هي، يا ترى، العلاقة بين هذين الكائنين: هل هما عاشقان منذ أيام الصبا، أم تربط بينهما علاقة قرابة، أم

هما صديقا طفولة؟ ونظراً لقلة خبرتي وعدم معرفتي، فإني لم استطع الوقوف، ولو على وجه التقريب، على طبيعة العلاقة أو على درجة القرابة بينهما .وعلى كل حال، كنت أنسى أمر هذا الزوج، حالما يتوقف الحديث في فترة الأصيل، تشدني أحلامي وأفكاري وحياتي الجامعية الجديدة، حتى أعود فأتذكره في أصيل اليوم التالي، عندما يوقظني صوت البارون الأبح في الغرفة المجاورة. وأخيراً، تعودت على تلك الأحاديث، كما يعتاد الانسان على الظواهر الطبيعية الرتيبة والدائمة. فعندما يوقظني صوت العجوز، كنت أفرك عينيّ، واسترق السمع الى الجمل الأولى من التقريع المسهب للموضوع الذي حان دوره لذلك اليوم، وإذ يأخذ يتفاخر بمشروع من مشاريعه العظيمة التي لم تلق أذنا صاغية، وإذ تنبري الآنسة العجوز تصادق بصوتها الأشبه بصوت الطيور: «أعلمُ، أعلم» و «أذكرُ، أذكر»، حتى استلقي على جانبي الآخر وأغفو من جديد.وعندما أصحو من نومي، تكون غرفتي غارقة في بحر من أشعة حمراء لشمس غاربة، وفي صمت كليّ، فأبدأ أحضر نفسي للخروج والانضمام الى زملائي في سهرة جديدة.

هكذا انقضى الخريف والشتاء والربيع. وحلَّ الصيف بلياليه الطلابية القصيرة وفجره المبكر.وذات يوم من أيام تموز/يوليو، وكنت منهكاً من قلة النوم على مدى أيام، رجعت الى غرفتي فور وجبة الغداء. كان الطقس حاراً، مشبعاً برطوبة تثقل النفَسَ والجفون، وكان كل شيء ينبئ بهبوب عاصفة. لقد كانت السماء تعتصر لبضعة أيام خلت، وكانت الغيوم تمر في سماء المدينة، ثم تهرب سراعاً، الى أن تتحطم على الروابي المحيطة بها .فغفوت، وغططت في نوم عميق.

استيقظت على أصوات منبعثة من الغرفة المجاورة، وتساءلت وأنا في حالة بين الحلم واليقظة: أيُّ مشروع، يا ترى، من مشاريع البارون التي لا تحصى، قد حان اليوم دوره؟ ضحكت في قرارة نفسي، ودرتُ الى الجانب الآخر، علني أواصل نومي، تحت وطأة الجو الثقيل المضني. لكنني لم استطع أن أغفو من جديد. شعرت بانقباض في صدري بفعل الحرارة والرطوبة.وكانت الأصوات في الغرفة المجاورة ما تني تزداد ارتفاعاً وحدة.

كان البارون يتكلم بازدراء واستهتار، بصدد خبر في جريدة صباحية، حول قيام مجموعة من الأثرياء، بتشكيل جمعية خيرية في إحدى المدن الايطالية، هدفها تأمين الجَهاز للفتيات المعدمات، وللصالحات منهن على وجه الخصوص، لتمكينهن من الزواج.

- ها، ها. الآن تذكروا ضرورة القيام بذلك! ومن؟ الطليان بالذات! فهل ثمة من لم يسمع بسوء تنظيمهم؟! حمير! إنني قبل أكثر من عشرين سنة، وبالتحديد عام ١٨٩٢، إنك تذكرين ذلك حتماً، قدمتُ مشروعاً مفصلاً حول انشاء مؤسسة حكومية، من شأنها تأمين بائنة حقيقية لكل فتاة من الأوساط الفقيرة، ترغب في الزواج، كأساس متين لحياة زوجية مقبلة، لا مثل هذا الجهاز التافه، المكون من خرق وأقماط! كان مشروعي متكاملاً، شمل حتى كيفية تنظيم المؤسسة وكيفية أدائها وو.. أتتذكرين؟ لكن أحداً من أغبيائنا اولئك، لم يشأ دراسة مشروعي أو استشفاف أفكاري. هل تتذكرين؟

كانت كلمات البارون تصلني حادة عالية تارة، مكتومة بعيدة تارة أخرى، تبعاً لقربه أو بعده، اثناء تمشيه في الغرفة

المجاورة. كنت أصغي إلى حديثه، كما يصغي المرء الى هدير شلال تعود عليه. فإما ينيمه أو يوقظه على حد سواء. وكنت قد بدأت أشعر بلذة مواصلة النوم، فتنبهتُ فجأة إلى أن الآنسة لم تعد تقاطع سرد البارون، بمصادقتها المعتادة التي تصدح بها بصوت الطيور التي تعملت النطق «أدري، أدري» و «أذكرُ، أذكر». لقد استحوذ ذلك على انتباهي، وجعلني أتابع الأصوات الآتية من الغرفة المجاورة، بدل أن أواصل نومي.

تعثر حديث العجوزين، توقف قليلاً، ثم تبادلا بضع كلمات لم أفهمها، إلى أن صدح صوت البارون،بلهجة تنم عن نفاذ صبره:

ـ كيف لا تذكرين؟ أهكذا، دفعة واحدة، لا تذكرين الآن، بأني عرضت أمامك مشروعي بكل حذافيره؟ لقد حدث ذلك... ربما حدث عام...

ـ لم يحدث قط. لا تعذب نفسك وتتحزر متى حدث.

ـ كيف؟ ما بكِ يا ماريانا؟ كيف لم يحدث؟

ـ هكذا، بكل بساطة. ل..م يـ..ح..د ث.

قالت العجوز ذلك، بصوت عالٍ وجازم، ثم تابعت حديثها بطلاقة وبترابط،على غير عادتها:

ـ لم يحصل ذلك، كما أنه لم يحصل أيُّ شيء مما كنت تتحدث عنه هنا كل يوم، وكنتُ أصادق عليه. لم تعرض أمامي أياً من تلك المشاريع الرائعة والجريئة التي لم يدركها الآخرون. وأنت تعلم هذه الحقيقة أيضاً. وما دامت أحاديثك تدور حول المجاري والمشافي وعن شتى المؤسسات المالية والعسكرية والاجتماعية ـ لا أدري كيف تُدعى كل هذه الأمور. فما دامت لا تتعدى ذلك، فإني استطيع الاستماع اليك والمصادقة على كل

ما أسمع، مع أنني أعلم، مثلما تعلم أنت أيضاً، بأن ما تتحدث به، إنما يخطر على بالك في نفس اللحظة، وبأنك تسرده لأول مرة. أما أن تحدثني عن مؤسستك التي من شأنها تأمين البائنة لراغبة في الزواج، لا تملك هذه البائنة،.. أن تحدثني أنت عن هذا الأمر، فهذا أمر أرفض سماعه.

- ولكن، أرجوك يا ماريانا! عما تتحدثين؟

- أتحدث عن أمر أعرفه، عن أمر لا يجوز لكَ بدء الحديث عنه.

- ولكن يا ماريانا العزيزة، ما الذي بدأتُ وماذا قلتُ؟

- لقد بدأتَ الكلام عن أمر لا يحق لك الكلام عنه. كانت المرأة تتكلم بصوت جاف وعال كعادتها، ولكن بترابط وحزم، بينما كان البارون يفقد رباطة جأشه ولهجته المتعالية المعتادة، المفعمة بالاعتزاز بنفسه، وبالازدراء السافر للعالم بأسره. إن المرء يستطيع، حتى عبر الجدران، أن يحس بانفعاله وتضاؤله، ومن خلال عباراته القصيرة التافهة ولهجته الاستعطافية، أن يستشف رغبته في تحويل مجرى الحديث نحو موضوع آخر، وفي تجنب الصدام.

- أرجوك يا ماريانا، اننا الآن نتحدث عن أمور عامة، هكذا **en général** أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

فصاحت المرأة، حتى أن صوتها قد ترجَّع في أرجاء الغرفة:

- لا، ليس كذلك. ولكن ما دمت قد أثرتَ هذه القضية، فإني سوف أقول لك ما يجب أن يُقال. إن الصغير والكبير في مدينتنا، بل وفي المقاطعة كلها، يعلم أنك ثرثار، وأنك أحمق متغطرس، وأنك عالة على المجتمع، وأنك لاعق صحون.

ـ حسبكِ يا ماريانا، إنني أرجوكِ.. إنني مضطر لتحذيرك.
ـ إخـرس يا ثرثار! يا لكَ من ثرثار حـقـاً! أجل، عليك أن تخـرس، وأن تـخـجل، إن كنتَ تسـتطيع ذلك.لكنك بدلاً من أن تخجل، تنتفخ كالديك الرومي. ليس في العالم كله مثيل لك: لقد رفضت الذهاب الى المدرسـة صـغيراً، ولم تقم بأي عمل نافع كبيراً. قضيت حياتك حتى الشيخوخة في عناية مضحكة وسخيفة بشخصك. أمضيت عمرك في الحلاقة وتهذيب الشعر، وفي الاستحمام والتدليك، وفي التزين، وفي العلاج. لم تودع بنفسك رسالة واحدة في مركز البريد، فما بالك بالأعمال الأخرى؟! إنك لم تنجز عملاً واحداً في حياتك مهما صغر. أربعين سنة ويزيد، وأنا استمع إليكَ، تحقّر العالم وتتباهى بشخصك، وتكبر بنظر نفسك، كـاذباً على نفسك، لأنك لا تستطيع أن تكذب على إنسان آخر، عن مشاريع لم يقبلها العالم ولم يستطع فهمها! تصور كم غبيّ أنت، إن كنتَ تظن أن ثمة انساناً يبلغ من الجنون حد تصديقك ولو للحظة. لا أحد يصدق، أن في رأسك عقلاً، وأنك قادر على التفكير. إننا نستمع إليك، على مر السنين، رأفة بك، ونخجل من حمقك وصفاقتك، ونسكت. وإذ تفسر سكوتنا تفسيراً خاطئاً، فإنك تزداد حماقة وصفاقة، حتى إنك تتجرأ على أن تحدثني، أنا بالذات، عن مشاريعك العبقرية التي تهدف الى تزويج الفتيات الفقيرات، وإلى إسعاد البشرية، أنت الذي هدرت بائنتي على مآكلك وعلى مشاريك وعلى مقامراتك وعلى مذ...
ـ يا ماريانا، بربكِ..
ـ إخـرس يا ثرثار، فـأنا الآن أتكلم! إنك تعلم تمام العلم، كيف استغليتنا جميعاً، صغيرنا وكبيرنا، الأقربين والأبعدين

من عائلتنا، كما تعلم ما حلَّ بي. ولكن إيّاك أن تظن، إذ انني لا أتكلم عن ذلك قط، وإذ أعيش هكذا، وحيدة، طرشاء، عجوزاً، قبيحة، في عزلة عن العالم، بأنني جُردتُ من كرامتي أو فقدتُ عقلي. لا! أنت المريض. أنت المصاب بداء النسيان وبجنون العظمة، فتحسب العالم كله، مجرد منصة لمواهبك الفذة، وأن مصائر الغير وأملاكهم وذواتهم، ليست إلا طعاماً لاشباع شهوات وجشع ذاتك المتعالية التي لا تقهر. فما أنت في الحقيقة إلا طفيلي، طفيلي حقير مجرم، فاقد الروح والعقل والحياء..

- يا ماريانا..

- ... فاقد الحياء، فاقد الإحساس.. لا حدود لك ولا علاج. آخ!

في هذه اللحظة، إنكسر صوت المرأة، وسُمِعَ وقعُ خطى وطقطقة. كان البارون يرافقها الى الغرفة المجاورة الثانية، ويحاول تهدئتها. وبدا أنه نجح في مهمته، لأن صمتاً كلياً ساد الغرفة المجاورة لغرفتي.

شدهتُ وذهلتُ، فصحوت تماماً. وكان جو الغرفة ما يزال حاراً، مشبعاً بالرطوبة. وفي الخارج، كانت السماء تظلم وتنذر بهبوب عاصفة وهطول مطر، طال انتظاره.

ساد الغرفة المجاورة صمت كلي، استمر بضعة أيام. فلقد كان من الواضح أن الآنسة ماريانا لم تغادر غرفة نومها اثناء تلك الايام. فهل كانت مريضة، طريحة الفراش؟! لست أدري، لأني لم استطع قراءة وجه ليزا الذي لا يفضي بأي سر من الأسرار. لكني لاحظت أن البارون قد انقطع عن المجيء. وكان قد تلاشى انفعالي بسبب ذلك المشهد الغريب الذي لم أره،

وانما سمعته دون ارادتي، وضاع في زحمة الانطباعات المتكونة أثناء سهرات الليل. وتعودت على الصمت الذي خيم الآن على الغرفة المجاورة، مثلما كنت قد تعودتُ على حديث العجوزين. لكن الصمت لم يدم أكثر من خمسة أيام أو ستة. ففي أصيل يوم، في بداية غفوتي،أيقظني حديث يجري في الغرفة المجاورة. سمعت صوت البارون يصدح عاليا كعادته:

ـ طاب يومكِ يا ماريانا العزيزة، طاب يومك! وبنفس ذلك الصوت الآلي، صوت أشبه بصوت الطيور، استفسرت الآنسة عن حالة الجو، وبنفس لهجة العظمة، أجاب البارون، بأن الافضل ألا تسأل، لأن الجو حار، قاتل، لا يطاق.

وكالعادة، سُمِعَ حفيفُ أوراق جريدة يجري تصفحها بحركة نزقة، ثم سردٌ وتفسيرٌ لأخبار الصباح، في المدينة وفي العالم. كان صوت البارون يرتفع تدريجياً، مرتجفاً، حذراً، في البداية، ما انفك يزداد قوة وحدة مع مرور الوقت.

ـ ليس في هذا الأمر أية أصالة، ولا فيه من جديد . إنكِ لا شك تذكرين، أنني، عام ١٩٠١ ...

ـ أذكر، أذكر.

ـ وتعلمين أيضاً أنني وضعت مشروعاً بكامل حذافيره..

ـ أعلمُ، أعلم.

***

كنت أستمع اليهما ولا أستطيع فهمهما، وكنت أنتظر أن تُحضر ليزا لهما الشاي، لكي أغفو من جديد.

بائع الحطب

كـــان إبرو [1] سولاك يدفعُ عربتهُ، مقّوساً ظهره، مقطباً وجهه، وكان يصيحُ بصوت يعلو وينخفض، وبنغمٍ يتغيَّرُ دوماً:

ـ حطب، حطب!

عربةُ إبرو عجيبة، فهي مصنوعة من الخشب، ضيِّقة، طويلة، وفي وسطها دولابان، لا يصادفها المرء إلاَّ لدى الحمّالين في سراييڤو. إن الحمّال، لا يجرُّ العربة، وإنما يدفعها، يدفعها من مؤخرتها، طاوياً جسده في وسطه، بزاوية تصغر أو تكبر، تبعاً للحمولة. وإذا كان الحمّال ماهراً في قيادة عربته، يستطيعُ بواسطتها نقلَ حِملٍ كبير، يفوق قدرة انسان واحد على ذلك.

لقد إستأجر إبرو عربةً مثل هذه ، من أرملة أحد الحمالين، وكان يأتي بها، صباحَ كل يوم، الى مخزن پاشاآغا زبلجيتش، حيث كان يُحمِّلها بنحو عشرين حزمةَ حطب،ويبدأ رحلته اليومية في الشوارع الملتوية، شديدة الانحدار، في ضواحي الجزء الشمالي الغربي من المدينة، صائحاً، من حين لآخر، بعبارته اليتيمة («حطب»)،التي بات سكان تلك الشوارع والعابرون فيها، يعرفونه من خلالها.

كانت ثياب إبرو اسمالاً بالية، ولم يكن حليق الذقن، كما أن الاهمال صفة لا تفارقه. كان جسمه قد جفَّ ويبس، وكان احمرار وجهه بعيداً عن حمرة الاصحاء المعافين، وكانت

---

(١) إبرو ، هو إبراهيم بلغة أهالي البوسنة والهرسك (المترجم) .

عيناه بلون الدم. حين يبيع يعطي حزم الحطب للشاري دون أن يلتفت اليه، ودون أن تنبس شفتاه بحرف. وفي بعض الأحيان، كان من تلقاء نفسه، يُوصلُ حزم الحطب إلى داخل دار كهلٍ من زبائنه، وفي أحيان أخرى، يقف أمام زبائنه صامتاً، دون حراك. تاركاً شفته السفلى المزرقة تتدلّى سويةً مع عقب سيجارته التي إنطفأت منذ أجل، دون أن يرعاهم حتى بنظرةٍ واحدة، وكأنه يراهم لأول مرة في حياته. كان يدسُّ الدنانير الورقية والمعدنية في جيبه دونما إكتراث. فبقدر ما كانت جيبه تزداد امتلاء بهذه الدنانير، بقدر ما كان يتناقص ثقل عربته.

وقبيْل المساء، يرجع الى المخزن ليتحاسب مع صاحبه، فالربح الذي يحققه إبرو هو ديناران عن كل حزمة: دينار من صاحب المخزن، ودينار من الشاري، وبذلك يحصل على ثلاثين أو أربعين ديناراً في اليوم، تبعاً لظروف الطقس، وتبعاً للحاجة، ورهناً «بالحظ التجاري الصرف»، ولكن، بالدرجة الأولى، وقفاً على المزاج. إن مزاج إبرو، لا يمكن لأحد أن يتكهّن به، حتى إبرو نفسه هو الأقل قدرة على ذلك. فمزاجه، عموماً، ينعكس في صوته الذي يتردد أثناء المناداة. إذ ليس ثمّة في العالم، أذنٌ مرهفة، ولا جهاز حساس، بامكانهما لملمة كل النغمات والمشاعر التي يدخلها إبرو في هذه العبارة البسيطة التي لا علاقة لها بالشعر ولا بالعاطفة.

ـ حطب!

فعندما يصيحُ، دافعاً عربته، فانما يصيحُ صيحةً قويةً، لأنه قبْلَ أن يبدأ رحلته اليومية، يَدْلُفُ الى حانة، ويُفرغُ في جوفه قدحين من الراكيا[٢] كبيرين، هما أول قدحين في ذلك النهار،

(٢) شراب مسكر يستحصل عليه بتقطير عصارة البرقوق ونحوه. ويعتبر شراب شعبي لدى الشعوب اليوغسلافية (المترجم).

وكـان يُسددِّد ثمنهمـا، حـالما يقـبض ربحـه اليومي. عندمـا كـان يصـيـح صـيـحتـه تلك، كـان يفكّر بشـؤون أخرى، فـأفكاره، في واقـع الأمر، مـا هي إلاّ مشـاعر متشابكة وغير مترابطة، ومـا هـي سـوى عملـية ترجمـة داخلية لا تنتـهي، لماضـيه، ولذاته، وللناس من حوله كما يراهم هو بنفسه.

حين وُلِدَ إبرو، قبل اثنتي وخمسين سنة، في بيت سولاك الأب، ذلك البيت الكبير الذي كان يفيض ثراء في «بيلاڤي» ما كـان لأحـد قط أن يتـصـوّر هذا الطفل ينقل، في يـوم من الأيام، حطباً ليس بحطبه، وبعربةٍ ليست بعربته.

كـان أبوه يشـارف على السـتين وكـان البيت يعجُّ بالأطفـال الإناث: طفلتـان من زوجتـه الأولى، وأربع من زوجتـه الثـانيـة. حينهـا وُلدَ إبرو، وكـان الإبن والوريث. فـاحتُفِلَ بمولده، وعمَّت الفرحة والبـهجة سائر المحلة، وظلَّ الناسُ يتذكرون ذلك أمـداً طويـلاً. ويمكن القـول، أنه قـضى طفـولتـه والمرحلة الأولى من شبابه، فـي ابتهاج وفـرح غامريْن. سجّله أبوه في المدرسـة. إلاّ أن إبرو والحق يُقال، كان عاجزاً عن استيعاب هذه الفكرة. إذ كان الأسوأ بين زملائه التلامذة، وكان أكثرهم عصياناً وتمرداً، وكـان لا يعي مـا ينبـغي تعلُّمـه من الكتب. كـانت ثمّة فكرة مـا انفكت تشدُّه نحو وجهة معينة. فترك المدرسة. وتفتّح في وقت مبكّر، وباتَ فتىً، ضخم الجسم، مثيراً للأنظـار، فتعرف على الحـيـاة من جـانبـهـا السطحي، والسـهل، والظريف. وكـان حـينذاك يُمـضي أيامـه مـتنقـلاً بين أمـلاكـهم في ضـواحي سرايـيڤو، مـتعاطيـاً جميع تلك الأعمـال ووسائل اللهـو حسب مفـاهيم ذاك الزمان، التي كانت توفرها سرايـيڤو حوالي عـام ١٩١٠، للشباب الذين لم تضطرهم الحاجة الى اتمام الدراسة،

أو القيام بعمل معيّن.

وأبوه، دون غيره، هو القادر على ايقافه عند حده، أو توجيهه الى طريق آخر، لكن هذا الأب كان متساهلاً، ليناً كالعجين، ولذلك تركه وشأنه. وهكذا، كانت الحياة، بشكل أو بآخر، جديدة، وغير اعتيادية، وكأنها بدأت، آنذاك، من أجل إبرو ومن أجل رفاقه. فكل ما تشتهي النفس كان في متناول اليد.

- حطب! حطب!

وينبش إبرو ذاكرته، فترتسم أمامه الحياة التي عاشها في الترف والرفاهية والتبذير دون حدود، ويرى أن كل هذه الأشياء قد مضت سراعاً. ففي ربيع عام ١٩١٤، سيق الى الجندية، وفي صيف العام نفسه، اندلعت الحرب العالمية الأولى. قاتل، أولاً على الجبهة الروسية، ثم على الجبهة الإيطالية، حيث أصيب بجروح بالغة. ومن ثم خدم، فترة طويلة في الثكنات، برتبة عريف، ثم برتبة رقيب أول، في پيليشتشابا، بالمجر. وكانت الحياة هناك صعبة، وغير اعتيادية، لكنها كانت، مع ذلك، مرفّهة على طريقتها الخاصة. وهكذا انقضت الأيام في الشراب، وفي لعب الورق، وفي المرح، وفي المجون، ولكن، في ظل الحياة العسكرية، بخشونتها وقسوتها. لقد انقضى كل ذلك، بما يشبه الحلم.

حدث ما حدث، وانقضى ما انقضى. أما إبرو، والحق يقال، فلم يكن على بيّنة من الأمر: من يتقاتل؟ ولماذا هو بالذات يقود الآخرين؟ ولماذا يشرب؟ ولماذا يغنّي؟ ولماذا يسفك الدماء، ويُكرِه الآخرين على فعل ذلك؟ في عام ١٩١٨، عاد الى بيته شبه عارٍ، شاحب اللون، منهوك القوى، من جرّاء الجروح التي

أصيب بها (لقد نزف كثيراً في خندق بالقرب من تولمين!) وإثر حياة اللهو والمجون في الثكنات. وكان أبوه قد بلغ الثمانين من عمره، وكان قد ذبل وذوى. أما أمه فقد ماتت، وأما أخواته فقد تزوجن. وما كان لدى العائلة تبدد كله فجأةً، وتبعثر. ذاب المال في الأيدي وتبخّر، وتبددت الأملاك وتلاشت كسحابة دخان. وحينما كان يسكر، كانت الأملاك تلوح، أمام ناظريه، وكأنها لا تزال في موضعها، لكن ما أن يصحو، حتى يتأكد أنها اضمحلت وتلاشت.

فاثناء الحرب، باعوا البيت في «ساغرجي»، وها هم الآن يبيعون البيت الكبير في «بيبلافي»، وينتقلون الى دار مستأجرة أصغر منه بكثير. أما الاراضي والاملاك في ضواحي سرايبفو، فقد التهمها الاصلاح الزراعي. وهكذا، وجدوا أنفسهم على عتبة عالم جديد، مليء بالمنغصّات والمفاجآت المبهمة.

- حطب! حطب!

مات أبوه، وبدأ إبرو «يعمل» كما كان يُقال حينذاك، إذ بدأ يُتاجر. تشارك مع صاحب حديقة، لبيع الزهور. وعرف لأول مرة، ان حتى الزهور لها رائحة تخدش الأنف حينما يتعامل المرء معها. وعبثاً كان يحاول التغلب على هذه الرائحة باحتساء الراكيا وتدخين السجائر. ثم أن الأزهار سلعة حساسة، وزبائنها غريبو الأطوار ومتقلبون. إن كل عمل تجاري، صعبٌ، حتى تجارة الأزهار، لا تخلو من عوائق ومطبّات. فلا تدري من يدسّ قدمه بين قدميك، وهكذا، تتعثّر عند كل خطوة، وفي الخطوة الثالثة، تقع لا محالة. وببساطة، فإن حياتك، مع كل يوم قادم، تفقد بريقها ورخاءها دون رجعة. وكان إبرو يبحث عن

البريق والرخاء، بكل ما أوتي من قوة، كما يبحث الغريق عن نسمة هواء. وأثناء عملية البحث هذه، تزوج من فتاة فاضلة، من أسرة نبيلة وكريمة، لكن بائنتها كانت متواضعة. وكان الأطفال يولدون ويموتون، وكانت تجارتهُ بالزهور قد منيت بالفشل، فأفلس! وبقيت الحديقة لصاحبها، وبقي عليه هو تسديد الديون. فاضطر للعمل في بلدية المدينة.

ـ حط...ب!

لم يكن إبرو يعرف قط، والحق يقال، دلالة هذه العبارة «بلدية المدينة»، وما خطرت بباله يوماً. أما الآن، وقد باتت مورد رزق، فانه يرى وراء هذه العبارة، جميع عذابات البشر وجهودهم.

صحيح، أن العمل فيها ليس صعباً ولا بمنكر، لكنه لا يليق بالكرامة إضافة الى كونه مهيناً، وفيه اذلالٌ لا يمكن تفسيره. كان ذلك ينبع من كل كلمة ومن كل حركة، إضافة الى العار الذي لا يشعر به سوى إبرو سولاك، عار لا يُغسل، إلاّ مؤقتاً، باحتساء المزيد من أقداح الراكيا.

وتمضي السنون وتسوء معها الأحوال، وليس ثمة بادرة خير، حتى في الحلم. فبدأ بيع موجودات المنزل، وأخذ الطعام يقلّ، والملابس تبلى. ورغم ذلك، فإن المرء لا يستطيع أخفاء فقره وعوزه. لم يبق لإبرو من الأطفال الأربعة الذين عايشوا تلك السنين الصعبة، إلاّ فتاة يانعة، جميلة غاية الجمال، متواضعة، ذكية، نجيبة في دراستها، شغوفة بالمطالعة. ولما بلغت عامها الثامن عشر، تزوجت فتىً صالحاً، يعرف القراءة والكتابة، ويعمل في مصنع للتبغ. ولم يكن هذا الفتى يكبرها إلا قليلاً، ولم يكن أكثر ثراء من أبيها.

في ذلك الوقت، توفت زوجة إبرو، فظل وحيداً، وأهمل نفسه، وانغمس في الخمرة أكثر من قبل. كان الجميع يرددون ذلك، لكنهم انصرفوا عن تعليله. فالكلام سهل وغير مكلف. فسُرِّح إبرو من وظيفته في البلدية، وانقطع الرزق، حتى من وظيفة «العار» ولم يعد ثمة ما يسدد به ثمن قدح الراكيا. والحق يُقال، أنه في هذه الفترة بالذات كان قد اختار الخمرة ملاذاً، وبدأ يدفع هذه العربة، ويبيع حطب پاشاآغا.

ـ حـ..طـ..ب!

وفي نفس هذه الفترة، ما انفك يزداد توارياً عن الناس. هكذا كان يقول الآخرون. أما هو، فقد كان يشعر، ويرى رؤية واضحة، أن الأمر ليس كذلك البتة. ليس، وليس...فهو لم يتخلَّ عن العالم ولم يترك الوظيفة ـ فمعاذ الله!ـ بل بالعكس تماماً. إن هذا العالم بأسره بجماده وكائناته الحيّة، وبكل ما تفكّر وما تفعل، وما تقول... ان ذلك كله يهرب كل يوم الى جهة ما، تاركاً إياه في ظلمة داكنة، لا يضيئها سوى تدفق الراكيا... هذا التدفق الذي يحض على الغناء، ويداعب الجسد كما تداعبه يد، وينفث رائحة ذكية كعطر وردة. وكل ما عداه، هرب منه، تدريجياً، لكن هروبا مسرعاً، وبلا رحمة. وأصبحت الراكيا تعني كل شيء.

منذ ذلك الوقت، تحول إبرو الى ما يشبه شيئاً ضائعاً. كان يعيش خارج العالم، وكان ما ينفك يزداد ضياعاً. فلم يكن يزوره أحد، باستثناء إبنته شمسة، التي كانت تعاوده في فترات منتظمة، وتساعده قدر المستطاع، مع أنها كانت تقطن في الطرف الآخر من سراييڤو، ومع أن وضعها المادي، لم يكن يسمح لها بمساعدة كائن ما كان. كانت تجيئه إبنته الجميلة،

الهادئة، المبتسمة دوماً، وكأنها مخلوق يأتي من عالم آخر، محذّرة في البداية، راجية في النهاية، بأن يكفّ عن معاقرة الراكيا، أو أن يقلل من مقاديرها. وسرعان ما ادركت عبث ما تفعل، لكنها، مع ذلك، ثابرت على زيارته ومساعدته، وكانت تلزم الصمت ولا تؤنب. وكان صهره يتحلى بنفس خصال إبنته. وحينما كان إبرو يدلف الى حانته، قبيل المساء، كان يتباهى مثل السكارى الآخرين. ولكن، بمَ يتباهى، وحياته قد فقدت ضياءها وجمالها! كان يتباهى بابنته وبصهره.

كان يردد دوما:

- آه يا ناس! لو أنكم تعرفون كيف هي ابنتي وصهري! فهذا ما لا يوصف بكلام! وما أن يشرب نخب إبنته وصهره، حتى ينساهما في الحال، وينسى معهما نفسه أيضاً. فلم يكن يرى، عبر الضباب الذي تحدثه الراكيا، ما يجري حوله، وكيف يعيش من لا يعاقر الخمرة، والى أين يمضي عالم الصحاة. وذات يوم، سمع بأن حرباً عالمية جديدة قد بدأت. فاستقبل النبأ بدهشة كبيرة.

- حطب! حطب!

وتراءت أمام ناظريْهِ «غاليسيا» جديدة، و «پياڤا» جديدة، و «پيليشتشابا» جديدة، ولكن، للجيل الجديد الناشئ. بيد أن هذه الحرب كانت مغايرة، كانت مختلفة كل الإختلاف. وقد شعر هو أيضاً بذلك.

كان إبرو يدفع عربته، ويصيح بتلك الكلمة الأبدية نفسها، بصورة آلية، كما كان يشرب أو يتنفس. ولربما كان بامكانه، وهو في هذا الضياع، أن يدفع هذه الحرب بعيداً عنه، دون تبدلات وهزات كبيرة، لولا البلية التي ألّمت به. لقد كانت

مصيبة أليمة لم يكن يتوقعها، ولم يستطع فهمها أو تعليلها بالحرب، كما عرفها من قبل. فلقد أُعتُقِلَ صهرهُ.

ولما أراد أن يعرف لماذا اعتقل هذا الشاب الهادىء، الطاهر، قِيْلَ له: سياسة. ولم يزد القائلُ حرفاً واحداً. قال القائل تلك الكلمة، وهزّ كتفيه، وأغمض عينيه، ووضع سبابتَهُ على فمه. وهكذا فعل إبرو مع أنه لم يفهم شيئاً.أما ذلك الفتى، فقد بقي محتجزاً ثلاثة أسابيع، ثم أطلق سراحه. وبعد يومين، التجأ الى الغابة. وفي الحال، ألقي القبض على شمسة زوجته. فلمّا علم إبرو بذلك، ترك عربته، وهرع مستفسراً عن مصيرها. فعرف من أحد الحراس، وهو مسلم، وبعد أن استحلفه الحارس بغليظ الايمان، عرف أن ابنته شمسة قد سقطت صرعى، في اليوم الثاني لاستجوابها، وأن الأمر لم يكن مقصوداً، بل كان محض صدفة. كان قد صفعها أحد عناصر الاوستاش [٣] صفعة واحدة، فسقطت على الأرض ولم تنهض بعد ذلك. أكانت الصفعة، صاعقة، قاضية، أم أن ما أودى بحياتها، هو لين عودها ونعومة جسمها؟ (آهٍ، نعم، نعم، لقد كانت، وهو يعرف ذلك معرفة جيدة، رفيعة القامة، نحيفة، هشّة، حساسة، مثل أمها تماماً، لا تشبه أحداً قط، من عائلة سولاك المعروفة بصلابة عودها. نعم، لقد كانت مثل زهرة).

- حـ..طب! حـ..ط ـــب!

كان إبرو يُفرغ أقداح الراكيا في جوفه، حتى لا يفضي بالسر العظيم، وحتى ينسى مصيبته ما استطاع الى ذلك

(٣) الأوستاش: منظمة شبه عسكرية إرهابية كانت تتعامل مع المحتل النازي اثناء الحرب العالمية الثانية. (المترجم)

سبيلاً. كان قد حلف، فحافظ على قسمه، حتى في حالة الثمالة. وبقدر ما كان يزداد عدد أقداح الراكيا التي يشربها، بقدر ما كانت تتضاءل كمية الطعام الذي يتناوله. وكان يلمّ به، بين حين وحين، ألمٌ مضن، ألمُ أب على فقيده، وشعور بضرورة الثأر لكرامة عائلة سولاكً التي أذلّتْ. وكان ذلك كله، يضيع في تلك الصيحة الأبدية التي تنطلق في الشوارع المقفرة، وفي نهاية المطاف، تغرق، سوية مع ويلات الحرب، في الراكيا وفي نسيان مُكْفَهِر.

ولم يعد له، الآن، أحدٌ من ذويه المقربين، ولم يعد، ثمة، مَن يسهرُ عليه ويعتني به. فجفّ جسمه وتعرّى جسده وحَفِيَتْ قدماه. فقد كان ما يكسب من رزق، تبتلعه الراكيا كلّه.

وانتهت هذه الحرب أيضاً، وكأنها حلم. وظهر إلى الوجود جيش جديد، جيش الأنصار، «الجيش الخيّر» على حدّ تعبير النسوة جارات إبرو. وكان أن عاد الى أحد الجيران ابنهم، وهو «نصير»، وعلم منه إبرو، أن صهره قد استشهد، وأنه كان بطلاً مقداماً، وأن صورته قد ظهرت في الصحف. وفي الغد أراه هذه الصورة، فترقرقت عيناه بالدمع،وتعرّف على صهره. لكنه بدا له، أضخم مما كان عليه، وأطول، وأجمل - إنه ضابط حقيقي. ورأى وسامه، فارتعش من رأسه حتى أخمص قدميه. وكان النصير الشاب إبن الجيران، ممتثلاً أمامه، مبتسماً، وديعاً، لكنه كان يبدو له بعيداً، فكان يحدثه تارة عن صهره البطل، وتارة عن الحياة، وعن العمل، وعن أضرار الخمرة. فلمَ يحدثه عن ذلك؟ وعن أي خمرة يتحدث؟

وترامى الى مسمعه في الحانة التي يرتادها، أن الصحف كتبت عن ابنته شمسة. ما كان يدرك حقيقة الأمر، لكنه كان

يبكي خفية، زاماً شفتيه، وكان يبتلع دموعه سوية مع الراكيا، وينسى كل هذا، ويدفع عربته. كان عليه أن يكسب من أجل الراكيا، ومن أجل السجائر، ومن أجل ... الخبز أيضاً.

وكان إبرو سولاك قد وصل الى «قصر ماري» حيث كان يعبر الشارع الرئيسي، عند هذه النقطة عادة، ليدخل في تلك الأزقة الضيقة التي ما تزال تحمل أسماء قديمة، مثل «المغربية» و«أضه باشي» وما شابه ذلك. وفي تلك الاثناء، مرّت في الشارع الرئيسي، كتيبة جنود، كانوا ينشدون. فتوقف إبرو، يشاهد ويسمع. فقد كان صهره جندياً وضابطاً، وحصل على وسام، وظهرت صورته في الصحف. وعلى الطرف الآخر من الشارع، كانت تمر مفرزة من الشبيبة، وكانت تنشد أيضاً. ولم يكن إبرو يعرف هذا النشيد، ولا كان يعلم إلى أين تمضي هذه المفرزة، لكنه يعلم تمام العلم، أن ابنته شمسة، كانت عضواً في منظمة الشبيبة. لقد كُتِبَ ذلك في الصحف، وقرأه الناس. وكُتِبَ أنها استشهدتْ، وأنها كانت رفيقة بطل. وكُتِبَ أيضاً عن جسارة فؤادها وعن المهام العظيمة التي كانت تقوم بها. فلقد كانت جسورة هذا صحيح، لكنهم لم يكتبوا كل ما ينبغي أن يُكتَب عنها. لم يكتبوا عن جمالها. لقد كانت جميلة غاية الجمال. كانت سلطانة، أما النساء الأخر، فلا! لقد كانت حنونة، ليس على أبيها التعيس فحسب، بل على كل البشر. هكذا كانت !

- حط ...ب!

لم يعد يرى مفرزة الشبيبة، لكنه ما زال يسمع أصداء نشيدها، ورأى مفرزة جنود قادمة من بعيد، واستطاع أن يميّز بأنهم ينشدون نشيداً آخر.وبدأت الكلمات والانغام تتداخل. ان

الجـميع من حوله ينشدون، ويمضـون. فـرحين، الى مكان مـا، وثمـة من يقـود ذلك ويُحسن تدبيره. وسرعـان مـا تتلاشى هذه الصـورة، وتذهب الى مكان آخـر. ومـا عليك الآن إلا أن تحـزر الى أين؟ إنه لا يفـهم شيئاً من كل ذلك، ولا تعتريه أية مشـاعر، سوى آلام في خاصرته. فحينما تَهبُّ الرياح الجنوبية، يوجعه ذاك الجـرح من «تولمين» لكن هذا الوجع لم يعـد يذكّـره بأي شيء. انه وجع وحسب. لكنه يعلم، أمـراً واحداً، وهو أن ابنتـه وصـهره، كانا من بين اولئك. وحينمـا كان يدفع عربته في أول زقـاق دخل اليه، تملكته رغبة في أن يصيح بأعلى صـوته: «يا ناس! لو أنكم تعلمـون كيف كـانت ابنتي وكيف كـان صـهري! فهذا لا يوصف بكلام!»

ويدفع عربته الثقيلة، رافعاً رأسه، صائحاً بصوت أجش!

ـ حط ...ب!

ومن نافذة في الدور الأول، أطلت امرأة فتية، وصـاحتْ عليه بأن يُحـضـر لهـا، الى فوق، حـزمـتي حطب. فـرفض إبرو، دون تردد، بكبرياء، وعنفوان، وبسـخط.

ـ إحمل لي الرزمتين، وسوف أعطيك ديناراً.

ـ أنا لا أحـمل على قـدمي «لكائن من كـان. لا لديناركِ، ولا لألف دينـار. أفـهمتِ؟ فـإن كنت بحـاجـة الى حطب، فـانزلي ... وخذيه!

فـانفـجـرت حنجـرة المرأة، عبـر الشـبـاك، بوابل من الكلمـات المقذعة والشتائم والهزء والاستـهتـار بحق الرجل، لكن إبرو لم يعد يسمع عواءها، إذ كان قد ابتعد، دافعاً عربته، بكل جسمه، وبكل قوته، في ذلك الزقاق الصاعد، صائحاً بأعلى صـوته:

ـ حطب!حـ ـ ط ـ ب!

بين الحلم واليقظة تحت شجرة الدردار

في أصيل يوم الأربعاء، يوم السوق، كان ڤيتومير تاسوڤاتس ، عائداً إلى ديكاڤا، قريته، سالكاً طريق العربات، المحاذي لنهر درينا. وكان قد سار ساعة بكاملها، الى أن انعطف الى درب وعر يحاذي جبلاً شديد الانحدار، يوصل إلى سفوح القرية، بعد ثلاث ساعات ونصف الساعة سيراً على الأقدام.

كان ڤيتومير يتسلق الدرب الوعر الصاعد، جاراً وراءه حصانه الصغير البطين الأشعث وسرجه الفارغ. ففي الفجر، واثناء هبوطه هذا المنحدر، كان يفكر بزوجته يِدْڤا، وبابنيه لوقا ولازار. إن زوجته مصابة بمرض عضال غير معروف. وقد ساءت حالتها في الآونة الأخيرة، حتى بات لا يضمن أن يلقاها على قيد الحياة، حينما يعود. كان أنينها الخفيض يملأ الدار على مدى الليل والنهار، ويعكر حياة زوجها رغم قوة أعصابه. وفكرّ:«إنها تعاند الموت رغم سوء حالها. فهي لا تقوى على رفع كأس الماء الى فمها، بينما تجد القدرة على التأوه».

نفقات وعذاب ومرضى وبيت بلا إمرأة. وإبناه؟! يا ليتهما ولدان صالحان! فلوقا، الإبن الأكبر، طائش، متهور، سريع الانفعال كالبارود[١].

---

(١) كما وردت بالأصل (المترجم)

أما لازار، الأصغر، فهو بليد أخرق. إن الكبير نافع لجميع الناس، إلاّ نفسه وأهله، أما الصغير فلا نفع منه لا لنفسه ولا لغيره.

كذلك كان يفكر، في الصباح، أثناء هبوطه الدرب المنحدر، وها هو الآن، اثناء صعوده ذات الدرب، يفكر بما تركه وراءه في القصبة .

إنه هنا، يعرف كل ما حوله: كل أجمة وكل حجر وكل كومة تبن. وبالمقارنة مع هذه المنطقة التي تحجُّر سكونها، حيث كل شيء باقٍ في مكانه، لا يبدل موضعه مع الزمن، تبدو له السوق في الأسفل، أشبه ببحر لا يؤتمن، وتصعب السباحة فيه وتُتعِب، ولا مكان فيه للتوقف والاستراحة. وكلما صعد أكثر، كان الهواء يزداد طراوة، والفكر صفاء، فتبدو له السوق، في ذاكرته، خانقة، قابضة للصدر، ولا تطمئنُّ لها النفس. فهي كالماء الجاري، المترجرج تحت أشعة الشمس، يُبهر الأعين ويخادع العقول.

فعندما نزل الى القصبة، أخر مرة، قبل ستة أسابيع، في أيام عيد القديس جرجس، اشترى من دكان [٢]«سالومون قمحي»، بعض اللوازم البسيطة.إنه يتذكر كم دفع لقاء ما اشترى حينها، وبوسعه أن يشير إلى الرف [٣] الذي أنزل منه ما طلب. فهو يتذكر ذلك جيداً. واليوم، وعندما توجه إلى دكان سالومون، وجد مكانه صالون حلاقة. شُده وقال في ذات نفسه: «عجب! متى تبدل الدكان؟ لكأنني، بالأمس، كنت في هذا

(٢) كما وردت بالأصل (المترجم)
(٣) كما وردت بالأصل (المترجم)

المكان، واشتريت المسامير الصغيرة. أنا لست بمجنون ولا بسكران! وها هو الآن صالون حلاقة، صالون فخم، يقصده الضباط لحلق ذقونهم. وها هي سيوفهم معلقة على الجدار».
فجمد بمكانه، لا يستطيع أن يتقدم خطوة نحو الأمام، ولا أن يتراجع نحو الوراء. وكان أجير الحلاق يراقبه بوقاحة واستهزاء. لم يكن بطول الشبر، ولم يكن ينقطع عن ضحكه الصفيق وعن قهقهته التي كان يحاول كبتها، فكان الطاس[٤] يهتز ويتواثب بين يديه.

بمشقة كبيرة، استهدى الِى الدكان الجديد. «أجل، لقد انتقلنا، وقد توسَّعنا». كذلك قال سالومون. ففكر الفلاح: «انتقلنا؟ حتى الطيور لا تستطيع نقل أعشاشها بهذه السهولة. وها هم هؤلاء قد نقلوا، بلمح البصر، التجهيزات والبضاعة. فإن كانوا يستطيعون ذلك، فكيف لا يستطيعون الضحك على ذقون الفلاحين! توسَّعنا؟ أنَّى لهم أن يتوسعوا، اذا لم يربحوا؟ وكيف ربحوا، إن لم يكن بالغش في الموازين والمقاييس، وبالتلاعب على زبون ساذج؟».

إنه إذ كان ينظر الى البضاعة المصففة، نظرة خالية من الثقة، فإنه كان يشعر، بل يؤمن ايماناً راسخاً، بأن هذا «التوسع» يشتمل على كروتزر[٥]، مستلب منه، كان قد ناله بعرق جبينه. لقد كان هذا الكروتزر، في هذه اللحظة، أثقل على قلبه من حجر الطاحون.

كان ينظر إلى سالومون، الذي تبدو على محياه، علائم التوسع، كان ينظر اليه ورغبة جامحة تعتريه لأن يتصرف

---

(٤) كما وردت بالأصل (المترجم)
(٥)عملة نمساوية صغيرة (المترجم)

حياله، تصرف المتضرر والمغبون. لكنه لم يستطع. بل الذي حدث هو العكس تماماً. فلقد أضحى سالومون أكثر طمأنينة، وأكثر صفاقة. إنه يعرض عليك ما يريد هو بيعه، لا ما أنتَ مضطر لشرائه. فأخذ يفرض عليه أشياء لا يستفاد منها عملياً، وانما تمتص النقود، كالمرايا الصغيرة وريش الطاووس وصفّارات من السكاكر الحمراء. إشتر، إشتر! وكان الفلاح يدافع عن نفسه، كأنه يطرد ذبابة. وود لَو يتخذَ موقفاً أكثر حدة، كونه زبوناً، يعتمد «توسع» سالومون، في نهاية المطاف، على كل كروتزر يحصلّه بكدِّه وكفاحه. لكنه لم يفلح.. لم يستهدِ إلى العبارة الواضحة والاسلوب الصحيح ليعبِّر عن تفوّقه. فأخذ يوارب، ويبتسم ابتسامة تنمُّ عن الخشية وعدم الثقة، وكان شاربه يتراقص. أما سالومون، فقد أصبح بعد توسيع دكانه، اكثر جرأة، وكأنه أمسى، بالفعل، أكثر فطنة. صار يتكلم من علٍ، مبدياً أقصى اهتمامه، تارة، مظهراً غيظه، تارة أخرى، مستعملاً اثناء ذلك، بعض الكلمات المُهيِّنة، كأن يقول: «لن تجد، اليوم، مثل هذه البضاعة، حتى في ڤيينا. فمن له في رأسه عينان، لا يمكنه إلا أن يرى بضاعتي، وعليه أن يشتري. لا مفرّ!»

ان لهجة الإجبار هذه، أهانت الفلاح، لكنه كبح غضبه، وواصل ابتسامته، دون أن يولي اهتماماً بالبضاعة المعروضة، لأنه لا يريد أن يلتزم حتى بنظرة. كان يسترق النظر، خلسة، الى الرفوف والدروج التي على جدران الدكان، باحثاً عن تلك المسامير الصغيرة، التي كان يشتريها من قبل، والتي ما زال بحاجة الى المزيد منها.

هزَّ سالومون كتفيه بحركة تدل على اللامبالاة، وواصل: «إن

فرصاً كهذه، لا تتكرر إلا مرة واحدة كل عشر سنين، مرة واحدة فقط. أما أنت يا فيتومير، فلا تبتغي خيراً، لا لنفسك ولا لأولادك. أتريد مني أن أحرص على مصلحتك، أكثر من حرصك عليها؟ لا، لا يمكنني! فما حك جلدك مثل ظفرك». ثم انتقل الى موضوع المسامير. وكان بانتظار فيتومير مفاجأة جديدة. إن سعر نصف كيلو من تلك المسامير، لم يعد ثلاثين كروتزراً، كما كان قبل ستة أسابيع، وانما صار اثنين وثلاثين. ولم يكن بمقدور الفلاح أن يفيء الى رشده، من جراء الصدمة. فالمسامير هي هي نفسها، أما سعرها فجديد.. سعر أعلى. فردّ سالومون ببرودة أعصاب، بأنها دفعة جديدة من المسامير.«أتظن، يا هذا، أن البضاعة تكسد؟ لذا، كنت أقول لك، أنه ينبغي الشراء. فمن لا يريد الندم، عليه أن يشتري».كذلك قال سالومون، مشيراً الى السكاكر والمرايا الصغيرة.

كان فيتومير ما يزال يصعد الدرب، وكانت الأفكار تتشابك في رأسه ببطء، بينما كانت الريح تهبُّ من الأعالي. ففكّر: أجل، أجل. لقد حمّل حصانه حملاً كبيراً من حطب الدردار، من الفروع القوية اليابسة، وباع هذا الحمل لقاء سبعة وعشرين كروتزراً، مع أنه كان عازماً، وهو في طريقه الى القصبة، ألاّ يبيعه بأقل من ثلاثين. تجوّل طويلاً في الشوارع، مع حصانه المحمل بالحطب، وكان يلح في طلب ثلاثة سِكْسِرَات[٦]، رافضاً كل من عرض عليه ثمانية وعشرين كروتزراً. ولكن في إحدى اللحظات، فَقَدَ جسارته، إذ خشي أن يرخي الغسق أولى خيوط

---

(٦) السِكْسِر: عملة نمساوية فضية، وهو يساوي عشرة كروتزرات. (المترجم)

الظلام قبل أن يبيع حطبه. في تلك الاثناء، اعترضته سيدة سمينة تنضح بالحياة، وبطرفة عين، تشاطرت عليه واشترت الحطب بسبعة وعشرين كروتزراً. ولمّا أنزل الحمل، شعر بالندم، ولكن بعد فوات الأوان. وهكذا، خسر في الحطب ثلاثة كروتزرات، واضطر الى دفع كروتزرين اضافيين عند شراء المسامير. ما العمل يا رب؟! لا أحد يرحم، يأخذون منك، ولا يعطونك حقك! أصابع غير مرئية، تتسلل إلى كيسك الصغير المربوط إلى صدرك، يأخذون.. وينهشون من لحم جسدك الحي.

مع هذه الأفكار، كان قد وصل الى فسحة من الأرض، منبسطة تقريباً، تُعرف باسم «تحت شجرة الدردار»، فجلس، كعادته، لينال قسطاً من الراحة.استند الى شجرة الدردار، فأخذ يشعر بخدر في ساقيه، خدر مؤلم ولذيذ في آن، من جراء التعب. (إن ساقيه لا تزالان تقويان على حمل جسده، اثناء الصيف، وما أن يأتي الشتاء، حتى تخذلاه، فيلزم الفراش لعدة أسابيع كالمشلول). وأخذت أفكاره تتراوح بين ما حصل معه في القصبة، وبين ما ينتظره في داره بالقرية، إلى أن توازنتْ، وهدأتْ مثل كفتي ميزان فارغتين.

غلبه النعاس، وشعر بأن الأرض تجري من تحته. وكان لهذا الجريان فعل المنوِّم. فغفا، مستنداً الى الجانب السليم من شجرة الدردار الهرمة، وحلم. وكان حلمه، واضحاً، ومن صُلب حياته، شأن أحلام ذوي الأعصاب المتينة، وهم قلَّ ما يحلمون.

جاء زمن الخير، حاملاً لقرية ديكاڤا الرخاء والنعيم، وحلَّت البركات في الأرض، فاتسعت وأخصبت. وقد خُصَّ بذلك ڤيتومير وعائلته دون الآخرين. فزوجته تنعم بالصحة والعافية،

وإبناه صالحان مطيعان، وهو لا يشكو من علة، تماماً مثل أيام الشباب. أما قطعة الأرض الصغيرة التي كان يملكها، فقد اتسعت وامتدت، طولاً وعرضاً، وأخصبت وأغدقت بالعطاء، بعكس ما جرى لأراضي الآخرين. وسمع من يقول: «لقد اختلطت الأمور على ڤيتومير، فما عاد يدري كم عنده». سمع ذلك وأخذ يضحك. صحيح أن أملاكه كثيرة، لكنه يعرف عددها، ويعرف مواقعها .ولو تضاعفت مرتين أو أكثر يظل ملماً بكل شبر منها. تلال من الذرة والقمح تُشْدِهُ العيون، والألبان والأجبان تُسيل اللعاب، ودجاج الجيران يقفز سياجه ليحضن بيضه.

إن ڤيتومير يجول بنظره، من مكان عالٍ، فيرى على الجانب الآخر من السياج، سالومون بذاته، فاقداً كل علائم الوجاهة، منهك القوى، مغبراً، ممزق الثياب، هزيل الجسم، حتى أنه لو شُوي على النار لما وُجد ما يُشوى.لقد تسلق المنحدر حتى وصل ديكاڤا، طلباً لقليل من القمح ليطعم أطفاله. فالحالة في القصبة مزرية، والجياع أكثر من الشباع. وها هو يتساوم مع ڤيتومير حول خرجين من الشعير، وكان أثناء ذلك، يستند باحدى يديه على السياج، حتى لا يهوي أرضاً، ويقبض بالأخرى على الحبل الواصل بين الخرجين المتدليين على جانبي كتفه.

ـ ها نحن قد توسعنا!

قال ڤيتومير ذلك، وكرر عبارته مرات عديدة. وكان سالومون يتفحص بنظرة قلقة، تلك المساحات الشاسعة والأملاك المنتشرة عليها، ويعاود طرح موضوع الشعير. فقرر

ڤيتومير أن يبيعه عشر أوقيات[٧] فقط. ولكن بأي سعر؟ إن المحتاج للشعير يدفع أثني عشر كروتزراً، ويأتي على قدميه في طلبه.

وفكر ڤيتومير: «سأطلب منه أربعة عشر كروتزراً، كي أعوض الفرق في سعر المسامير. أربعة عشر! وبوسعي أن أطلب خمسة عشر، بل وأكثر. ولكن حرام.

ـ بكم ؟

كذلك سأل سالومون وصوته يرتجف. فأجاب ڤيتومير بصوت عال، تفجَّر من حنجرته:

ـ بستة عشر.

ـ كيف ذلك؟ كيف ذلك؟ كيف ذلك؟

سأل سالومون، بصوت أشبه بصياح الديكة، مردداً سؤاله ثلاث مرات. فقد كان من عادته، تكرار العبارات أثناء الكلام. ثم أخذ يناديه باسمه، بعد أن جن جنونه:

ـ يا ڤيتومير، يا ڤيتومير، يا ڤيتومير!

على هذه الصيحات استيقظ الفلاح من غفوته، وفتح إحدى عينيه، فرأى على مقربة منه، بجانب شجرة الدردار، ستاكا، وهي أرملة، مختلة العقل، تُعيل نفسها بنفسها، وتساعد النساء في أعمالهن.

لقد كانت توقظه صائحة:

ـ ليسلم رأسك يا ڤيتومير. لقد ماتتْ يِدْڤا... ماتتْ هذا الصباح، فور رحيلك. ولقد أضأنا لها شمعة، وقمنا بغسلها، ثم ألبسناها. الجميع بانتظارك.

---

(٧) كما وردت بالأصل. (المترجم)

أغمض فيتومير عينه التي كان قد فتحها، فتلاشى كل شيء في الظلام، خلف عينيه المغمضتين.. تلاشت الثروة، وغاب السياج سوية مع سالومون. ولم يبقَ أمامه سوى القفر والموات. ظل مغمض العينين، ضاغطاً جفونه بقوة، وكانت المرأة مستمرة في صياحها:

ـ يا فيتومير، يا فيتومير، لقد ماتت يِدْفا. هيا إنهض!

اليوم الثاني لأعياد الميلاد

في هذه الليلة أيضاً، إستلقيا وغفيا، مثل كل ليلة. ففي ساعة متأخرة من اليوم الثاني لأعياد الميلاد، يوم صقيع حقيقي، عاد القنصل العام وزوجته إلى البيت، بعد أن تناولا العشاء عند أخيها الجنرال، إسوة بكل سنة.

كان القنصل متجهم الوجه، وكان يئن أنيناً متواصلاً، وهو يفك أزرار معطف الفرو والصدرية الجلدية، وينزع الكَلُوش[١] والحذاء والأربطة الصوفية التي يلف بها ساقيه.

وبعد أن ألقت الزوجة نظرة على ميزاني الحرارة في كلتا الغرفتين، أحضرت لزوجها دواءه مع كأس ماء، وعنّفته للمرة الثانية، بسبب تناوله لحم الطرائد والحلوى، واحتسائه للنبيذ الحلو، رغم علمه بأن التحليل الأخير الذي أجراه، قد بيّن إرتفاع نسبة السكر في دمه، وبأن الروماتيزم قد عاوده مرة أخرى.

تصاعدت صيحات القنصل، لائماً نفسه على ضعف ارادته، وأخذ يرتعد ويزداد غماً. فقامت زوجته بمساعدته في ارتقاء سريره، كما تفعل كل ليلة، إذ لم يكن قادراً على ارتقاء علو درجة واحدة، دون مساعدة إنسان آخر، وإلا لهوى أرضاً، كما حدث مرة، فانكسر عظم مرفقه وركبته، بسبب ضخامة جسمه.

(١) الكَلُوش: غطاء واقي للحذاء من المطر والطين. (المترجم).

وبعد أن شكرها وتمنى لها ليلة سعيدة (باللغة الفرنسية كالمعتاد) غادرت الزوجة إلى غرفتها.

إن الباب بين الغرفتين، مفتوح، دوماً، على مصراعيه.عادة قديمة هي كل ما تبقى من الحب الغابر ومن الليالي الأولى لحياتهما الزوجية، وما إلى ذلك. لقد كان الأمر يجري على هذا النحو: الباب مفتوح، دوماً، كما هو الآن. فإذا وجد، حينما يصل البيت، أن زوجته قد أوت الى فراشها، يتوقف عند الباب المفتوح، وهو في نصف ملابسه، ويصيح بصوت متغيِّر النغم: «أفتحي الباب!» كانت الزوجة تتظاهر بالخوف والاستياء، وتسأل من تحت اللحاف: مَن الداعي؟ فكان، وهو ما يزال واقفاً عند عتبة الباب (أمر لا يكاد يصدقه الانسان في يومنا هذا) كان يتمتم كطفل مدلل، قد عيْلَ صبره:

ـ تَحِيْ باب !

أما هي فقد كانت تسلُّ يدها من تحت الغطاء وتلوح بها، وتصيء بدلال وغنج، أن لا يدنو منها، وأن يطفيء النور على الأقل، وما إلى ذلك.

كان ذلك يجري عند هذا الباب نفسه، ولكن منذ زمن بعيد، بعيد جداً، يوم كان القنصل العام، كاتباً في القنصلية، وكانت السيدة «القنصلة» ـ إمرأة فتية، تُذكِّر بأنها ما زالت أُنثى.

وهكذا، فلقد غفيا في هذه الليلة الميلادية أيضاً، كالمعتاد. وفي وقت ما أثناء الليل، رأى القنصل حلماً مشوشاً، مزعجاً (غالباً ما كانت الأحلام تزعجه وتعكر صفوه)، كمبيالات مزوَّرة، مسؤلية كبيرة غير قادر على تحملها، قطار يغادر الرصيف ولا يستطيع اللحاق به. لكن هذه الأحداث أخذت تزداد ترابطاً ووضوحاً، وأضحتْ واقعاً حقيقياً.

فبعد خسارة فادحة توجّع قلبه لها، وفرار ومطاردة، وسوء تفاهم وظلم أُنزل به، وجد نفسه في بلد غريب، بين الجمهور، أمام القنصلية.

عدد غفير من المراجعين في رتل طويل، مثنىً مثنىً، أقدامهم تراوح في المكان حتى لا تتجمد، وفي أيديهم المقرورة المحمرة، جوازات سفر ووثائق، والحاجب لا يسمح بدخول أكثر من واحد، حتى اذا خرج يدع الذي يليه. وكأن من يدخل، تبتلعه لأرض فلا يخرج. وهكذا، كان الرتل يتناقص ببطء شديد.

كان هو في مؤخرة الرتل، وكانت يداه مقرورتين، تقبضان على صرّة. حاول أن يتشاطر، فاجتاز بعض الصفوف التي أمامه، فتعرف على الحاجب: إنه نيقولا بعينه، حاجب قنصليته. أراد أن يناديه باسمه. لكن نيقولا صاح فجأة:

- أسمع يا هذا! إسمع، أنتَ هناك! لا تتشاطر! وإلاّ سوف تكون آخر من يدخل.

عاد الى مكانه السابق في الرتل، وفكر باعطاء «بخشيش». بحث في جيوبه، فلم يجد درهماً واحداً. عَظُمَ الأمر في نظره: عليك أن تبقى في الرتل، وليس بوسعك تقديم «بطاقة الزيارة». عليك أن تنتظر وأن تتحمل هذا الصقيع. إن الأرتال لأمر كريه حقاً!

ظل يراوح في مكانه ويفرك يديه، ويحصي عدد الذين أمامه بحسد، والذين وراءه بازدراء، إلى أن حان دوره. أما نيقولا، الذي لم يشأ أن يميزه ويتعرف عليه، فقد أخذ يربت على كتفه حينما فتح له الباب، قائلاً:

- ها أنت ذا قد وصلتَ يا متشاطر! هوِّنْ عليك! إذهب الى

ذلك السيد، علي اليمين!

دخل الغرفة الدافئة، وترك الصرّة عند الباب. وقف مقابل ذلك السيد الذي على اليمين ، وأخذ يعدد ما انتابه من مصائب: سرقة، فرار، تزوير، قطار، امتعته في قطار لم يستطع اللحاق به..

- أعطني جوازك.

- ليس عندي ... لقد...

- لا جواز سفر لديك؟ ما تأمل يا عزيزي؟

- لقد فقدت جوازي، طبعاً، سوية مع متاعي.

فبدأ الجالس الى الطاولة، يصرخ بأعلى صوته:

- ليس «طبعاً» بأية حال، أيها السفير المتجول. قُلْ لي بربك، ماذا تبغي من القنصلية؟

- أن تعيدني إلى بلادي و...

- طيب. ألديك قيد نفوس، دفتر خدمة؟

زاغ نظره. لم يخطر بباله قط، أن هذه الأشياء ستكون ضرورية له أيضاً. بدت له هذه المطالب صعبة وجائرة. شعر بعبثية الوضع، إذ لا يمكن لهذه الأمور أن تكون كما هي عليه.فشحذ ذهنه لكي يتغلب على المأزق الذي هو فيه.

لكن الجالس إلى الطاولة قطع حبل تفكيره:

- يا سيد! أَمِّنْ هذه الوثائق أولاً، ثم تعالَ! دون ذلك، لا نستطيع شيئاً.

ونهض في الحال.

أخذ يستعطفه بأن لا يدعه، هكذا، دون عائل ومعين، في بلد غريب، مريضاً، مصاباً بداء السكري، وبعرق النَسا، وو...

- كُفْ عن تعداد أمراضك. أنا لست طبيباً.

من خـلال هاتين العبـارتين، اكـتشف أمـراً فظيعـاً: إن هذا الرجل الضـبـابي، الذي لـم يسـتطع رؤية وجـهـه، إنما هـو، هو بذاتـه. إن عـبـاراتـه انما هـي عـبـاراتـه هـو، عـبـاراتـه التي كـان يكررها على مـدى خـمس عـشـرة سنة، هنا، في مكتبـه، على مسمع كل متسكع ومتسول:

ـ «لماذا تعدد أمامي أمراضك؟ أنا لست طبيباً».

شعر بصداع في رأسه. حاول المستحيل كي يعرف حقيقة مـا يجـري: كيف وُجـد هنا، في هذا المكان، كمـتسكع، دون وثائق؟ ومن هذا الذي يحقق مـعه؟ هَمَّ أن يقـول بأنه قنصل، أو على الأقل، بأنه كـان قنصـلاً. لكن الشـعـور بالعـار قـد لجم لسانه، فلم يقل الحقيقة.

ـ يا سـيـد! لقـد قلتُ لك أن تحـضـر الوثائق الضـرورية، عندها، نستطيع اعادتك الى الوطن.

أراد أن يقـول أنـه لا يملك شـروى نقـيـر، فـأنَّى لـه أن يؤمِّن الوثائق المطلوبة وأن ينتظر وصـولها؟ أراد أن يقول أنه لم يكن في مـسـقط رأسـه منذ طفـولتـه، وأنه لا يعـرف أحـداً هناك، ولا يعـرفـه أحـد. لكن ذلك الجـالس إلى الطاولة، لم يعطه فـرصـة الكلام.

ـ التالي، يا نيقولا.

بقي عند البـاب، انحنى والتـقط الصـرّة، ونظر الـى المراجع التـالي كـيف يدخل ويتقـدم من الطاولـة.سمـع صـوت القنصل، كان يسمـع صـوتـه هو:

ـ أعطني جواز السفر.

وجد نفسـه مـهـملاً، ضـائعـاً. لم يبق أمـامـه إلاَّ أمل أخير، فتجاسر وسأل:

ـ ما مصيري؟

ـ لا أدري. هذه قضيتك. اكتب لدائرة النفوس!

تسلل الى بهو الانتظار، حيث كان ثمة مراجعون ما زالوا ينتظرون. حدَّق بالبواب طويلاً، بنظرة استعطاف وسؤال: ألا تعرفني؟ لكنه لم يتجرأ أن ينبس بكلمة.

كان البواب طيب المزاج.

ـ أما قلتُ لكم بانكم ستدخلون جميعاً؟!

أراد أن يستغل المناسبة، فرجا البواب أن يسمح له بالجلوس في بهو الانتظار، ليتدفأ قليلاً.

ـ القنصل لا يسمح للمراجعين بالجلوس. أمامك المدينة بأسرها. فاجلس حيثما تشاء!

وأشار بيده إلى الجدار، حيث توجد لوحة، كتب عليها بلغات ثلاث: «لا يُسمح للمراجعين البقاء في بهو الانتظار بعد انجاز معاملاتهم» وفي أسفل النص توقيعه: اسمه ولقبه وتوقيعه بخط يده. أراد أن يصرخ، أن ينهال بالضرب على البواب، أن يفعل أي شيء، ليبرهن على أنه هو الذي أصدر هذا الأمر، وأن هذا الأمر لا يسري عليه. لكن ليس بوسعه فعل أي شيء من هذا القبيل.

وجد نفسه في الفناء، وكان الجليد يغشى البلاط، وكانت السماء تحتضن الأرض. مدينة لا يعرفها، غربة، زمهرير، جوع، وجع في الركبتين وفي الرأس. أسقط الصرة من يده، وتمنى لو تواتيه المنية في الحال، لينجو من هذا المأزق. خرَّ على الأرض، فلم تكن صلبة ولا باردة.

استيقظ القنصل العام على أنينه، وكانت شفتاه جافتين، وأصابعه متشنجة، وشعر بضربات قلبه تدق في صدغيه. لم

يستطع أن يتحكم بتنفسه ولا أن يتوب الى رشده.

تأوه مرات عديدة، ثم استنهض جسده بصعوبة، وأسند ظهره على الوسائد. أضاء النور، ومرر يده على لحافه الحريري البنفسجي الذي يعرفه جيداً، فغمرته طمأنينة لا حدود لها، إذ أدرك أنه هنا في فراشه، وأن ما تراءى له ليس حقيقة، وإنما الحقيقة ها هي هنا، حيث هو. بقي هذا الشعور يعتريه للحظات، إلى أن تخلت عنه الفرحة الكبرى، فعادت إليه الصور التي رآها في المنام، وترجّعت في أذنيه الكلمات واضحة:

- «لا أدري. هذه هي مشكلتك. أنا لست طبيباً».

ومرة أخرى، اعتراه ذلك الشعور بالضياع والرعب والزمهرير. فانسل من الفراش بمشقة، ببطء وحذر. وسرت في جوانحه قشعريره، وأخذ فكه السفلي يرتجف. أضاء الثريا الكبيرة، فأنارت الخزانة والدمى الخزفية. كل شيء هنا، في مكانه. إذن، ما تراءى له في المنام ليس حقيقة! رغم ذلك، لم تتخلَّ عنه القشعريرة، ولم يفارقه الخوف. ارتدى «الروب دو شامبر»، وذهب إلى غرفة العمل. حرر قفل المكتب، وأخرج ملف الوثائق. كل شيء موجود، بدءاً بشهادته الثانوية، وانتهاءاً بمرسوم تعيينه قنصلاً عاماً من الدرجة الأولى. شهاداته، وصيَّته، أوسمته من ست دول. أ خرج جميع هذه الأوراق وتصفحها. فعلى كل ورقة، اسمه بأحرف كبيرة. تلذذَ في تردد اسمه في كل منها. ثمة ما يكفي لاثبات هويته لدى ثلاثين جهة رسمية! ثم فكَّر: اذا كان كل ذلك مجرد حلم سخيف، وكل هذا حقيقة وواقع، فلمَ أشعر، إذن، بضرورة أن أثبت هذه الحقيقة لنفسي، وفي هذا الوقت الذي هو ليس بوقت مواتي؟ ربما ثمة

خلل. سخر من نفسه مجدداً: «تصرفاتي صبيانية!» كل شيء على ما يرام. طبعاً. أكثرت من الطعام، واستلقيت، فحلمت. إن الحلم هو بهتان، أما الله فهو الحقيقة.

الله؟ ـ الآن؟!إذن، ثمة خلل ما. فلو كان كل شيء على ما يرام، لكان، الآن، نائماً، أو على الأقل، مستلقياً. ولكان يعرف، بدقة، مَنْ هو وما هو؟ ولما كان مشوش التفكير، ولما جاب الغرف بثياب النوم منفوش الشعر، حافي القدمين على الأرضية الباردة، ولما دقق في الوثائق، ولما رأى نفسه، في المنام،قنصلاً يستجدي المساعدة، ولما وجد عزاءه في الأمثال وفي التفكير حتى بالاله، وما إلى ذلك.

لملم كل وثائقه وجمعها بين يديه وضمها إلى صدره، وكان يرتعد. توجه الى سريره وتسلّقه بعناء كبير، ثم استلقى حاضناً أوراقه. أبقى المصابيح مضاءة، واستسلم للنوم سوية مع وثائقه. وكانت «تفاحة آدم» ترتجف بين الفينة والفينة لمّا كان ينشج. بعد قليل، إنتظم نفسَهُ وغفا.

ومع انقضاء الليل ودنو الصباح، كان وجهه يكتسب، تدريجياً، ملامحه القديمة، وتعود إليه علائم الطمأنينة والوقار.

إمرأة من عاج

روى عليَّ صديق هذه الحكاية:

لقد اشتريتها من احد الباعة الصينيّن. كان يتذلّل بصفاقة ويغرِّد كالعصفور. وأذكر جيداً، أن الظلام كان يهبط، وانني أعدُّ الايام. كان ذلك اليوم ذاته، بداية الشهر السابع منذ أن أتيت إلى هذه المدينة الخانقة وأقمت فيها وحيداً وغير راض، فشعرت برغبة جامحة في أن أصل منزلي، بأسرع وقت، تاركاً هذا الشارع الغارق في ضباب خريفي، تعاودني فيه دائماً نفس الفكرة:ان جميع هؤلاء الناس سيتحولون، يوماً ما، الى هياكل عظمية. فلقد كان هذا الكم الهائل من الناس يموج ويصخب ويبطيء من سيري.

هكذا كنت أعود إلى منزلي كل مساء، مستاءً مثل استياء الشباب حين يعودون إلى بيوتهم في وقت مبكر. على انني شعرت تلك الأمسية بمزيد من الابتهاج، ولم يخطر ببالي أني وحيد. فقد كانت المرأة العاجية في جيبي.

عندما دخلتُ المنزل، كانت النار مطفأة، ورائحة الفحم تفسد جو الغرفة. ناديت الخادمة فلا من مجيب. أمسية من الأماسي التي يعاكسك فيها كل شيء: البرتقال جاف، خال من العصير أو يكاد، الخادمة سهت عن ملء ابريق الماء. فتذكرت المرأة التي في جيبي. أخرجتُها ووضعتُها على الطاولة تحت مصباح مضاء، فانتشرت الظلال على مواقع منها واستنارت

أخرى، وسطع كتفاها ووجنتاها، فبانت تبتسم. كانت منحوتة بمهارة، كسائر تماثيل الآلهة والتنانين والقرود، التي يبيعها الصينيون. وشعرت فجأة، بأن حالة الكآبة والمزاج العكر، قد بدأت تتخلى عني.

كنت أقرأ كتاباً وأنا مستلق في فراشي، وكنت بين الفينة والفينة، أتطلع الى هذا التمثال الصغير المضاء المتناسق، المنتصب داخل دائرة من نور تحت المصباح. قرأت مطولاً، حتى باتت الأسطر تتكسر وتتداخل. وظنّي أني سمعت سقوط الكتاب، ونويت إطفاء نور المصباح، لكنني تكاسلت. فقد كنت منهكاً، وبدت لي هذه العملية صعبة والمكان بعيداً. على أن أمراً وقع لي وشدّ كل انتباهي.

فمن نور رمادي، بدأت المرأة العاجية الصغيرة تنمو وتدنو مني، حتى أنها جلست جانبي على السرير. كانت تبتسم، ولم تلقِ أية تحية، وكأنها كانت هنا قبل هنيهة، فغادرت للحظة ثم عادت.

لم تكن دهشتي بالقدر المفترض. رفعتُ جسدي قليلاً واستندتُ الى الوسادة. أما هي،فقد بدأت تتكلم والابتسامة لم تفارق وجهها:

- كنتُ واثقة بأن هذا سوف يحصل، لا محالة. قضاء وقدر. أتدري ما كان ينتظرك لولا مجيئي اليك؟

بدأتُ ارتبك

تابعت المرأة كلامها:

- يا الهي! كم زمنٍ مضى، والبعاد فرّق بيننا، لم نتحادث والقلب يفيض بالكلامٍ. كنتُ اتلظى شوقاً لهذا اللقاء، وطال الانتظار، وكنتُ على يقين بأننا سوف نلتقي، وبأننا خلقنا

واحدنا للآخر.

- ولكن ...

- لا، لا تفُه بحرف. لقد كنتَ قاسي القلب. كيف استطعت أن تتلكأ طيلة هذه الفترة؟

- ولكن...

- ولكن كل شيء الآن على مـــا يرام، وكل شيء أصـــبح مشتركاً بيننا: الحياة والعمل والموت. الآن والى الأبد!

- ولكن!

لكن المرأة ازدادت تأججاً:

- أجل، منذ الآن، سوف نعيش معاً وسوف نَخلق معاً، وسوف نتعذب معاً.

وجدتني مرتبكاً وفي مأزق، ثم يائساً، فصحتُ بما لم أكن أنوي قوله:

- ولكن انتِ من عظم!

- ماذا؟ ماذا أنا؟!

وازدادت المرأة انفعالاً وعدوانية، وتحولتْ الى ثورة من غيظ وغضب.

- من أي شيء أنا؟!

- من عظم الفيل... أقصد، من..

زعقتْ كما يزعق جريح. فرفعتُ جسدي حتى صرت نصف جالس على السرير. فبدأتْ تعوِّل وتنوح:

– آه، لشدَّ ما أفسدك هذا العالم، ولشدَّ ما تبلَّد حسك! أنتَ لا تعرف الحب ولا العطف. إنك عاجز عن إسعاد أي كان.

أومأت برأسي دلالة الموافقة على ما قالت، علَّني أتخلص من هذا البلاء الذي لم اكن أتوقعه. لكنها لم تكن تنظر إليّ،

وإنما تابعتْ بانفعال:

ـ لهذا السبب، دون غيره، لا يمكنني تركك وحيداً. عليَّ أن أضحي بنفسي وأن أبقى الى جانبك، لأنك انسان سيء، انسان مريض. فمن واجبي أن أسهر عليك، كأم، كأخت، الى الأبد...

أدركتُ أن لا اخلاص ولا من معين، فاعتراني ذعر لم اعرفه من قبل، سوى في ما ندر من احلام. لقد كنت أدري مدى عجز الانسان ازاء غباء وانانية انسان آخر، عندما يكتسبان قالباً شجياً، محزناً، مهيباً، جليلاً. ورغم ذلك، أنهضتُ جسمي، وعزمتُ على إبعاد هذه البلوى عني بكل ما أوتيتُ من قوة. كانت قد بدأتْ تتكلم بسرعة كلاماً لا آخر له، وما عدتُ افهم شيئاً. وما أن تكرر عبارة «الأبدية» أو «سنبقى الى الأبد» حتى أغرق في هاوية رمادية، مرتعداً من الرعب، ملتجم اللسان. فطرأتْ بخاطري فكرةٌ أن أرميها خارج الغرفة، لكنني شعرت بأن أطرافي مشلولة. وبعد عناء نطقتُ ببضع كلمات.

تكلمتُ كانسان يكافح من أجل حياته. قلتُ لها، وجاء صوتي متقطعاً، بأنها دمية من عظم، وبأنني اشتريتها بدراهم كسبتها بعرق جبيني، وبأنها باتت عبئاً ثقيلاً على كاهلي. سخرتُ منها، فقلتُ لها بأنها مضحكة، بأنها صينية محنكة. وأخيراً، صرختُ في وجهها بملء حنجرتي:

ـ لقد أتيتِ من بلد بعيد، وظهرتِ فجأة في منزلي، وبدأت تفضِّين مشاعرك! ألمْ تجدي سواي لكي تنعمي عليه بخيرك؟ أتريدين أن تقتسمي معي أبديتك البلهاء، وأن تساعديني في عمل لا أكاد أقوى عليه بنفسي؟! إنصرفي حالاً، هيَّا إنصرفي!

لم أعد أذكر كل ما قلتُ لها، وأنا في تلك الحالة من الذعر.

لكنني أعي أنني كنتُ أنوي اهانتها حتى ترحل عني. أما هي، فقد كانت تُرنح رأسها دلالة الشفقة عليَّ، لم تتحرك من مكانها.

حاولتُ أن أنهض من فراشي، لكني لاحظتُ فجأة، انها بدأت تزداد نمواً واتساعاً. فعندما أصبحتُ لصق الحائط، وشعرتُ بأنها تضغط عليَّ، هممتُ بالفرار. لكنها كانت ما تني تزداد اتساعاً، حتى فقدتْ شكلها، وامتلأت الغرفة بدخان رمادي فاتر.

بدأتُ أعدو في أرجاء المنزل. كان الدخان قد ملأه وملأ كل الشوارع. ووجدتني لصق جدار قديم في نهاية المدينة، مذهولاً من الخوف، لاهثاً من العدْو. كان الدخان ينتشر بسرعة هائلة كأمواج البحروحمم البراكين، ويتقدم نحوي. شعرت بانقباض في صدري وعجز في اطرافي، فرفعتُ رأسي وجهة السماء، لكن السماء كانت محجوبة. سحب كثيفة من دخان ثقيل خانق، فوقي ومن حولي. انها الأبدية.

كنتُ خائرَ القوى لا أقوى حتى على الفرار. صرختُ صرخة اليائس، الصرخة الأخيرة، فبدأ الضباب يتبدد وينسحب، كأن معجزة قد حدثتْ، وظهرتْ لي دائرة من نور أخضر، من خلال الدخان المتبعثر. فاستيقظت.

فركتُ عينيَّ، وكنت لا أزال خائفاً مضطرباً. كنت أسمع دقات قلبي تضرب في رأسي. كان الهواء ثقيلاً، خانقاً، والعرق يتصبب من جسمي. نهضتُ. كانت المرأة من العاج ما تزال تحت المصباح الذي نسيتُ اطفاءه، وكانت أجزاء منها ظليلة، وسطوحها الملساء مضاءة تبتسم.

كان الخدر ينسلُّ في جسدي، ويداي ترتجفان. قبضتُ

عليـهـا وفـتـحتُ النافـذة. وبدا لي بأني لن أتخلص من هذا الكابوس مـا لم أسـمع تناثر حطامـهـا على حـجـارة الشـارع الصوانية.

سـاعة متأخـرة من ليلة من ليالي المدن، دون نجـوم، ظلام داكن رطب، وصمت مرعب كصمت المقابر. لوّحتُ بيدي وقذفت المرأة العاجية. بكل قوّتي، الى الشارع، وأصـخيتُ السـمع، بانتظار صوت تحطمـهـا وتناثر اجـزائها. فلم أسمع إلا دقـات قلبي وأنفاسي المتقطعة المتلاحقة. لم أسمع وقوع المرأة من العاج على الأرض. فعاد الخدر يدب في جسدي. إنتظرتُ لكن المرأة لم تقع. فتجمد شعر رأسي وبات يؤلمني. ألقيتُ نظرة على المصباح الهادىء وعلى الشارع المظلم، فلم أجد لها أثراً. أين هي يا تُرى؟ هل هنالك اشـبـاح يمسكون بخيوط هذه اللعبة الخفية؟ لم يدُم هذا الخاطر سوى لحظات، لأن حالة الوعي الجلي القديم، قد عادت إليّ في الحال: لا وجود للأشباح. ان كل ما يقع لنا، هو حقيقة كبرى، واحدة، لا شريك لها. كنت لا أزال أرتعـد، فـأغلقتُ النافـذة وجلستُ بجـانب المصبـاح وأخفضتُ رأسي، وكانت تشغلني فكرة واحدة: سوف التقي بها، في مكان ما، بكل تأكيد.

صدّقني، انني ما أزال أرتعد من فعل الشيطان في تلك الليلة...

لعبة القدمين

نهار دافئ مضيء، والبحر على امتداد البصر، وشجيرات الطمراق الخضر الشاحبة تزيّن هذا المنظر. وعلى شرفة مطعم كبير، صفٌ طويل من طاولات صغيرة مجللة بأغطية بيض، كان (لازار) جالساً الى احداها. والى طاولة تقابله، رجل وامرأة في ريعان الشباب، يقابل أحدهما الآخر. وكان (لازار) لا يرى من الفتى إلاّ وجهه، بينما لا يرى من الفتاة وهي الأقرب اليه، إلا ظهرها. كان يرى وجه الشاب في ومضات متباعدة، متى كان الشاب ينقل وجهه يمنة أو يسرة: وجه عريض حليق، وشعر أشقر طويل متدلٍ على الجانبين.أما الفتاة فهي في فستان هفهاف فضفاض زاهي اللون مخطط بالأحمر، شعرها كثٌّ يفيض بالحياة، وعنقها غض نحيف، وظهرها منتصب. الشباب بعينه وبكل إماراته.

لما ألقى نظرة تحت مسند الكرسي الخشبي، رأى ساقين عاريتين نضرتين قد لوحتهما الشمس، ورسغين ليسا بضامرين ولا بناتئين، في خفين رقيقين، تحت ظلال تنورتها الفضفاضة والكرسي الجالسة عليه. كل شيء عادي، باستثناء حركات رجليها الحيوية التي خطفت بصره. كانت الفتاة تنزع خفيها ثم تنتعلهما بصورة مستمرة. فتارة كانت تخرج قدمها اليمنى، وتارة قدمَها اليسرى، وتارة كلتيهما معاً، حتى تعود بعد لحظات، لتخبئهما في خفيها الرقيقين الحمراوين.

كان جسمها كله ساكناً أو يكاد. فلم تكن تحرك رأسها ولا كتفيها، ولم تكن تلوح بيديها أثناء الحديث. كانت تبدو وكأنها

لا تتكلم، أو أنهـا لا تتكلم إلاّ قليـلاً وبصـوت خـفـيض. لكن رجليها، وهما ليستا بكبيرتين ولا بصغيرتين، فلم تسكنا أبداً، ولم تدعا الخفين في هدوء قط.

كانت قدماها الحافيتان وخفاها الحمراوان في حركة مستمرة، كأربع دمىً في مسرح العرائس، يحركها مُخرجٌ بارع لا يُرى، يحركها بخيوط غير مرئية، وفق نص مجهول، على إيقاع موسيقى لا تُسمع. وكانت الأرضية وقوائم الكرسي الأربع التي تجللها من جوانب ثلاثة تنورتُها الحريرية الفضفاضة، بمثابة خشبة مسرح، تُؤدي عليها رقصةً رباعيةً لا يراها سوى (لازار) من مقعده. وبدا له أن هذه الفتاة غير مهتمة لا بالكلام ولا بالحب ولا بالمشاوير.. ان اهتمامها الوحيد منصب على لعبة قدميها.

إن حيوية جسدها الساكن كله، كائنةٌ، كما يبدو، في رجليها، وبالتحديد في قدميها. فقد كانت تنتعل خفيها للحظة، ثم تنزعهما على الفور، الواحد بعد الآخر، أو كليهما معاً. وكانت قدماها تقومان بحركات ايمائية عجيبة، لم يستطع (لازار) ادراك مراميها أو معرفة مغزاها. لقد كانت قدماها الحافيتان تحومان، كل على حدة، وكأنهما ترسمان فتمحيان على الفور، صوراً غريبة مبهمة، ثم تتلامسان وتتعانقان وتتداعبان، حتى إذا سئمتا هذه اللعبة الساذجة، انفصلتا وانبسطتا وتباعدت إحداهما عن الأخرى، لتعودا تتلاطمان بنزق مثل طفلين طائشين قد أسيئت تربيتهما.

وها هما قد انفصلتا ثانية وشرع باطنا القدمين يؤديان دورهما في هذه اللعبة. إنهما أملسان، مقعران، نضران، حِملُهما جسدٌ خفيف، لم يتكبدا عبئه زمناً طويلاً. لقد طفقا

يلتويان ويتواجهان، يضحكان ويعبسان، يتصعران ويتخددان.

ثم طرأ تبدل مفاجيء: لقد فقدت قدماها مسحة الجمال ونضارة الشباب، ولاحت عليهما، على حين غرة، علائم الهرم والبؤس، وصارتا تذكّران بقوائم الحيوانات، ومضتا تتبدلان وتمران، من خلال حركاتهما المستمرة، في جميع مراحل تطور الطبيعة، بدءاً بالاجناس الدنيا وانتهاءاً بالانسان. فمن زعنفتين إلى قائمتين لزاحف منقرض، لم يكتمل نموهما، فإلى كفّي حيوان ببراثن، ثم إلى قدمي انسان. لقد حصل ذلك كله، دون فواصل ودون ترتيب.. حصل كلمح البصر، باختصارٍ، وبتجاوزٍ للمراحل.

سكونٌ. إنتصبَ باطنا القدمين اللتين هدأتا الواحدة بجانب الأخرى، فبديا كمنحوتَتَيْن صلبتين أملستين.

وسرعان ما عادت القدمان إلى ما كانتا عليه، إذ أخذتا تجتازان مراحل تطور جديدة: لقد طفقت أصابع القدمين تضغط على الأرض بقوة، فقصر طولهما وضاع شكلهما وانحبس الدم فيهما. لقد باتت القدمان ذلك الجزء الأدنى من الجسد، الجزءَ العبدَ له، المستعبدَ من قبله، المحكومَ عليه بحَمْلِهِ وتحمل عبئه، وبعدم انفصاله عن الأرض إلا في حالة الوثب ولمدة لا تتجاوز لمح البصر، حتى يسقط على الأرض ثانيةً، معانياً ألم ارتطامه بها.

وتتتابعُ المراحل: القدمان تنفصلان عن الأرض التي تستعبدهما أصلاً.. تنفصلان بخفة وحيوية وتتطاولان ويتبدل لونهما. تشحبان. ترفرفان، للحظة، كأنهما جناحان لم يلامسا الأرض قط. تدبُّ فيهما الحياة، فتمسيان لينتين قادرتين على التعبير، كالأيدي الناعمة الطهورة السخية المداوية. كان ثمة ما

يدعو إلى الإقرار (أما هو فلا يدري لِمَ وكيف) بان عبيراً غير محدد الرائحة، كان يفوح من قدميها، عبيراً لا ينفثه جسد المرأة إلا أحياناً، وبقرب رجل تشتهيه.

لم يدم ذلك طويلاً، كأي فاصل لا بدّ منه للانتقال من لعبة إلى أخرى. فسرعان ما عاد الاضطراب إلى قدميها الحافيتين أصلاً، فأخذتا تُكنِّسان الأرض وتتقمصان دور ربة المنزل الساهرة على أشيائها. لقد سارعت الصبية في البحث عن خفيها فوجدتْهما. أدخلت قدمها اليمنى في الخف الأيسر والقدم اليسرى في الخف الأيمن، ثم تخلّت عن محاولتها. رفعت واحداً منهما بذروة الإبهام ووازنته لفترة. غير أن القدم الأخرى قد تدخلت بدون قصد، فرمته بعيداً، وشرعت هي نفسها بالبحث عنه وسحبه.

استمرت هذه اللعبة طويلاً، ولم يكن بالامكان التكهن لا بمدة استمرارها ولا بما سوف تؤول اليه، لا ولا بأدوار هاتين القدمين اللتين تلعبان لعبتَهما، لا لشيء سوى لإرضاء ذاتي، وذلك على خشبة مسرح متوارية عن أعين الناس باستثناء أعين (لازار)، هذا المشاهد الوحيد الذي جاء صدفةً ودونما سابق نيّة.

كان جسد الفتاة، طيلة الوقت ساكناً دون حراك. ولعل سلوكَها هذا دليل على حسن تربيتها. فلم تتحرك عضلةٌ واحدة من جسمها، ولا شعرةٌ من شعرها الغزير، لا ولا حواف ردائها الحريري الهفهاف. وكان الحديث الذي دار بينهما مكتوماً، أقرب الى الهمس، فلم تصل الى مسامع (لازار)، كلمة واحدة. لا شيء سوى القدمين اللتين كانتا تلعبان تحت الكرسي لعبتهما الغريبة الغامضة.

كان (لازار) يتناول وجبة طعامه ببطء وبدون اهتمام، وكان في تلك الاثناء يراقب، دون أن يلحظه أحد، لعبة القدمين التي لا يراها سواه، وكان يتحزر من خلالها كيف يبدو وجه تلك الصبية وما هو مضمون الحديث الذي يدور بينها وبين جليسها. (لما كان يرفع نظره ويلمح وجة الفتى للحظة، كان يرى فيه الهدوء والبهجة والبسمة تعلو شفتيه!) فهل أن لعبة قدميها ترافق مغزى كلماتها؟ أم أنها صدى لكلماته؟ أم أنها ليست هذا ولا ذاك وانما هي تعبير عما يدور في خلدها من أفكار وما تحبسه من مشاعر؟ أم أنها تعبير عن شيء لم تهتدِ إليه بعد؟ أم أن قدميها تلعبان لعبتهما إرضاءً لذاتهما غير مباليتين بما يدور بين الاثنين من حديث وما يختلج في صدرهما من مشاعر وما يخامرهما من أفكار؟

لم يجد جواباً. وفي إحدى اللحظات كفَّ عن متابعة المشهد تحت الكرسي، وألقى نظرة الى ساعته فارتعش. أدرك أنه سوف يتأخر على موعد انطلاق الباخرة إن لم يتحرك في الحال، فالتهم طعامه بسرعة وغادر المطعم باتجاه الشاطئ. وحينما مر بجانبهما لم يلتفت ولم يرَ وجه الفتاة صاحبة القدمين الطائشتين، التي لن يراها بعد ذلك، لا من الخلف ولا من الأمام.

لكنه لم ينسَ لعبة القدمين.

في الملعب

في مدينة غريبة وبين أناس غرباء، استهل لازار يوم عطلته الاسبوعية، فرحاً مبتهجاً، وكانت بداية تُبشِّر وتَعدِ بالكثير. كان يلهف الى الاسترخاء، بعيداً عن نفسه وعن كل ما يمتُّ إليه بصلة، فامتزج بسيل الناس المتدفق باتجاه ملعب المدينة. ما أجمل أن يقضي الانسان، من حين لآخر، في بلد اجنبي، بين غرباء، فترة ما بعد الظهر، في ملعب كبير، وأن يثار ويرتعش لأمر لا يهمه لا من قريب ولا من بعيد، وأن ينأى ولو لبضع ساعات عن واقع حياته ورتابة عمله وهمومه،.. واقعه الذي سيعود اليه منذ الغد، وسيكون في خدمته طيلة حياته.

كان يوم أحد، بعد الظهر، بمدينة صناعية بشمال ايطاليا، في مدرج رائع يعجُّ بالألوان والاصوات والحركات، يتألق ويهيج، نصفه مشمس ونصفه ظليل، خمسون ألف متفرج، تنسى فيه لساعات من أنت وأين توجد وماذا تبتغي؟ لا تشعر بمرور الوقت، لأن المباريات التي تجري حول الملعب وعلى العشب الأخضر، تملأ هذا الوقت الذي لا يقاس إلاّ بساعات التوقيت الدقيقة، حول أرساغ الحكام في لباسهم الابيض. ولا وجود للناس، لأنهم ينصهرون في بوتقة واحدة، في مدرج الملعب البيضوي، ولأن كلاً منهم، شأن حاله أيضاً، ينسى حياته الخاصة وينتقل الى واقع آخر. والنظرات تنطفئ والكلمات تتبعثر، لأنها لا تُحصى في هذا الموج اللامتناهي من

بريق العـيـون، وتلؤلؤ الأسنان، وصـراخ الحناجـر، وتلويح الأيدي، وصخب الضحك وضجيج الكلام والتصفيق وهتافات المؤيدين، وصدى ذلك كله تحت قبة السماء الزرقاء العالية التي لا يُضاهى جمالها.

الرجال يتابعون مجرى المباراة، تجرفهم الحماسة والنشوة، غير مبالين بما يجري حولهم. النساء أقل منهم اهتماماً بذلك. أما الجميلات منهن، الجميلات حقاً، فانهن يتصرفن وكأنهن لا يدرين بأن مباراة تجري في الملعب. إنهن، شأنهن في الحياة عموماً، لا يلاحظن ولا يقدّرن الأمور حق قدرها، إلا إذا كانت بخدمة جمالهن، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وبما يتطلبه الجمال ويبتغيه ويصبو اليه ويبحث عنه.فمركز كل شيء ومغزى ما يجري في الملعب، حتى أن سمْت السماء، بالنسبة لأي منهن، يكمن حيث تسيطر وتتألق تمجيداً لجمالها الذي لا يفنى.

كان الصخب والضجيج يصمان الآذان. فبدا للازار، للحظات، أن صمتاً كلياً قد خيَّم من حوله ..صمتاً صحراوياً دافئاً. لم يكن هذا الصمت يستمر أكثر من ثانية - ثانيتين، حتى يعود من جديد ذلك الهدير الراعد. وفي احدى لحظات الصمت تلك، سمع أول ما سمع، صوت انثى.. صوتاً غنياً خرج من أعماق الصدر ووصل إلى اذنه:

- غداً...غداً!

وفي نفس تلك اللحظة غاب الصوت في هدير الملعب. إنه لم يرَ صاحبة هذا الصوت الآتي من أحد الصفوف الخلفية، الموجَّه إلى شخص لا يعرف من هو، جالس بالقرب منه، في نفس الصف، بكل تأكيد:

ـ دوماني! ...دوماني!

من يستطيع معرفة ما يدور في خلد امرأة حين تقول:«غداً!...غداً!» ومن يستطيع معرفة من تخاطب؟ إن لازار لم يشأ أن يستدير ويكلف عينيه مشقة البحث عنها. ولو فعل ذلك، كيف سيعرف من تخاطب؟ إن كل ما يعرفه بأنه ليس المخاطَب، فهو مُستثنى من هذا «الغد». ولكن رغم ذلك، فقد أثير وانفعل، ولم يعد قادراً على متابعة المباراة على البساط الأخضر، ولا على ما يجري من حوله. حنى رأسه، وسمَّر نظرته في يديه المتشابكتين الراقدتين في حضنه، ورحل عن هذا الجو بكامله، وبات «يلوك» في داخله هذه الكلمة اليتيمة التي تكررت مرتين، والتي قد تعني كل شيء أو لا شيء البتة.

رحل عنه المزاج الطيب الذي بدأ به يوم عطلته، وغاب جو المباراة المرح، وكأن «تماساً كهربائياً» قطع نور النهار، والأمواج الصوتية. لقد كانت عبارة «الغد» بمثابة وشاح، لا يراه غيره، أسدل على المدرج الكبير وعلى كل ما يجري عليه. ثم تحول هذا الوشاح الى جدران، لا يراها إلاّ هو، جدران فولاذية لا تُخترق، حجبت عنه كل كلمة وكل صوت من حوله. لقد وجد نفسه، على حين غرة، في حالة ارتباك وفي صمت صحراوي، وحيداً مع «غد» ليس «غده»، كأي «غد»، يمكن ان يكون أو لا يكون.. وجد نفسه مع أفكاره. وعندما يُسلم لازار نفسه لأفكاره، فانه يتكلم مع نفسه، عن نفسه، كأنه يتكلم عن انسان آخر. هذا ما فعله الآن.

«غداً، غداً!» إن الانسان قادر على أمور كثيرة.. كثيرة بالفعل. وأنا أيضاً لست بعاجز عن ذلك. لكن نفس هذا الانسان،عندما يُسلم نفسه للنوم، لا يعرف ماذا سيحلم،

وعندما يستيقظ ويبدأ يوماً صبوحاً، لا يدري كيف سينتهي، ومن سيلتقي، وماذا سيسمع، وإلى أي عالم ستقوده الكلمة التي يسمعها. انه لا يعرف حتى هذه الامور البسيطة!

«غداً، غداً!» إن الانسان سعى الى صنع أدوات تساعده في تحقيق أهدافه وفي وقاية نفسه، صنعها من كل مادة، مستعيناً حتى بالطقوس السرية لمجرى الزمن. إلاّ أنه بات اليوم، يحمّل أمواجه المتقلّبة (اليوم أو غداً) كامل العبء: ما يريد تحقيقه في الحال، وما لا يريد تحقيقه أبداً.

كنت في عامي التاسع عشر، حينما سمعتُ مثل هذا الصوت الانثوي، يهمس في أذني: «اليوم لا! غداً..غداً!» مضى ذلك «اليوم» واتى «الغد»، لكن «الغد» المرتقب، حينها، بات، فجأة، وفق نفس القانون الذي كان ينظم علاقتنا: «يومي» و «يومها»،إذ كررتْ من جديد: «اليوم لا! غداً.. غداً!» وهكذا دواليك. لم يأتِ ذلك «الغد» المنشود، وبقي الزمن والحياة مدينين لي.

الآن، وعلى حين غرة، يصدحُ فمٌ لم أرَه، من مقعد في صف خلفي أعلى من صفي:«غداً.. غداً!» إن هذا الصوت غير المتوقع، وسط هذا الصخب المبهج وهذا الجو الصافي دون ظلال، قد أربكني لجزء من ثانية، وأخلَّ الجدول الزمني، ونبش الماضي وصالب «اليوم» و «غداً» من ذلك الزمن، مع ما سمعته منذ هنيهة («غداً،غداً!» ومزج بين ما كان ينبغي له أن يكون ولم يكن، وبين ما يمكن أن يكون ولن يكون. لا عجب! فليس ثمة حواس تقوم بوظائفها كساعة لا يخطئ نابضها، ووفق قوانين ثابتة. وحواسي لا تشذ عن القاعدة، لا سيما وأنها سكرى من تألق النهار، وجمال المشهد أمامها، ومن القوة المغنطيسية

الدافئة التي تشع من الجمهور المهتاج، والتي تحضنني كما تحضن سباحاً أمواج البحر.

حملتني تلك الصرخة ـ الانشودة «غداً» من مقعدي الحجري الى مكان بعيد، إلى مقعد آخر، كنت قد سمعتُ عليه، همساً: «غداً»، بل حملتني إلى أبعد من ذلك. فبدا لي أن شبابي كله قد لُخِّص في هذا الصوت. كانت الابواب التي كُتب عليها «غداً» موصدة باستمرار، أمام «يومنا» المقفر، وحيد النمط. ولم تكد شواربنا تنبت، حينما كان الآباء والمعلمون يحدثوننا عن أهمية وعظم «الغد» الذي ينتظرنا. كانوا يتكلمون عن هذا الأمر، وعلى وجوهم آيات الغم والجد، وكان صوتهم ينمُّ عن وعيد،لا أدري سبباً له، فصرنا نخشى وعودهم أكثر مما كنا نسعد بها. فمن أجل «الغد» العظيم، المجيد، كانوا يطالبوننا بأن نكون مُجدِّين، مطيعين، صبورين، متسامحين، «لأنكم ستخوضون الحياة اليوم أو غداً، والحياة..» اليوم أو غداً سوف تحتاجون الى كل ذلك. «اليوم أو غداً سوف تقفون على اقدامكم». وهَلُمَّ جراً. هكذا كان، على وجه التقريب، عندما «خضنا» الحياة.. هكذا، وعلى هذا المنوال: اليوم أو غداً! كَذِبٌ، أو ما شابه الكذب! فلا اليوم ولا غداً! ولا أي أثر لتلك الحياة المخطط لها والمضمونة، وفق الكتب المدرسية وأصول تعليم الدين التي تعطي أجوبة قصيرة على أسئلة أقصر منها. أما الحياة الفعلية، فانها تداهمك في لحظة، تنسى فيها أن لك رجْلَيْن يمكنك الوقوف عليهما، ولا تجد مكاناً تقف فيه. لقد كَذبَ «اليوم» وتخلّى عنك «الغد» إِنْسَ كل ذلك. عليك أن تخلق من جديد «يومك» و «غدك» بعرق جبينك وبعقلك وبساعدك، وأن تدفع غالياً ثمن ذلك: جهداً وتشرداً وذعراً وخجلاً، حتى ترى

عيناك بداية الطريق الصحيح ونور الأفق. عندها تشعر، بعد أن خُدعتَ وتعذبتَ، ببعض كرامة وسلام وحرية، فتستطيع أن تتنفس الصعداء، وأن تستريح، كما يستريح تائه في واحة صحراء الزمن التي لا اسم لها.. أن تستريح قليلاً عند الخط الذي يفصل ويصل ما بين «اليوم » و «الغد» اللذين كان يُحدِّثنا عنهما آباؤنا واساتذتنا. فعليك أن تجتاز كافة الامتحانات من جديد، وأن تمارس أعمالاً لم يهيؤك لها، وأن تلمَّ بأمور لم يعلموك إياها. فعليك أن تكافح في سبيل صيانة نفسك من «يومك» واحراز «غدك» المبهم، حتى تستطيع، بقدر أو بآخر، أن تحيا كانسان بين الناس.

لقد جعلني ذلك، أكره الى الأبد، ان جاز القول، هذه الكلمة ذات الوجهين ولعبتها الكاذبة: اليوم أو غداً.

ولكن أنّى للانسان أن يتقي شر هذه الكلمات، التي طالما ظن انها احترقت وصارت رماداً، وانه تحرر منها مرة والى الابد، فإذ بها تنغّصُ علينا، ولو للحظات، يوماً من أجمل الأيام، بمجرد سماعها بطريق الصدفة؟

في البحث عن جواب على هذا السؤال وعلى أسئلة مماثلة، أمضي لازار، النهاية الكئيبة لذلك اليوم الذي بدأ مفرحاً ووعد بالكثير.

بايرون في شِنْتَرَة *

في اثناء الطريق الى شِنْتَرَة، تشاحن بايرون مع صحبه، لأنهم لم يتفقوا حول الطريق الذي سيسلكونه عند العودة. ومما كان يُغضبه شديد الغضب، هو ما يقرأه، في مثل هذه الحالات، في عيون خدمه. كان خدمه، دوماً ضد رأيه، والى جانب رأي خصمه.

فما أن اجتازوا بوابة الحديقة، حتى انفصل عن صحبه. كان يوم أحد. اصوات موسيقى تأتي من مكان ما. أراد أن ينفِّس عن غضبه، فصعد الدرج راكضاً، مع أنه أعرج، ونسي أنه يبدو مضحكاً عندما يركض. فلقد كانت إحدى رجْليه أقصر من الأخرى. انفتحت أمامه مشاهد جديدة وطرقاً جديدة وأفقاً واسعاً للغاية: إثنا عشر ميلاً من أرض منبسطة خضراء يحدها بحر وسماء لا نهاية لها. لم يشعر بالتعب، ولا بأنه يصعد، وانما كان يشعر بأنه ينمو. لم يكن هناك مخلوق حي. حتى الطيور لا أثر لها. فكَّر: أخيراً، وجدت بلداً، تكون فيه الوحدة مبهجة!

التقى وهو يشق هذه الدروب المحفورة في الاسوار، والمطلة على الحدائق البعيدة وعلى البحر الأبعد منها، إلتقى، على حين غرّة، بُنيَّة يصعب تحديد عمرها.كانت واقفة على حافة السور،

---

*بلدة في جنوب غربي البرتغال، تبعد حوالي عشرين كيلومترا" عن ليشبونة. وهي منتزه وموقع أثري يؤمه السواح. (المترجم).

بالقرب من موقع حراسة، حجري، صغير، مهجور. بزغت أمامه، على حين غفلة، وكأنها مرسلة من جهة ما.. من قبل شخص ما، لتنقل رسالة. كانت ترتدي ثوباً من كتان أبيض، وجهها شبه افريقي أسمر، أنف صغير واسع المنخرين، يسبغ على هذا الوجه طابع العفوية، وعينان تشعان بالذكاء والعافية والفرح. حيَّتهُ بكلمات غير مفهومة، بخجل وبصوت خفيض، عبَّر الى جانب حركاتها عن أكثر من تحية عادية لم يستطع معرفة ما هو. ردَّ على التحية وتوقَّف. توقَّفتْ هي ايضاً. تمايلتْ برقة، ونظرتْ مباشرة في عينيه وهي تبتسم، وندَّت بلسانها شفتيها الجافتين دائماً. لا يوجد في هذه الدنيا ما يمكن إثارتك، أكثر من شفاه البرتغاليات! ففي شفاههن شيء من عالم النبات، وشيء من عالم الجماد.

إن عدم اتساق شفتيها اللتين تشبهان فلقتي ثمرة، إنفلقتْ بالصدفة، اعلانٌ صارخٌ عن الدم القاني الذي يفور في عروق هذا الجسد الصغير اليانع. وعند نهايتهما فقط، ترتسمان ببعض عناية، كشفاه نساء القفقاس، ثم تضيعان عند الزاويتين تماما، في ظل غير محدد، كإبط ورق النبات. فكرَ: من المؤكد أنني أبدو مضحكا وغير واثق من نفسي، مثل انسان غامض النوايا. فحاول بكل ما أوتي من قوة أن يظهر بمظهر الانسان الساذج غير المتكلف. (قلت: بكل ما أوتي من قوة، اذا لم يزل قادرا على التحكم بقواه) كان يلتهب في داخله. وتراءى له: إن كل ما كان يبحث عنه طيلة حياته قد وجده اليوم على هذه الرابية الخضراء، بل وجد أكثر مما كان يبحث عنه، وان قوى الشر المجهولة التي طردته من انكلترة، وشردته في انحاء العالم، قد جاءت به الى هذا المكان وفق خطة.

وعمل خياله المضطرب من جراء هواء المرتفعات، وقرب الفتاة منه، وحلق بسرعة جنونية فوق هاويتين: هاوية من صخور رمادية وسفوح خضراء، وأخرى، من كل ما هو ممنوع وغير ممكن: عطشه الأبدي. فلقد أثار هذا المخلوق الصغير في أعماق بايرون، رؤى كالبرق في سرعتها، مثلما تؤجج نار، نسي الرعاة اطفاءها، حريقا هائلا في غابة... رؤى وعدته، لأول مرة في حياته، بكل ما تعد الأحلام، وبما لا تهبه النساء قط، وبما تسلبه الحياة باستمرار. لقد سبر ذلك كله كيانه، وامتزج بدمه الذي كان يغلي.

لكنه لجم، فورا، جميع رغباته، وشمل هذا المخلوق البشري الحي المبتسم، بفكرة جديدة، طليقة، منيرة، فكرة ملأت كيانه خجلا وذهولا لا متناهيين، وجلالا بغير حدود، لشخصية الانسان، أقدس ما في الوجود.

كان طيلة هذا الوقت يراوح في مكانه، أو كان يطوف حول الصبية الصغيرة، التي كانت تدور حول نفسها مع طوافه حولها، فلم تحد عيناها عن عينيه، بل وكانت أثناء ذلك تراقب كل حركة من حركاته. نطق بايرون ببضع كلمات متقطعة، ونطقت هي ايضا ببعض كلمات. وكانا يتبادلان النظرات ويحومان كحيوانين مفترسين، صغير وكبير، يتشامان ويتراصدان، قبل بدء اللعبة الخبيثة التي تتناوب فيها المداعبة والاغاظة. وبينما كان يحوم حولها، مفتونا مسحورا، كانت حواسه تعمل بكامل قواها وبأقصى سرعتها. بَهَرَهُ بياضُ عينيها الناصع الذي لا تراه إلا في عيون الفتيات البدائيات، وداعب بَصرَهُ البؤبؤان المتألقان كحجري توپاز. واشتم، عن بعد، عبيرَ جسدها الأسمر وشعرها الجاف، ورائحة ثوبها

الكتاني الأبيض الذي ازداد نصاعة تحت أشعة الشمس. اشتم كلا منهما على حده. كان يزداد نموا، وكانت كل حاسة من حواسه، تعيش بمعزل عن الأخرى، حياة مكثفة، مما يعني ارتقاء شخصيته ونهايتها في آن واحد. فباستطاعته الآن أن يقول، بأنه بات يعرف ما هي اللحظة الحقيقية للنشوة والسلوان! غير أن هذه اللحظات نادرة في الجحيم الذي هو في الواقع، حياة المنغمسين في الشهوات، بل هي واحات غير متوقعة، لا وجود فيها لمحطات توقف أو انتظار.

في هذه اللحظة، تواردت الى مسامع بايرون أصوات من تحت، من خلال الشجيرات الكثيفة التي ضاع الدرب فيها. فأرتعد وكأنه استيقظ، وواصل عدوه، صاعدا الدرب، تاركا الصبية المشدوهة، دون أن يودعها.

عدا وقتا طويلا في الدروب الضيقة بين منحدرات التلال، حتى أوصلته هذه الممرات والمنحدرات الحادة الهبوط الى القصر. وكان صحبه بانتظاره على المقاعد الحجرية.

عادوا الى لشبونة، سالكين نفس طريق المجيء، كما اقترح الصحب، الأمر الذي كان بايرون يعارضه من قبل أشد المعارضة. أما الآن فلم ينبس بكلمة. كان هادئا كحمل، لطيفا في تعامله، ليس مع البشر وحسب، بل ومع الأشياء أيضاً.

في الأيام التي تلت، عاش بايرون أهدأ وأجمل حلم في حياته. وكانت صيادات السمك اللشبونيات الحافيات الأقدام، يهزأن منه لما يصادفنه على شاطئ البحر يتكلم مع نفسه، وكن يعتبرنه مجنونا.

لكنهن لم يكن على حق. لأنه لم يكن وحيدا، ولا كان يتحدث مع الاشباح. كان يتكلم مع آدمي يعيش في شنترة، وهو من

لحم ودم، له قلب وعينان، وله،بالتأكيد أبوان ومنزل، وله أسم. ولكن ما أهمية ذلك؟ فكر في أن يطلق عليها أسم ثمرة من ثمار الفواكه، أو حجر من الحجارة الكريمة، ثم عدل عن هذه الفكرة، خشية أن يعني ذلك تقليلاً من قدرها أو غبنا لها. فلقد تعود أن يسميها في ذهنه «المخلوق الصغير»، لكنه لم يكن ينطق بهذه العبارة. كان كل شيء ينتهي عند نَفَس واحد قصير، خلف شفتين مطبقتين، نَفَس لا يلامس إلا الحلق، ومع ذلك، كان كافيا لتجسيدها بالكامل. كان بايرون يستوقف هذا النفس ويغار عليه، ويحتفظ به في ذاته كنكهة لذيذة.

بعد فترة، غادر بايرون لشبونة، ثم البرتغال. جاب العديد من البلاد، وكان يتكلم مع الناس ويمازح النساء، لكنه لم يفضِ بسره. كان يدفنه بين العبارات والاشياء والشخوص، ويتلذذَ به، دون أن يبوح حتى بالقليل منه. كان أثناء حديثه مع الآخرين، يلمح اليها ببعض الكلمات، وحين يرددها أحدهم أمامه،كان يتمتع بحضورها دون أن يلحظه أحد. وكان توقيعه يشتمل على رسم لا يكاد يلحظ، يرمز الى تلك الصبية من شنترة. وكان الليمون والملح والزيت ونبيذ المزي[1] رموزاً لها.

كان بامكانه دعوة شنترة الخضراء و«مخلوقها الصغير» الى مأدبة غداء يحضرها نحو عشرين شخصا، بأن يفرك بين ابهام وسبابة يده، ذرتين من الملح، دون أن يثير الانتباه. لكن أثرها كان يختفي، اكثر ما يختفي، في وجوه النساء وفي أحاديثهن وحركاتهن.

لقد أشفاه التماس معها عبر ذاكرته، وأبعده عن جميع اللقاءات وعن معاشرة النساء.. أبعده عن الحياة ذاتها. ففي

(١) نبيذ يوناني، حلو، عطري الرائحة، يخمر في شبه جزيرة مروة. (المترجم)

لحظات سعادة خارقة، في وقت الغسق المخيم على عرض البحر، حدثت معجزة، حقيقية، لا يمكن تفسيرها ولا وصفها: إن تلك الهضبة الخضراء في شنترة قد ذابت في نور سماوي لا حدود له، كما ارتقى عَدْوُهُ الأعرج الى طيران مستمر دون حفيف، وآلت حمى اللقاء التي أصابت حواسه، الى مأثرة روحية طهورة، لا حدود لها، خالية من كل عذاب، بما في ذلك عذاب الضمير. استمرت هذه الحال زهاء سنة، ثم بدأ «المخلوق الصغير» يخفت نوره ويشحب لونه، كرؤيا في حلم عند الفجر، وبدأ يفقد تأثيره بالتدريج. فشعر بايرون بالتيتم واليأس والعجز، وعادت النزعة الشريرة تقوده...

تكررت اللقاءات المقرفة الداعية الى الغثيان. وكل ما تلا، كان أصعب واكثر ألما مما عاناه قبل مغامرته في شنترة. فقد أتضح له الآن، أن قوانين الحياة، قوانينها القاسية، العاتية، تتحكم حتى بملكوت الخيال. فلا مفر منها ولا خلاص.

حديث مع غويا

يوم دافئ هادئ،أرخى أولى ظلال الأصيل على الطريق. كنت على بعد عشرين كيلومترا من مدينة بوردو. وحين مررت في «كروا دي وان»، لفت نظري على الجانب الأيمن للطريق منظر الأعمدة الشاهقة لمحطات البرق اللاسلكي... أبراج معدنية كشباك العنكبوت، ناعمة مثل الدانتيل، عتيدة كالمدن.

أثناء الطريق كنت أفكر باستمرار، بالشبه بين ابراج الكاتدرائيات من قديم الزمان، وبين هذه الأبراج الفولاذية للبرق اللاسلكي. ثمة من يخدم هذه الأبراج باستمرار، مثلما يخدم الكهنة معابدهم. وتضيئها مصابيح حمراء أو خضراء (تحذيرا للطائرات) شبيهة بالشموع والقناديل في الكنائس. على أن ابراج البرق قد شيُّدت على أساس عقلاني، لكي تكون بخدمة هدف عملي محددٍ واضح، بينما باتت أبراج الكنائس اليوم، مجرد كماليات ورمز. أفلم تُشيّد، يا ترى، أبراج الكنائس، فيما مضى، لضرورة ما وعلى أساس عقلاني؟ لكن هذا الأساس العقلاني قد إرتحل، وضاع الهدف وصار منسيا.

رافقتني فكرة التشابه هذه ولم تتخلَ عني لحظة واحدة طيلة الطريق. وترابط في ذهني، ترابطا واضحا ومقنعا، ما ندعوه بالقريب وما ندعوه بالبعيد، و «بالممكن» و «اللاممكن». ولئن لم يُفارق عيني منظر هذه الكنائس العصرية، التي تحدث فيها العجائب كل لحظة، فقد شعرت أن فكري وخيالي قادران

على سبر الزمن الماضي واحياء موتاه.

فلقد استحوذت على تفكيري، قبيل المساء، إذ وجدتني جالسا في مقهى بإحدى ضواحي مدينة النبيذ الكبيرة، وكنت منهكا من طول تجوالي فيها، هذه الكاتدرائيات المعاصرة، الضخمة، غير المنجزة تماما، التي شاهدتها في أصيل هذا اليوم في «كروا دي وان». إن لجميع مدن الدنيا أريافا ما تزال مجاريها بدائية، وطرقها المزفّتة نادرة، وشوارعها تحمل أسماء شعراء وأطباء محليين لم يسمع بهم أحد خارج هذه الضواحي. ففي هذه الأحياء التي ما تزال في طور النشوء ولم تكتمل ولم تتخذ شكلها النهائي بعد، تسرح الأفكار حرة، طليقة، وهذا ما يلائم غريبا ينشد الراحة والتأمل.

بالقرب من المقهى وعلى فسحة واسعة، جانب المواد المتبقية من اعمال البناء الأخيرة، كانت تنصب خيمة سيرك، وتُسمع ضربات المطارق واصوات العمال، وبين الفينة والفينة عواء ضبع أو زئير السباع في اقفاصها.

إن هذه المقاهي الصغيرة هي بسيطة الأثاث وبدون زخارف، متشابهة، ولا تواكب العصر. ولقد إعتادت أجيال وأجيال من رواد هذه المقاهي، على منظر الطاولات والمقاعد، وعلى شكل القوارير الزجاجية واسعة الفوهات والكؤوس من الزجاج المضبب، وعلى هيئات أصحاب المقاهي المشمرين عن زنودهم، وعلى أزرهم النيلية. ففي إطار هذه الصورة، يمكنك إستحضار الأشخاص والأزياء والعادات من مختلف الأزمان، دون أي إخلال بالصورة ودون مفارقات تاريخية قد تؤذي المشهد أو تجعله غير قابل للتصديق.

– وهو كذلك...

قال هذه العبارة رجل كان يجلس قبالتي، مؤيدا أفكاري، وكأنني أفصحت عنها بصوت عال. رجل مسن، صوته أبح خفيض، متدثر بعباءة خضراء داكنة غريبة الزي، وعلى رأسه قبعة سوداء يتدلى من تحتها شعر أبيض متفرق، وعيناه متعبتان لكنهما ما تزالان تشعان بالحياة. كان يجلس قبالتي الدون فرانسيسكو دي غويا لوسينتس، الرسام الأول الأسبق للقصر الإسباني، الذي استقر في بوردو منذ ١٨١٩ .

- إي نعم...

واصلنا الحديث الذي كان في الواقع حواراً أحادياً لغوياً حول نفسه وحول الفن وحول قضايا عامة تخص مصير البشرية.

فإذا بدا لكم هذا الحوار، للوهلة الأولى، مفككاً وغير مترابط، فكونوا علي يقين بأنه ينطوي على تلاحم داخلي، تربط بين اسديته حياةُ غويا ولوحاتُه.

- إي نعم أيها السيد! إن البيئة البسيطة والفقيرة هي مسرح العجائب والأمور الكبيرة. فالمعابد والقصور الغارقة في عظمتها ورونقها، ليست في الحقيقة إلا احتراق ما كان يشتعل وإزهار ما كان ينبت، في ظل البساطة والفقر. ففي البساطة تكمن بزرة المستقبل، وفي الجمال والبريق يكمن الأفول والموت. لكن البشر بحاجة الى البريق والى البساطة على حد سواء. إنهما وجهان للحياة، يتعذر إدراكهما معا. فعندما ينظر المرء الى أحدهما، لا بد أن يفقد الآخر من مجال النظر. ومن وُهب القدرة على رؤيتهما معاً، يصعب عليه، إذ يرى أحد الوجهين، أن يتناسى الوجه الآخر.

أنا شخصيا، كنت في أعمق أعماقي، الى جانب البساطة،

الى جانب الحياة الحرة والصعبة، الخالية من البريق والشكليات. وبصرف النظر عما جاء على لسان الناس، وعما كان يجول في رأسي من خواطر، وعما كان يبدر عني من كلام، في وقت ما، في عنفوان الشباب، فهذا ما كان، وهكذا أنا، وهكذا هي «أراغون» التي أنبتتني.

كنت استمع الى حديثه، ونظري لا يحيد عن يده اليمنى المستلقية على الطاولة، ككائن منفصل يعيش بذاته، يد عجيبة مثل جذر سحري، مثل تميمة، يد رمادية مليئة بالعقد، قوية، جافة كأكمة في صحراء. إن هذه اليد تحيا حياة حجر غير مرئية. إنها ليست يدا للمصافحة أو للمداعبة، أو للأخذ أو العطاء. إنها يدٌ لا يجري فيها دم وإنما مادة أخرى لا تعرف خواصها. ويتساءل المرء مذعوراً إذ ينظر إليها: هل كانت هذه اليد يد إنسان؟

لم أستطع طيلة الفترة التي استغرقها حديثه، أن أغض الطرف عن يده المستلقية بسكون على الطاولة، كبرهان محسوس على صحة ما يبوح به الشيخ بصوته الأبح الصادر من اعماق صدره، الذي كان يصل على دفعات الى حنجرته، كلهب يأبى الخمود والإختباء.

وهكذا واصل حديثه عن الفن وعن الناس وعن نفسه، متنقلا بين موضوع وآخر، براحة ودون تكلف، بعد فترة صمت وجيزة، لم أقطعها إلا بنظرة تنمّ عن سؤال، إذ كنت أخشى أن تتبدد صورته ويغيب فجأة، كما تغيب الأطياف.

- لاحِظْ! إن الفنان هو «شخص مشبوه»، إنسان مقنَّع في وقت الغسق، مسافر يحمل جواز سفر مزوراً. الإنسان المقنَّع صورة رائعة، مكانته أرفع بكثير مما هو مكتوب في جواز

سفره. ولكن ما أهمية ذلك؟ إن الناس لا يرتاحون لهذا الإبهام ولهذا التحجب. ولهذا السبب يدعون الفنان شخصا مشبوها، منافقا، مرائياً. ومتى وُلِد الشك، فإنه يستفحل ولا يعرف الحدود. وحتى ولو استطاع الفنان، بشكل أو بآخر، أن يكشف للناس عن شخصيته الحقيقية ولقبه الفعلي، فمن سيصدق أن كلمته هذه هي كلمته الأخيرة؟ وفيما إذا أبرز جواز سفره الحقيقي، فمن سيصدق أن ليس في جيبه جواز سفر ثانٍ وثالث؟ وفيما إذا نزع قناعه، رغبة منه في أن يبتسم ابتسامةً صادقة وان يطل بنظرة حقيقية، سوف يوجد من يطالبه بأن يكون صادقاً وأميناً بمنتهى الصدق والأمانة وبأن ينزع هذا القناع الأخير الذي يشبه شبها كبيرا وجهاً بشرياً. إن مصير الفنان، كما ترى، هو أن ينتقل من حالة نفاق إلى أخرى، وأن يجمع ما بين التناقضات. فمن يتيسر له إخفاء ذلك بقدر أو بآخر، فإنه ينعم بهدوء وسعادة، مع أنه يعيش صراعاً داخلياً مستمراً من أجل الجمع بين حدين لا يمكن لهما أن يجتمعا البتة.

أثناء إقامتي في روما، قال لي صاحب (هو رسام صوفي الميول) في إحدى المناسبات إن بين الفنان والمجتمع بوناً هو نفس البون الكائن بين العالمين الإلهي والأرضي، ولكن على نحو مصغر، وأن البون الأول انما هو رمز للثاني، ليس إلا.

لاحِظْ! هذه هي طريقة تعبيره. ومع أنه يمكن التعبير عن الحقيقة بطرق شتى، لكن الحقيقة واحدة وأثرية.

هكذا عبَّر «پاولو» عن فكرتنا المشتركة، مستخدما صورة خيالية.

وأسائل نفسي أحيانا: ماذا هو هذا اللقب؟ (إنه لقب حقا.

وإلا كيف تسنى له أن يملأ حياة إنسان بكاملها، وأن يجلب له كماً هائلاً من الرضا والعذاب؟) وما هي هذه النزعة النهمة التي لا تقاوم، والتي تدفعك لأن تسلب من ظلمات اللاوجود أو من ذاك السجن الكبير الذي يكوّنه ترابط كل ما في الحياة... أن تسلب من ذلك العدم ومن تلك الأغلال، قطعة تلو القطعة من الحياة ومن حلم الإنسان لكي تعطيها شكلا تثبته «الى الابد» بتمرير طبشورة هشة على ورقة عابرة؟

ما قيمة بضعة آلاف من الأيدي والعيون والأدمغة، مقارنة بالملكوت الذي لا حدود له، الذي ننهش منه إرباً صغيرة بجهد غريزي متواصل؟ ومع هذا، فإن هذا الجهد، الذي يبدو لمعظم الناس، مسعوراً وغير مجدٍ، يحتوي على قدر من الإصرار الغريزي الهائل الكائن لدى النمل عندما تنشىء كثيبها على قارعة الطريق. إن قدره محتوم سلفاً: سوف يداس وينهار.

في هذا العمل المضني اللعين، والممتع الى حد لا يضاهى، ندرك ادراكا واضحاً بأننا نسلب من مكان ما، نسرق من عالم مظلم، لنعطي ما سرقناه لعالم آخر لا نعرفه، لننقل من اللاشيء شيئاً لا ندري ما هو. لهذا السبب يُعتبر الفنان «خارجا على القانون» ومرتداً من الدرجة الأولى، حكم عليه ببذل جهدٍ يفوق طاقة البشر، جهدٍ ميئوس منه، لكي يُكمل صفاً أعلى غير مرئي، مُخلاً بالصف الأدنى المرئي الذي يُفترض أن يعيش فيه بكل كيانه.

إننا نخلق أشكالاً وكأننا طبيعة ثانية. نوقف الصبا، ونجمد نظرة، تكون قد تبدلت أو إنطفأت في «الطبيعة» بعد دقائق. إننا نلتقط ونعزل حركات سريعة كلمح البصر، لا يمكن لأحد أن يراها، وندعها، بكل ما تنطوي عليه من معان مستترة، لكي

تراها أعين الأجيال القادمة. وليس هذا وحسب. إننا نعزز كل حركة وكل نظرة، تعزيزاً لا يكاد يُلحظ، بخط أو بلون. إننا لا نبالغ ولا نزيف ولا نبدل جوهر الظاهرة عندما نعرضها، وانما نرفقها ببرهان دامغ، دائم، لا يُلحظ، على أن هذه الظاهرة قد حدثت للمرة الثانية، من أجل حياة أطول وأهم، وعلى أن المعجزة قد حدثت في ذاتنا نحن. ففي هذا الفائض الذي ينطوي عليه كل عمل فني، كأثر للتعاون الخفي بين الطبيعة والفنان، يلوح المنشأ الشيطاني للفن. ثمة أسطورة تحكي بأن المسيح الدجّال عندما يجيء الى الأرض، سيخلق كل ما خلقه الرب، ولكن بمزيد من المهارة والكمال. فنحله لا يلدغ، وأزهاره لا تذبل بنفس السرعة التي تذبل بها في طبيعتنا. وعلى هذا النحو سيغري الشرهين والطماعين وضعيفي الإيمان. قد يكون الفنان هو البشير بالمسيح الدجّال. أو لعلّ الآلاف منا «تلعب دور المسيح الدجّال»، كما يتلهى الأطفال بألعاب الحرب في وقت السلام.

إذا كان الإله قد خلق الأشكال ورسّخها، فإن الفنان هو الذي يخلقها لحسابه ويثبتها من جديد. إنه مزيِّف، مزيِّف غير مكترث بالفطرة. ولهذا السبب فهو خطر. وهكذا يخلق الفنان ظواهر جديدة، متشابهة، لكنها ليست نسخا عن بعضها البعض، وعوالم مخادعة تتملاها أعين البشر بمتعة وزهو، وما أن تقترب منها حتى تسقط من خلالها في هاوية العدم.

هذه هي نظرية «پاولو»، وهو إيطالي في عروقه يجري دم سلافي. إذن ينبغي أن تكون ميالا الى التخيل والصوفية كما كان هو، لكي تستطيع التعبير بطريقته. وقد استحوذ على انتباهي، أن أحداً يستطيع أن يخلق عوالم ويلاشيها، فوق

وتحت المستوى الذي يعيش فيه. فأنا، كما أنا عليه، وأنا من عجينة مختلفة، لم أستطع أبداً سبر عالم مشاعره وطريقة تعبيره. لانني كنت آنذاك أيضاً، أشعر كما أشعر الآن، بأن كل ما هو موجود، هو الواقع الوحيد الذي لا واقع غيره، وان غرائزنا وردود فعل حواسنا، تجعلنا نرى في الظواهر المتعددة التي يتجلى فيها هذا الواقع، عوالم منفصلة، مختلفة من حيث ملامحها وجوهرها. لا شيء من ذلك كله. ثمة واقع واحد، له، بدون شك قوانين ثابتة على الدوام، لا نعرفها الا جزئياً، خاضعة لمد وجزر أبديين.

لو أردت أن ارتكب خطأً، بأن أستبدل بشكل إعتباطي الأسباب بالنتائج، لاستطعت إيجاد براهين جديدة وذات اهمية لنظرية «پاولو» حول تسمية الفنان - الخلاق بالمسيح الدجّال. إلا أنني لا استخلص من هذه الحقائق استنتاجات مشابهة لاستنتاجاته. وبالاحرى، أنا لا أكوّن أية إستنتاجات، بل أرى الحقائق. لقد قال «پاولو»: الفنان هو لعين، لأنه كيت وكيت. إنني أقتصر على القول بأن الفنان هو كيت وكيت. وهنا أتفق معه كليةً.

- ...

- كانت هناك، بنيّة صغيرة تعيش مع أمها في منزلي، تدعى «روساريتو». (عندما ذكر إسمها، خفض نظرته الحادة، ومرَّ حول أهدابه المطبقة ما يشبه الضباب) ذات يوم، وكانت في الخامسة من عمرها، سمعتُ حديثا دار بينها وبين صبي، لم تمض إلا أيام معدودة على دخوله المدرسة، فكان يتباهى أمام البنيّة بمعارفه الجديدة:

- أتعرفين من خلق البشر؟

ـ البشر؟ العم فرانسيسكو.

أجابت الطفلة وهي تشير الى لوحاتي، صور أشخاص في مرسمي.

أما الصبي فقد استمر في تباهيه وهو يتلعثم:

ـ الله.. الله هو خالق البشر.

لكن نظره لم يحد عن اللوحات التي كانت الطفلة تشير اليها الواحدة بعد الاخرى، مركزة على الوجوه المرسومة عليها، مكررة عند كل وجه بإعتزاز:

ـ العم فرانسيسكو... العم فرانسيسكو.

كانت أصوات البوق والطبل تعلو من السيرك المجاور للمقهى. فتوقف الشيخ عن الكلام برهة من الزمن، وأصغى السمع، ولم تبدُ عنه بادرة تأفف أو إمتعاض. غابت الأصوات إلا صوت بوق ناعم. فتابع العجوز حديثه بصوت خفيض:

ـ إن السيرك في نظري هو أليق أشكال المسرح. إنه يمثل الحد الأدنى للبؤس في هذا الشقاء الهائل. إن الظهور أمام الجمهور ينطوي على أشياء محرمة ومخجلة. ففي أيام الشباب كنت كثيراً ما أحلم بأنني أُمَثِّلُ دورا على خشبة المسرح، أمام جمهور غفير صارم، وكنت أتساءل مذعوراً، كيف صعدت على خشبة المسرح دون دعوة ودون تحضير مسبق. كان علي أن أُمَثِّلَ دورا لم أقرأه من قبل ولا أعرف كلمة واحدة منه.

يستحيل عليّ وصف العذاب الذي كنت أعانيه أثناء الحلم. وقد تكرر الحلم نفسه مرات ومرات.

كنت أثناء حياتي على اتصال بالمسرح والممثلين. وكنت في كل مناسبة ازداد قناعة بأن المسرح هو أعقم الجهود التي نبذلها. ومن خلال تماسي بالمسرح والممثلين كان صدري

يجيش بمشاعر اليأس والعبث وأتساءل: أليست تفاهة المسرح مجرد صورة لما ينتظر جميع البراعات آجلا أم عاجلا؟ عندما أرى قرص عسل مصنوعا من «الكرتون» ومرسوما بطريقة بدائية، يستخدم في أوپرا ما، لتقديمه الى حورية الغاب، فانني أفقد في اليوم التالي، شهيتي للطعام والرغبة في الرسم. تلاحقني طيلة أربع وعشرين ساعة، صورة ذلك الشيء الميت، ويا ليته ميت، إنه شيء لم يولد وليس له علاقة لا بالوهم ولا بالحقيقة. وأذا كان عليّ إيجاد رمز لفن المسرح، فاني أختار قرص العسل من «الكرتون». فهو عبارة عن أداة تعيسة حاولت مئات المرات أن تغدو في أعين المشاهدين عسلا، وأعيدت مئات المرات الى صندوق لوازم المسرح، موسخة، خائبة، لا ضرورة لها.وفي أفخر المسارح، كل شيء مغبر ومتسخ. إن مهنة التمثيل أصعب المهن وأتعسها. لذا فالممثلون بحاجة الى حياة اللهو والمجون والأكل والشراب، كالمحكوم عليهم بالإعدام دائماً وأبداً.

كانت لي علاقة بممثلة... (هنا، همهم العجوز بشيء، وكأنه يردد اسمها لنفسه وحسب، وإنطبقت أهدابه وتموج الضباب حول عينيه مرة ثانية).

كانت إمرأة رائعة، جريئة، رحبة الصدر في كل الأمور، ما خلا الأمور المتعلقة بالمسرح. كنت أرتاد المسرح من أجلها، مع أنني كنت أعاني كل العذاب حين أراها على خشبة المسرح. ذات يوم، كنت جالسا في الصف الأول، فرأيت كيف علق طرف ثوبها الطويل الأبيض بمسمار على الأرضية، أثناء تأديتها لدورها. شَعَرَتْ بأنها تَعَثَّرتْ، لكنها واصلتْ إلقاءها، وحاولت بحركة نزقة من قدمها تحرير طرف ثوبها. إن هذه الحركات

اليائسة التي كانت تقوم بها مثل حيوان وقع في الفخ، وهي تلقي أبيات شعر حماسية والعرق البارد يبللها، والذعر يتطاير من عينيها شررا، خشية حدوث «زلة» وفضيحة، بيَّنَتْ لي، في لمح البصر، لا جدوى هذا الفن.ولقد أفسد عليّ ذلك، لفترة طويلة، السعادة التي كانت تفيض بها علاقتي بهذه المرأة الرائعة التي لا أنساها.

- ...

- كانوا يقولون لي مرارا وتكرارا، يقولون ويكتبون، بأنني ميّال الى حد مفرط ومؤذٍ، الى الموضوعات الكئيبة والى مشاهد العنف والغموض. كانوا يكررون ذلك شفاها وكتابة، ببرودة أعصاب وبدون تفكير، كما يقوم الناس بمعظم الأمور.

في فترة ما، في مدريد، قبل اندلاع الحروب، كان الناس رجالا ونساء، أثناء الحديث، يسترقون النظر الى يدي، كي يتأكدوا من أن هذه اليد هي تلك اليد التي ترسم، أثناء الليل، بعون إبليس. هكذا كانوا يعتقدون، وكانوا يقولون أن آثامي التي لا يعرف بدقة ما هي أسماؤها وماهيتها، إنما هي من فعل الشيطان. في ذلك الزمان، ما كان لك أن تجد في اسبانيا كلها، انسانا أكثر مني تواضعاً وتخوفاً واستواءً. إي نعم. إستواءً.

ليس المهم أظن الناس بي كيت وكيت، أو قالوا عني كيت وكيت، إنما المهم هو أن ظنونهم وأقوالهم، دليل على عدم فهمهم للفن. ولا يصعب عليّ شرح ذلك.

إن جميع الحركات التي يقوم بها البشر، تنبع من حاجتهم الى الهجوم أو الدفاع. وحاجتهم هذه، هي المحرض الأساسي والفعلي والوحيد، لكنه يُنسى في معظم الحالات. والفن بطبيعته

عاجز عن تصوير آلاف الحركات الجزئية. فإن عزلت كل حركة عن الاخرى، لما كان في هذه الحركات كآبة أو شؤم. ولكن على كل فنان يريد أن يصوِّر ما صوّرته أنا، عليه أن يقدم لنا حركة تجمع وتلخص جميع تلك الحركات التي لا تحصى. إن هذه الحركة المتراصة، لا بد لها من أن تتضمن، بالضرورة، وبالحتم، منشأها الحقيقي: الهجوم والدفاع، والغضب والخوف. وبقدر ما يزداد عدد الحركات التي تُنْسَج وتُرَصّ في هذه الحركة، فإنها تزداد تعبيرا، وتزداد الصورة قوة على الإقناع. هذا هو منشأ المسحة الكئيبة على شخوصي وعلى مواقفهم وحركاتهم، وهي في الغالب مرعبة ومروعة. لأن ليس هناك، في الواقع، حركات مغايرة.

ويمكن القول أن هناك رسامين إقتصر تصويرهم على مناظر من حياة الريف والرعاة، التي يفوح منها الرضا، وعلى وجوه سهلة خالية من الهموم. وهذا واقع موجود. فلقد سبق لي أن صوّرت أحيانا عين هذه المناظر. لكن كل موقف من هذه المواقف المتحررة من الخوف والحذر الغريزيين، يتطلب ملايين الحركات القلقة، الدموية، حتى يتسنى لنا دعم هذا الموقف والدفاع عن جماليته المصطنعة وحريته العابرة. إن الجمال محفوف دائماً، إما بظلام مصائر البشر وأما ببريق دماء البشر. وينبغي ألا ننسى بأن كل خطوة إنما تقود الى القبر. وهذه الحقيقة كافية لتبرير سلوكي، ولا يمكن لأحد أن يدحضها.

ذات مرة، كنت أتسلى، فرسمت سطحا مائيا تؤلقه أنوار المساء، وعليه زورق، ووراء الزورق أثره المتموج على الماء. فإذا نظرت الى الرسم من بعيد، لا يتضح لك أي شيء، لا ترى

التفاصيل. أعطيت هذا الرسم لصديق، بشوش، مرهف الحس، وتركت له مهمة إيجاد إسم له. وبدون تلكؤ، أطلق عليه: «الرحلة الأخيرة»، مع أن الرسم لا يوحي بذلك لا من قريب ولا من بعيد.

- ...

- إن مهمة رسم الأشخاص، مهمة شاقة للغاية، عذاب مرير بالنسبة للرسام، عندما يعزل الشخص عما يحيط به وعما يربطه بالآخرين وبالبيئة. إن «تحرير» هذا الشكل، هو على حد تعبير صديقي «پاولو» نوع من أعمال المسيح الدجّال... عملية غير خلاقة. إن الطريق الطويلة التي يقطعها الإنسان - «الموديل»، إنما نجتازها نحن مرة أخرى، ولكن بإتجاه معاكس، إلى أن نخرج الشخص الذي «إصطادته» أعيننا إلى العراء، ونبقيه وحيدا مع نفسه وكأنه ينتظر سقوط المقصلة. عندها، نخلقه من جديد.

أما في الفنون الاخرى، فإن الإنسان يُعرضُ دائما، وهو على صلة بالآخرين. وكلما أزدادت النزعة الى إظهار أصالته وخصوصيته كلما إستدعى ذلك المزيد من تجديد علاقته بالغير لكي تتجلى خصوصيته. وبالعكس فإن الشخص موضوع اللوحة، هو وحيد، مقيَّد، معزول الى الأبد، لأنه بلا أب وبلا أم وبلا أخت وبلا ولد، وليس له منزل، وفاقد الأمل، وفي كثير من الأحيان دون أسم. فحين ينظر إلينا بعينيه الحيتين، فهو يمثل حياة سابقة، أطفئت، لكي يتسنى لها الديمومة. إنه الكائن الأخير، لا ليس الأخير، بل الكائن الحي الأوحد في العالم، في لحظته الأخيرة. إنه ينظر إليك دون حراك، نظرة حزينة، مذعورة، نظرة المريض الى الطبيب، وبهذه النظرة، وهي

الوسيلة الوحيدة لديه للتعبير، يقول لك: «إنك سوف تمضي، لتحيا وتعمل وتنقّل نظرتك من شخص لآخر، أما أنا فسوف أبقى هنا، محكوما عليّ ومقيّدا، كشاهد لا يعرف عنه إلا أسمه ومهنته وعمره، وفي جل الأحيان لا يعرف كلها.. سوف أبقى الى الأبد مجرد صورة، يا ليت هي صورتي، بل هي صورة كما رأتها عيناك».

إن الوحشة التي يعانيها الشخص على اللوحة، هي كبيرة الى حد، تدعو الرسام أحيانا، إلى إضافة شيء ما، له علاقة بالشخص ذاته، كرمز يساعد في تفسير نفسيته. ولقد لجأت بنفسي، بضع مرات الى هذه الطريقة، لكنني سرعان ما أدركت عبثها. لأن الأشياء والأدوات والدمى، يتبدل مع الزمن، ليس شكلها وحسب بل ومغزاها أيضاً، ويتجاوزها الزمن، ولا تعود مفهومة وتغدو هي ذاتها مستوحشة، وتسهم في المزيد من عزل الشخص موضوع الصورة.

مررت بمرحلة، كنت أحس فيها إحساسا شديدا بهذا التأطر وبعجز الشخص الذي ثُبّتَ على اللوحة، عجزاً أبديا عن السماع أو الكلام، فأغواني ذلك وبدأت أضيف على الصورة، كلمة أو كلمتين، أو إسما، أو عبارات تَسِمُ ذلك الشخص، فتُفسّره فيما بعد، بقدر أو بآخر، وتصله بالناظر. وسرعان ما أدركت سماجة هذه الطريقة وعبثيتها. ومن ثم بدأتْ تطاردني في الأحلام، تلك الكلمات التي وضعتها بإستخفاف، وكنت عاجزا عن محوها، لأن اللوحة لم تعد بحوزتي. كنت أنظر أمامي، فأرى ما ستثيره تلك الكلمات من ضحك لدى الناظر، إن كانت تقوى على الإثارة، لأنها ستفقد، عبر القرون معناها السابق وستصبح غريبة حتى عن النطق، بل وستجعل ذلك

الشخص التعيس على الصورة، أكثر بعدا وغرابة وعزلة.

وفي النهاية توصلت الى قناعة بأن لا دواء لذلك ولا عون. إننا إذ نصوّر شخصا، فإننا نقتله ببطء، بكل نظرة من نظراتنا، مثلما يقتل البيولوجيون الحيوانات عند تحنيطها. وعندما نميته تماما، يُبعَثُ حياً على لوحاتنا. لكن وحشة الإنسان على اللوحة، أمرّ من وحشة العظام تحت التراب.

هذه هي البراعة في رسم الأشخاص. ولهذا السبب لا يتوفق الرسام المبتدئ والرديء في رسم الأشخاص، لانه لا يستطيع فصل الشخص وعزله و «تحنيطه». هكذا يمكنك إكتشاف الرسم الرديء. فالشخص مضغوط على اللوحة، متشابك ومقيد ببيئة، وكأن جزءً منه يسعى إلى أن يواصل حياته فيها، لأن الرسام لم يوفق في تأدية المهمة الشاقة، وهي عزل الشخص وتحريره و «قتله» و «تأبيده».

- ...

- كان الشك يخامرني دوما، عندما كنت أسمع، أثناء حديث عابر، أن هناك ألف أسلوب في الرسم. من أين هذا الألف؟ ولماذا هو ألف بالتحديد؟ فإذا كان ثمة أكثر من أسلوب واحد، فثمة أكثر من ألف. فليس لذلك حدود. وما الفائدة من وجود ألف أسلوب طالما يلجأ كل منا إلى أسلوب واحد لا يعرف غيره. وهذا يعني أن لكل رسام أسلوبه. أما الذين يقولون بوجود ألف أسلوب، فإنهم لا يرسمون. إذن أنا في حلٍ من أمري.

كنت في أيام الشباب في جلسات المساء، أحاول شرح هذا الموضوع للذين يرغبون بالكلام، الذين لا عمل لهم ولا شاغل. لكنني حتى هذا اليوم، لا احسن التعبير كما ينبغي. عندما كنت

شابا كنت افتقد تماما القدرة على التعبير الواضح والمقنع أثناء الحديث. ومع ذلك ما كان يمكن لأحد إقناع هذا النوع من البشر. وما زلت أذكر، بأنني كنت أقول لهم حينها، بأن لي أسلوبا واحدا في الرسم، وهو أسلوب المرحومة خالتي/عمتي «أنونسياتا من فوينتا دي تودوس». ففي طفولتي، كنت أراقب خالتي/عمتي كيف تعلّم إبنتها (وكانت أكبر مني سناً بقليل) الحياكة على النول. كانت الطفلة الصغيرة تجلس الى النول وخالتي/عمتي بجانبها. وكان المكوك يطير يمنة يسرة وخشبة المنول تطرق. لكن صوت خالتي/عمتي كان يطغي على كل تلك القرقعة، إذ كانت تردد عند كل طرقة:

- رصّي، رصّي. كلما ترصّين أكثر فهو أفضل! رصّي ولا ترحمي.

كانت الصغيرة تطيع صاغرة، وتضرب خشبة المنول بكل قوتها، لكن الخالة/العمة لم يكن يعجبها العجب، وكانت تعتبر أن رصّ الصغيرة غير كافٍ، وتصرخ بأعلى صوتها:

- رصّي أكثر! كثّفي! أنت لا تنسجين منخلاً!

طيلة حياتي، كنت أرسم تحت شعار هذه المرأة البسيطة والصارمة. (فكل عمل قيِّم صاحبه صارم). فمهما هزأ نَقّاجُو وإصلاحيُو مدريد، بوصفة «الخالة/العمة من فوينتا دي تودوس»، إلا أنني أعرف بأن كل مرة كنت أطلق فيها لخيالي العنان، ولا أرصّ ولا أكثّف، كانت صوري رديئة. هذا لا يعني أن رسومي الاخرى كانت ناجحة، لكنني بذلت كل ما بوسعي لكي تكون ناجحة.

كانوا يقولون أنني أتجنب الصعاب من الأمور، وأؤثر بسهولة في النظارة، حيث أبرز حيزاً معيناً بصورة أقرب الى

الرسم الكاريكاتوري. الشطر الأول ليس بصحيح، والثاني صحيح جزئياً. انني لم أكن أتجنب الأمور الصعبة، إنما كنت أوجد لها حلولا، بكل أمانة. وعندما أوجد لها تلك الحلول، كنت أنسجها وأرصّها في ذلك الحيّز «المبرز». عليك أن تلاحظ أن كل صورة تشتمل دائما على حيز واحد فقط، يستحضر رؤيا الواقع، واقع الناظر. إن هذا الحيز فحسب، هو الحيز الهام والحاسم، شأن التوقيع على سند... وقد يقتصر هذا الحيز على العينين أو على يد أو على زر معدني بسيط مضاء بطريقة خاصة.

- ...

- إنني أشفق على نفسي إذ أتذكر كيف خُضت الحياة بكم ضئيل من المعرفة، وبكم كبير من الأحكام المسبقة والمطالب الخطيرة. لقد كان مجرد التفكير بالأمور الأساسية للحياة، إثما لا يغتفر. هكذا كان المجتمع. وقد لاءَمَني ذلك كوني دون خبرة ولي رغبات جمة. ولكن فيمابعد عندما أصغيت الى صرير مفاصل المجتمع، ورأيت شتى العجائب والمحن، بدأت أفكر واستنتج. حتى الحيوان، أي حيوان لو كان مكاني، لفعل ما فعلتُ.

لقد رأيت في لحظات مريرة جهل العظماء «أصحاب المآثر» ورأيت أيضا عجز وضعف وإرتباك «أصحاب القلم وأولي العلم». ورأيت المبادئ والنظم التي كانت تبدو أصلب من الجلمود، كيف تتبدد كالضباب أمام أعين الناس اللامبالين أو الحقودين، وكيف أن هذا الضباب الذي كان ضبابا حقيقيا منذ برهة، بدأ أمام نفس تلك العيون يتصلب ويتكوّن مرة أخرى كمبادئ مصونة، أمتن من الجلمود. ومن ثم رأيت الموت

والأمراض والحروب والثورات، وكنت أتساءل عن مغزى هذه التبدلات وعن الخطة التي تجري تبعا لها، وعن الهدف الذي تصبو اليه. لكنني توصلت الى استنتاج سلبي: إن فكرتنا في مسعاها لا تعني شيئاً كبيرا ولا تستطيع فعل شيء. كما توصلت الى استنتاج إيجابي: ضرورة استراق السمع الى الأساطير، أي متعابة آثار الجهود الجماعية للبشرية عبر القرون، واكتشاف مغزى حياتنا بقدر المستطاع.

فالأساطير تتكون عبر جميع الأزمنة، ببطء، كرواسب، حول بضعة طموحات تصبو البشرية اليها. ولئن كنت في حالة من الإرتباك، فترة طويلة، من جراء ما جرى حولي مباشرة، فإنني توصلت في النصف الثاني من حياتي الى الإستنتاج التالي: من العبث ومن الخطأ البحث عن المغزى في الأحداث غير الهامة التي تجري حولنا والتي تبدو هامة في ظاهرها، وإنما ينبغي البحث عنه في تلك الرواسب، التي تكونها القرون حول بضع أساطير رئيسية. إن هذه الرواسب، تُجَدِّد شكل تلك الذرَّة من الحقيقة، التي تتفق حول أصالتها (مع أن الأصالة تتضاءل باستمرار عند كل عملية تجديد) وتمرِّره عبر القرون. ففي الخرافات يكمن تاريخ البشرية الحقيقي، ومن خلالها يمكن التكهن بفحوى هذا التاريخ، إن لم يكن بالمستطاع إكتشافه تماما. هناك بضع أساطير أساسية تُبيِّن، أو على الأقل، تضيء الطريق الذي إجتزناه، إذا لم يكن بإمكانها تبيان الهدف الذي نعدو وراءه: أسطورة الخطيئة الأولى، أسطورة الطوفان، أسطورة مجيء إبن البشر وصلبه ليخلص العالم، أسطورة پروميتِه وإختطاف الروح من الصاعقة...

نطق العجوز الأطرش كلماته الأخيرة، بصوت عال جداً، ثم

صمت ونظر في البُعد، كما ينظر البحارة في عُرض البحر. وبدا وكأنه من خلال هذا الصمت، يسترق السمعَ لصوت الأساطير التي لا تحصى، والتي لا يتذكر أسماءها ولا يستطيع تعدادها. صمت طويلا، ثم أرخى نظره أمامه على الطاولة. بدا وكأنه عاد من مكان بعيد. وفي هذه اللحظة، لاح حول أهدابه ضباب خفيف، كل ما تبقى من إبتسامته المعهودة في أيام مضت، وواصل كلامه بأدنى طبقة صوتية يمكن للطرشان التكلم بها.

- أيام شبابي، كان الحديث حول هذه الأمور يجرى همسا، بين أناس يأتمن أحدهما الآخر. أما اليوم، ونحن في عام ١٨٢٨، فيستطيع الكلام من يشاء وبما يشاء. وهذا لا يعني، بالطبع، أن ليس لدى الناس اليوم موضوعات يتحدثون عنها همسا وعلى انفراد.

- ...

- كن على ثقة بأنني رأيت كل شيء وأنني لست عديم الشعور أو غبيا، إذا كنت لا استغرب ولا أثار بما أشاهد. فهذا من حقي. ولقد تملكتُ هذا الحق لأنني رأيت «كل شيء».عليك أن ترى الكثير لكي تدرك كل شيء. شاهدت الطبيعة وأمعنت النظر في المجتمع. إي نعم في المجتمع! إنني أعرف جميع قوانينه الخاصة بالتبلور. إنها تربكنا ببساطتها، ولسوف تربكنا حتى اللانهاية. إنني أسمع خطوات المجتمع، وهي مجرد تراوح في المكان، رغم صخبها وضجيجها. إنني أعرف الجماهير الكادحة، الصبورة، المسالمة. أعرف المتمردين الذين يسيرون بعكس التيار، وأعرف المجرمين، والمتسولين، والعاهرات. وأعرف ملوك وأمراء إسبانيا وبلدان اخرى. أعرف

جنرالات ووزراء إسبانيا وفرنسا، والأكثر من ذلك فاني أعرف رقباء ورائحة نُطُقِهِم والمراهم التي يدهنون بها شواربهم. إنني أعرف كل هذه الأمور، وليس يصعب معرفتها وفهمها. (لقد رسمت عددا كبيرا من الأشخاص من كافة الصنوف. وعندما أرسم شخصا، فإنني أرى لحظة مولده ولحظة موته. إن هاتين اللحظتين قريبتان إحداهما من الاخرى، بحيث لا تسمحان، فعلا، بإن تُدخل بينهما، نَفَساً أو حركة). غير أن هناك عالما يتوجب عليك التوقف عنده،ولا يمكنك فهمه، بل ستبجله بصمت،هو عالم الفكر. لان عالم الفكر، هو الواقع الوحيد في خضم هذه البهلوانية للرؤى والأشباح، التي تدعى بالعالم الفعلي. فلو لم يتوفر الفكر، فكري أنا، عندما يكوِّن ويدعم شكلا إرسمه، لانتهى كل شيء الى العدم الذي جاء منه، ولكان أكثر بؤسا من الألوان التي جفّت وتساقطت، ومن القماشة التي لا تعرض شيئاً.

....

- كنت قد عبرت الثلاثين، وقبل أن أمرض وأفقد سمعي، بوقت طويل، رأيت حلما عجيباً: غرفة، دافئة، مريحة، رائعة، تنمُّ عن ذوق النبلاء من حيث مفروشاتها والمزهريات والتحف الاخرى من الخزف الصيني. كان ورق جدرانها ضاربا الى الصفرة، مزخرفاً. وعندما أمعنت النظر في الزخرفة، وجدت أنها تتألف من حروف كلمة واحدة «Mors»، مكتوبة هكذا: Mors. كلمة تعني الموت، مكررة بعدد لا يحصى، ومخططة بأحرف صغيرة، بمنتهى الدقة. لكن ورق الجدران هذا، لم يعكّر جو الغرفة ولم يضفِ عليه أية كآبة، بل بالعكس. وكنت اتمنى أن يبقوني فيها أطول مدة. كنت أتحسس بيدي المنسوجات

والتحف من الخزف الصيني وتمتلئ نفسي سلاما ورضى، وهو أمر لا يتوفر إلا في غرفة تلائم رغباتنا.

كان قد مضى على ذلك الحلم ثماني سنين أو ربما تسع. مرضتُ، وطالت أسفاري، ورسمت كثيرا، ونسيت تماما ذلك الحلم العجيب. كنت أعيش وحيدا في دار منعزلة بالقرب من مدريد، وكنت مهجوراً، أعاني كبير العناء. لم أكن أعاني من الشر الذي يملأ العالم، وإنما من تفكيري بهذا الشر. كان كل تماس مع الناس، يلقي بي في جو من الخوف رهيب، لا يمكن تفسيره. كنت كل يوم أرى أشكالا جديدة للشر والتعاسة لا يمكن حدسها. كان كل منها يشد على بطني ويضغط على قلبي، طيلة أربع وعشرين ساعة، ويسمم نهاري وليلي، ثم تتلاشى، كأنها لم تكن، لتحل مكانها أشكال جديدة. كان يولِّد هذه المخاوف كل تماس، أو كل محاولة تماس مع الناس. وعندما كنت اتوحد، كانت تبزغ من مكان ما داخل نفسي.

ولكي أتغلب على المخاوف، مع إدراكي بأنها وهمية، وكان إدراكي هذا أكثر ما يعذبني، بدأت أرسم على جدران الغرفة الكبرى رسوماً «ضد الخوف». غطيت جميع الجدران بصور ورسوم ولم تَبْقَ مساحة فارغة حتى لموضع إبهام، بإستثناء مساحة صغيرة جدا فوق نافذة، على شكل مثلث غير منتظم، وكانت بهذا الشكل: (لأن الغرفة قد أعيد بناؤها وأحدثت النافذة في وقت لاحق). كنت قد نسيت منذ أمد بعيد حلمي الذي أبعدتني عنه سنين وليالٍ بأحلامها التي تهيم عندما «ينام العقل». ومع هذا، لم أرسم في هذه المساحة الصغيرة المتبقية، لاوجها ولازخرفة، وإنما خططت كلمة MORS،وكأنني قمت بذلك بناء على إتفاق مسبق، أو بأمر

من جهة ما. خططت هذه الكلمة كما فرض الحيّز، وكما رأيت ذلك في الحلم: MORS. وكانت هذه الكلمة بمثابة تميمة أبعدت عني المخاوف، الى أن تعافيت ورجعت الى صوابي، حيث لا حاجة للتمائم.

- ...

- كنت أتساءل دوما، عندما أخالط الناس، عن سبب عجز الفكر وعدم قدرته على الدفاع، ولماذا هو مفكك في ذاته، ومنبوذ من المجتمع في جميع الازمنة، وغريب عن غالبية الناس، فتوصلت الى هذا الإستنتاج: إن عالمنا هو عالم القوانين المادية ومملكة الحيوان، لا مغزى له ولا هدف. الموت هو نهاية كل شيء. فكل ما يمتّ الى الفكر والتفكر بصلة، وُجد هنا بمحض الصدفة، كما تلقي الأمواج بمن نجا من ركاب سفينة غارقة، ركاب متحضرين، بملابسهم وأدواتهم وأسلحتهم، الى شواطئ جزيرة نائية، مناخها مختلف تماما، تقطنها وحوش ضارية ومتوحشون. لذا فإن أفكارنا جميعها تحمل سمات عجيبة مأساوية، سمات الأشياء التي أنقذت من السفينة الغارقة. انها تحمل ايضا سمات العالم الآخر المنسي الذي إنطلقنا منه، في وقت مضى، وسمات الكارثة التي أودت بنا الى هنا، وكذلك الصبوات اللامجدية المستمرة للتكيف مع العالم الجديد. فهي في صراع دائم مع هذا العالم الجديد الذي هو خصم لها في جوهره، وجدت نفسها فيه، وتحاول في ذات الوقت التلاؤم والتكيف معه. لهذا السبب فإن كل فكرة عظيمة ونبيلة، هي غريبة ومعذَّبة. ولهذا السبب أيضا يخيّم الحزن على الفنون والتشاؤم على العلوم.

كان الظلام قد خيّم كامـلا، ولم ألاحظ ذلك. لكن مـحدثي، كسائر الكهلة، كان حساسـا إزاء تبدّل أوقات النهار والزمن. وكانت جميع الأصوات حولنا قد غابت في نفس اللحظة. ومع هذا الصمت الذي خيّم، غاب صوت «غويا». نهض عن كرسيه وغادر بكل هدوء. حتى أن زحزحة كرسيه لم يصدر عنها أدنى صوت. غادر ببساطة، كما يغادر المدمنون على ارتياد المقاهي، قائلا: الى اللقاء. كانت قبعته طيلة الوقت على رأسه وكانت يده اليسرى تقبض على عصاه.

وبعد قليل غادرت أنا أيضاً.

أمضيت النهـار التـالي، منفـعـلا، بإنتظار المسـاء، لمتـابعـة الحديث مع السيد العجوز. وعندما غاب آخر شعاع شمس عن أولى الصواري، هرعت الى تلك الضاحية النائية.

كان السيرك قد بدأ يستقبل زواره من عمال ومتفرغين وجنود من زنوج المستعمرات. وكان يسمع هسيس المصابيح الغازية التي أضيئت عند المدخل، مع أن النهار كان ما يزال في الشفق. وكانت الفراشات تحوم حول المصابيح، ومن تحتها الأطفال يمرحون.

وكان المقهى خاليا من روّاده تقريبا، فجلست الى طاولة الأمس، وطلبت مشروبا من مشروبات المناطق الحارة التي تُبرِّد الى حد يثير العطش، والتي لا تترك في النفس ذلك الرضى الذي يعد بها لونها وبايجاز مشروب، اسمه هو أجمل خصائصه. جلست بعض الوقت هادئ الأعصاب، ولكن مع مرور الوقت بدأ يقيني بقدوم شيخ الأمس يتزعزع، وبدأت خيبة الأمل تعذبني رغم أني لا أملك حق العتاب. تذكرت كل ما قاله

العجوز مساء البارحة ورددت في نفسي كل ما أنوي طرحه عليه من أسئلة. آنئذٍ، فكرت لأول مرة، بأن أسجل ما رواه عليّ.

هبط الظلام، وأضيء أول مصباح بجانب المرآة، فوق دُرج النقود. ولكي أتغلب على لحظات الانتظار الضائعة، طلبت حبرا وورقاً. وبدا الأمر وكأنني طلبت وجبة طعام غير مألوفة، وقرأت في وجه ا لنادل وكأنه يريد أن يقول: إننا لا نقدّم مثل هذه الوجبات. ثم دار نقاش بينه وبين صاحب المقهى، فأرسله هذا الى منزله المتصل بالمقهى من باب خلفيّ، وأحضر ما كنت أحتاج اليه. كانت الأوراق من الحجم الكبير، مشتراة «بالرخصة» من محل أعلن إفلاسه، والمحبرة ضخمة لا يوجد لها الآن مثيل، وريشة سوداء صدئة، رفيعة كلسان أفعى.

غادرت المقهى في ساعة متأخرة، بعد قضاء ساعتين في الكتابة، بإنتظار مجيء محدثي العجوز الذي جالسني مساء أمس. وكان صاحب المقهى قد تعشى وبدأ يلعب الشدّة مع بعض من زبائنه على طاولة فرشها بقماشة خضراء.

كان الشارع مقفرا. أما حوالي السيرك، فقد تجمّع جمهور صاخب، تحت تلك المصابيح الغازية التي صبغ نورها الوجوه بلون شاحب، والعيون ببريق زائف، فبدت ناعسة. ولاح لي، في نهاية هذا الجمع، عجوز مقوّس الظهر يرتدي عباءة غريبة الشكل، يتكئ على عصا، وعلى رأسه قبعة كبيرة. وفجأة غاب عن نظري. فعدوت في ذلك الإتجاه أشق طريقي بين جمهور المتفرجين المسمّرة عيونهم فيما يجري في حلبة السيرك. تسللت بين الناس، وكنّا نتدافع، وجُلْتُ المكان كله، فلم أعثر على العجوز. غير أن رجلا قصير القامة، يرتدي لباس

الرياضة، كنت قد توقفت بجانبه وأنا ألهث، إنهال عليَّ مؤنباً:

ـ ماذا تفعل يا رجُل؟ أنشَّال أنت؟

لم يكن أمـامي إلا أن أتخلـى عن فكرة البـحث عن إنســان يتعذر العثور عليه.

عُدتُ الى المدينة منهكا، وفي صبـاح اليـوم التـالي غـادرت بوردو الى الأبد.

رسالة من عام ١٩٢٠*

شــهــر آذار/مــارس عــام ١٩٢٠ .مــحطة القطار في سلافونسكي برود. انتصف الليل قبل قليل وهبّت ريح هوجاء، بدت للمنهكين من قلة النوم وعناء السفر، أبرد وأشد مما هي عليه. وفي الاعلى، كانت النجوم تنبجس خلسة من بين الغيوم الطائشة. وفي البعد، كانت الاضواء الصفراء والحمراء تتناوب في حركة مستمرة بين الارصفة، يرافقها صفير حاد تطلقه القاطرات، ونضفي عليه نحن المسافرين كآبة الارهاق وقنوط الانتظار الطويل اليائس.

---

* نُشرت هذه القصة أول مرة عام ١٩٤٦ . وموضوعها هو ظاهرة الكراهية المتفشية منذ القديم في البوسنة خصوصاً. فإثر نشوب الحرب البوسنية عام ١٩٩٢ ، قُرئتْ هذه القصة قراءة جديدة، وأثار تعدد العناوين على المخطوطة الأصلية بخط المؤلف، الموجودة بين أوراقه المودوعة لدى «الأكاديمية الصربية للعلوم والفنون»، أثار فضول الدارسين والباحثين لأعمال أندريتش الأدبية.
فعلى رأس الصفحة الأولى عنوان : «على المسار الضيق»، لكنه مشطوب. كما أن الجملة الأولى، بداية القصة، وردت في المخطوطة: «شهر آذار/ مارس عام ١٩١٩ ، ثم شطب رقم ١٩ وكُتب فوقه رقم ٢٠ . ولكن على ظهر الصفحة الأخيرة عنوانان: الأول هو الكراهية وقد شطب أيضاً. أما الثاني فهو عام ١٩٩٢ ولم يشطب.
لم يجمع دارسو وباحثو أعمال أندريتش حتى الآن على تفسير لهذا العام الذي لم يشطب. فريق يذهب إلى أن المؤلف كان في حيرة بين وضع أحداث قصته في الماضي أو في المستقبل، فاختار الماضي. وفريق يرى أن هذا التاريخ يتوافق مع مرور قرن على مولده (١٨٩٢ - ١٩٩٢)، فلهذا ابتغى أن يكرس هذه القصة لهذا اليوبيل. وفريق ثالث يرى في هذا التاريخ مجرد نبوءة. علماً بأن أندريتش قد رحل عن هذه الدنيا عام ١٩٧٥ . (المترجم)

كنا جالسين على حقائبنا بجانب الرصيف الاول، ننتظر القطار الذي لا نعلم متى يصل ولا متى يغادر.. لكننا نعلم مسبقاً بأنه سيكون مكتظاً بالمسافرين وامتعتهم.

إن الشخص الجالس الى جانبي، وهو صديق قديم لم أره منذ خمس سنوات أو ست، إسمه ماكس لِڤنفلْد، طبيب إبن طبيب، وُلِد في سراييڤو وترعرع فيها. كان أبوه قد غادر ڤيينا، طبيباً شاباً، وقصد سراييڤو وبقي فيها، وزاول مهنته وذاع صيته. أما أمه، فهي من تريستا، إبنة بارونة إيطالية وأب ضابط في البحرية النمساوية، سليل أسرة فرنسية مهاجرة. إن الجيلين الاخيرين في سراييڤو يحتفظان بذكرى قدّ تلك المرأة المشوق ومشيتها الرشيقة وملبسها النفيس. لقد كان جمالها من ذلك النوع الذي يُنظر إليه بكل احترام وحياء، حتى من قِبل أصفق الناس وأجلفهم، وهم في العادة عديمو الاحترام والحياء.

جمعتني به ثانوية سراييڤو، وكان يتقدمني بثلاثة صفوف. ولهذا الفارق أهمية كبيرة بالنسبة لتلك السن.

أتذكر، بغير وضوح، أنني لحظته فور دخولي الثانوية، وكان قد ترفّع الى الصف الرابع، وما يزال يرتدي ملابس ولادية. صبي قوي البنية، ألماني القسمات، يرتدي «بَحْرية» زرقاء داكنة، ياقتها العريضة تتدلى على الكتفين وتزيّن زاويتيها مرساتان مطرزتان، وسروالا قصيراً، وحذاءً أسود بغاية الاناقة، وجوربين أبيضين قصيرين. وكانت ساقاه ممتلئتين قوة، يغطيهما زغب أشقر.

حينها، لم يكن بيننا تماس مباشر، وما كُتب له أن يكون. فكل شيء كان يباعد ما بيننا: العمر، المظهر، العادات، مكانة

الاهل الاجتماعية، الغنى والفقر...

لكنني أتذكره بمزيد من الوضوح، في مرحلة لاحقة، عندما كنت في الصف الخامس، وكان هو في الصف الثامن. حينها كان قد صار شاباً طويل القامة، عريض المنكبين. كانت عيناه الزرقاوان تنمّان عن حساسية مفرطة وروح حيوية. وكان حسن اللباس ولكن دون تكلف، وشعره الاشقر الغزير يتدلى خصلا لا تستقر في وضع معين. فهي تارة ترفرف على الجانب الايمن من وجهه، وتارة أخرى على جانبه الايسر.

إلتقينا أثناء نقاش دار بين رفاقنا من الصفوف العليا، وكنا متحلقين حول مقعد في حديقة عامة. لقد كانت مناقشاتنا تتخطى جميع الحدود وكل الاعتبارات وتقلب المفاهيم. وكانت العبارات الحماسية تهدم صروح الفكر من اساساتها. وما أن تنتهي المناقشة، حتى يعود كل شيء الى موضعه. غير أن العبارات الحماسية هذه، كانت لها أهميتها بالنسبة لنا وبالنسبة للمصير الذي ينتظرنا، كأنها إيذان بأعمال جسام وكفاح مرير وتيه طويل أمامنا.

ذات مرة، رافقني ماكس في طريق عودتي إلى منزلي، بعد انفضاض إحدى تلك المناقشات، وكنت حينها أرتعش من شدة الانفعال ونشوة النصر (بنفس الحمية التي أظهرها خصمي في المناقشة). وكانت هذ المرة الاولى التي بقينا فيها لوحدنا. لقد أطراني ذلك وأجج نشوة انتصاري وضاعف اعتزازي بنفسي. وبدأ ماكس يستفسر عما أقرأ من كتب، وهو يتفحصني بنظرته، وكأنه يراني لاول مرة. أجبته وعلائم الإضطراب بادية عليّ. فتوقف وحدق في عيني، وقال بلهجة هادئة غريبة:

- إنك لم تقتبس بأمانة إرنست هِكِل.

شعرت بالخجل، وخُيّل لي أن الارض تنزلق تحت قدميّ ثم تعود الى مكانها. فيقيناً أن اقتباسي لم يكن أميناً. لقد قرأته في كراس رخيص، ولم أنقله بأمانة، والارجح أن ترجمته رديئة. وتحول شعوري بالنصر الى تأنيب ضمير وشعور بالخجل. رمقني بعينيه الزرقاوين بنظرة خالية من الشفقة، ولكن دون أي أثر للمكر أو الشعور بالتفوق، وكرر اقتباسي التعيس بشكله الصحيح. ولما اقتربنا من بيته الجميل على ضفة نهر ميلياتسكا، ضغط بقوة على يدي، ودعاني لزيارته بعد ظهر الغد ليريني كتبه.

يا لها من متعة حقا! لقد رأيت، لاول مرة في حياتي، مكتبة حقيقية، ورأيت فيها مصيري: عدد هائل من الكتب الالمانية وقليل من الكتب الايطالية والفرنسية تخص والدته. لقد أخذ ماكس يريني ذلك كله، بهدوء حسدته عليه، أكثر من حسدي على كتبه. لا. لم يكن ذلك حسداً، بل شعوراً برضاً لامتناه ورغبة جامحة في أن أجول، يوما ما، في عالم الكتب التي تشع بالنور والدفء. وأخذ يتكلم بطلاقة، وكأنه يقرأ في كتاب، وراح يجول، دون تباه في عالم الاسماء الشهيرة اللامعة والافكار العظيمة، بينما كنت أنا أرتعش من الاضطراب، خجلا من هؤلاء العظام الذين أدخل بينهم، خائفا من العالم الذي تركته في الخارج والذي لا بد من أن أعود إليه.

تكررت زيارات الاصيل لرفيقي الاكبر مني سناً، بل وأخذت تتقارب. وسرعان ما أتقنتُ اللغة الالمانية، وبدأت أقرأ الكتب الايطالية. كنت أحمل معي الى منزلي الفقير، الكتب الاجنبية الفاخرة التجليد، فأهملتُ المواد الدراسية وتخلفتُ في

الدراسة. إن كل ما قرأتُ قد بدا لي حقيقة مقدسة وواجباً سامياً لا أستطيع التحرر منه، فيما إذا كنت أحرص على كرامتي وإيماني بنفسي. وكنت أوقن بأن عليَّ أن أقرأ كل ما يتاح لي من كتب، وأن أكتب مثلها أو ما هو شبيه بها. وقد استعبدتني هذه الفكرة طيلة حياتي.

ذات يوم من أيام أيار/مايو، (كان ماكس يستعد لامتحان الثانوية النهائي، من غير انفعال أو جهد ملحوظ) قادني إلى خزانة للكتب، صغيرة، منعزلة في ركن، كُتب عليها بحروف ذهبية: طبعة «هليوس» الممتازة. وأتذكر أنه قال، بأن الخزانة قد اشتُرِيَتْ سوية مع الكتب. لقد بدت لي الخزانة شيئا مقدساً، يشع النور من خشبها. أخرج ماكس مجلداً لغوته، وأخذ يقرأ قصيدة پرومثيوس، بصوت ما ألفته عنده من قبل. ويكتشف المستمع على الفور، أن ماكس كان قد قرأ هذه القصيدة، عددا من المرات لا يُحصى:

احجبْ سماءك يا زِفْس،
بظلمات السحاب،
وامتحنْ قواك على السنديان والجبال!
ولكن، عليك أن تدع لي،
أرضي،
وكوخي الذي لم تبنِهِ أنت لي،
ومأواي الذي تحسدني
على لهب موقده!

وفي النهاية، أخذ يضرب بقبضة يده، ضربات قوية موزونة، على ذراع المقعد الذي كان يجلس عليه، وكان شعره يتدلى على جانبي وجهه المتورد:

ها أنا حيث أجلسُ،
أخلق بشراً على صورتي
نسلاً كفوءاً لي
يكابدُ ويبكي،
ينعمُ ويفرح،
ولا يلتفتُ إليكَ
مثلي أنا!

لم أره من قبل، على هذه الصورة، فكنت أصغي إليه باعجاب وببعض الخوف. ثم خرجنا الى الشارع وواصلنا في الغسق الدافيء، حديثنا عن القصيدة. رافقني حتى شارعي المنحدر، ثم رجعنا ثانية حتى ضفة النهر، وعاودنا ذلك مرات عديدة. هبط الليل وقلَّ عدد المارة في الشارع، ونحن نذرع الطريق جيئة وذهابا، ونتحدث عن مغزى الحياة وأصل الآلهة والبشر. أتذكر جيداً لحظة بعينها، حين وصلنا أول مرة، الى زقاقي الوعر، وتوقفنا عند سياج رمادي مائل.. أتذكر أن ماكس مدَّ يده اليسرى أمامه، وقال لي بدفء، كأنه يأتمنني على سر من أسراره:

- إنني ملحد.

كانت أزهار البيلسان تتدلى بكثافة على حوافي السياج المائل، ناشرة عبيرها القوي الذي يشبه، في نظري، رائحة الحياة ذاتها، وكانت الامسية مهيبة، هدوء من حولنا، وسماء من فوقنا مرصعة بنجوم، بدت لي، جديدة. ولشدة انفعالي لم أستطع أن أتفوه بحرف. غير أنني شعرت بأن شيئاً هاما قد حدث بيني وبينه، وأن لا يمكن لنا أن نفترق ببساطة، ليذهب كل الى بيته. وهكذا بقينا نتمشى حتى ساعة متأخرة من الليل.

إنفصل أحدنا عن الآخر حينما أنهى ماكس الثانوية وسافر الى ڤيينا لدراسة الطب. تراسلنا لفترة قصيرة، ثم صمت كلانا. ولما كنا نلتقي أثناء العطل الدراسية، كانت لقاءاتنا خالية من الود الذي ألفته من قبل. ثم جاءت الحرب، ففرقت بيننا تماماً.

والآن، وبعد مضي بضع سنين، ها نحن نلتقي في هذه المحطة القبيحة المنفرة. لقد انطلقنا من سراييڤو بنفس القطار، ولم نكن ندري بذلك، الى أن التقينا هنا بمحض الصدفة، بانتظار قطار بلغراد الذي لا نعرف متى يصل!

حكى كل منا للآخر، ببضع كلمات، كيف قضى فترة الحرب. فماكس كان قد أنهى دراسته في العام الاول للحرب، والتحق بالخدمة في الافواج البوسنية، متنقلاً على طول الجبهة النمساوية كلها. توفي أبوه أثناء الحرب، إثر إصابته بالتيفوس، فغادرت أمه سراييڤو الى تريستا حيث تعيش مع ذويها. أما هو، فقد قضى الشهور القليلة الماضية في سراييڤو، لتصفية أموره. فبعد أن حصل على موافقة أمه، باع دار أبيه على ضفة ميلياتسكا، وقسماً كبيراً من أثاثها. وها هو الآن قاصد تريستا ومنها الى الارجنتين أو ربما إلى بوليڤيا. لم يتكلم صراحة عن نواياه، غير أنه عازم على مغادرة أوروبا الى الابد.

لقد ازداد ماكس ضخامة واخشوشن. وكانت ملابسه أشبه بملابس مقاول. وتمكنتُ، من خلال الظلام، أن أتبين رأسه الضخم بشعره الاشقر الغزير. إن صوته قد ازداد عمقاً ورجولة، وأن لهجته، لهجة أهالي سراييڤو، قد تغيرت أيضاً: فلقد باتت الاحرف الساكنة أكثر ليناً، وحروف العلة أطول مداً.

ما زال ماكس، حتى الآن، يتكلم بطلاقة، كأنه يقرأ، وكثيراً

ما يستخدم مصطلحات غير مألوفة وتعابير كتبية وعلمية. لقد كان ذلك، كل ما تبقى من ماكس الذي كنت أعرفه. فلا ذكر للشعر والكتب (لم يعد أحد يذكر پرومثيوس). تكلم أولاً عن الحرب عموماً، بمرارة شديدة، لاحت في الصوت اكثر منها في الكلمات.. مرارة لا يتوقع بأنها سوف تجد من يفهمها. (لم يكن في هذه الحرب الكبرى، حسب وجهة نظره، جبهات متعادية، لانها اختلطت وانصبّت احداها في الاخرى وانصهرت كلياً.لقد أعمت النكبة الشاملة بصره، وشلت لديه القدرة على تفهم الامور الاخرى.) أذكر أنني صُعقت لمّا قال أنه يهنيء المنتصرين، لكنه يرثي لحالهم، لان المهزومين هم على بينة من أمرهم ويعرفون ما عليهم فعله، أما المنتصرون فلا يدرون بما هو آت. كان يتكلم بنبرة لاذعة وبلهجة انسان قانط، انسان مُنيَ بخسارة فادحة، فيحق له أن يقول ما يشاء، وهو على علم مسبق بأن أحداً لا يستطيع إيذاءه، ولا مساعدته في محنته. فلشد ما ازداد بعد هذه الحرب الكبرى، عدد الحقودين بين المثقفين، وحقدهم هو من نوع خاص، حقد ينصبُّ على أمور غير محددة. إن هؤلاء لم يكونوا قادرين على قبول الواقع وعلى التكيُّف معه، ولا على اتخاذ قرار معاكس. لقد بدا لي ماكس، في تلك اللحظة، واحداً منهم.

وسرعان ما تعثّر حديثنا، لان أحداً منا ما كان يرغب في أن يتشاحن مع الآخر، أثناء هذا اللقاء السريع، بعد غياب طويل. لذلك أخذنا نتحدث عن أمور اخرى، وبالاحرى كان هو الذي يتحدث. كان يتكلم كعادته، بعبارات منتقاة وبجمل معقدة، كانسان يقضي جل وقته مع الكتب، وقليله مع الناس، فلا يحوم حول الموضوع ولا يُنمّق، فكأنه يقرأ عليك من مرجع طبي

أعراض مرض ما.

قدمت اليه سيجارة فرفض بنزق وتقزز. وبينما كنت أشعل سيجارة من أخرى، كان هو يتكلم بتكلف، كأنه يكتشف معاني أفكار اخرى أكثر غموضاً:

ـ ها نحن أمسكنا بقبضة الباب المؤدي الى عالم كبير. إننا نغادر البوسنة، أنا بغير رجعة، أما أنت فسوف تعود.

ـ من يدري؟

تساءلت وأنا مستغرق في التفكير، يستحثني غرور الشباب الذين يرون قدرهم في أقصى البقاع وعلى دروب غريبة. لكن صاحبي أجاب إجابة الواثق، كأنه يشخص مرضاً ما:

ـ كلا إنك عائد، لا محالة! أما أنا فسوف تلازمني ذكريات البوسنة طيلة حياتي، مثل مرض بوسني، لا أدري مسببه الحقيقي.. ألأنني وُلِدت في البوسنة وترعرعت فيها، أم لانني لن أعود إليها أبداً؟ الامر سيان في النهاية.

ففي مكان غير عادي، وفي وقت غير عادي، يصبح الحديث غير عادي أيضاً، ويقترب من حديث يجري في المنام. نظرت بطرف عيني الى وجهه المظلل الضخم المتشنج، وجه رفيقي الجالس بجانبي، وفكرت، فما وجدت إلا شبهاً ضئيلاً بينه وبين ذلك الشاب الذي كان يضرب بقبضة يده وهو ينشد: «احجب سماءك يا زفس..». ثم فكرت بما سيحل بنا إذا ما استمرت الحياة تبدلنا من جذورنا بمثل هذه السرعة، فتصورت أن التبدلات التي تطرأ عليَّ، هي وحدها التبدلات الحسنة والصحيحة. وبينما كنت أفكر في ذلك كله، تنبهت فجأة إلى رفيقي الذي كان قد عاود الكلام، فتخلصت من أفكاري

وأصغيت إليه بكل انتباه، حتى ما عدت أسمع ضوضاء المحطة.. كنت لا أسمع غير صوته يترجع في هذه الليلة العاصفة:

ـ نعم. لقد كنت أعتقد فعلاً، دهراً طويلاً، بأنني سأمضي حياتي، مثل أبي، في علاج أطفال سراييڤو، وبأنني سأترك عظامي، مثله أيضاً، في مقبرة كوشيڤو. لكن ما شاهدته وعشته أثناء خدمتي في الافواج البوسنية، أيام الحرب، جعلني أتردد. وبعد أن سُرحتُ الصيف الماضي، فأمضيت شهوراً ثلاثة في سراييڤو، تبين لي بأني لن استطيع البقاء والعيش هنا. كما أن مجرد التفكير بأن أعيش في ڤيينا أو تريستا، أو في أي مدينة نمساوية اخرى، يثير في القرف،..القرف حتى درجة التقيؤ. لهذا السبب، بدأت أفكر بأمريكا الجنوبية.

فسألته دون مراعاة لمشاعره، بالطريقة التي تعود عليها أبناء جيلي في طرح أسئلتهم:

ـ هل يمكن معرفة سبب هروبك من البوسنة؟

ـ يمكن معرفته. لكن ليس من السهل ابداؤه، هكذا بشكل عابر.. في محطة.. وبايجاز. ولكن، إن كنت مضطراً لان ألخص بكلمة واحدة ما يدعوني على ترك البوسنة، لقلت: الكراهية.

نهض ماكس فجأة، كأنه اصطدم أثناء كلامه، بحاجز غير مرئي. وعدتُ بدوري الى واقع الليلة الباردة في محطة سلاڤونسكي برود. كانت الريح قد ازدادت شدة وبرودة، وكانت الاضواء تنبجس من البعيد وتومض، والقاطرات الصغيرة تصفّر. غابت السماء ونجومها، وحل مكانها ضباب ودخان.. غطاء يليق بهذه الارض المنبسطة التي يغوص الانسان في تربتها السوداء الخصبة حتى عينيه.

تأججت بداخلي، رغبة جامحة لدحض ادعاءاته، مع أن هذه الادعاءات لم تكن واضحة بالنسبة لي كل الوضوح ولا مفهومة كل الفهم. صمتنا في حالة من الارتباك. صمت ثقيل الوطأة، يلفنا في الليل البارد، بانتظار مبادرة مني أو منه لكسر طوقه.

في تلك اللحظة، سُمع هدير القطار السريع، آت من بعيد، ثم صفيره الممدود المكتوم، كأنه آت من مجرى تحت الارض. وفجأة دبَّت الحياة في المحطة. مئات من البشر ينهضون من خلال الظلام، ويتدافعون لملاقاة القطار. وثبنا نحن الاثنين أيضاً، وانضممنا الى هذا السيل الذي جرفنا وباعد ما بيننا، حتى اني كنت مضطرا للصراخ بأعلى صوتي، لاعطي ماكس عنواني في بلغراد.

بعد حوالي عشرين يوماً، تلقيت مغلفاً سميكاً، لم استطع معرفة مرسله قبل فضه. لقد كتب لي ماكس، رسالة من تريستا، باللغة الالمانية:

«العزيز، صديقي القديم،

حينما التقينا، بالصدفة، في سلافونسكي برود، كان الحديث الذي جرى بيننا، مفككا ومرهقا. وحتى لو كان ظرف اللقاء أفضل وأطول مدة، لما كان لنا أن نتفاهم، أو أن نجلي الامور كلها. فلقاؤنا غير المتوقع، وافتراقنا على نحو مفاجيء، قد حالا، حيلولة تامة دون ذلك.

إنني أتهيأ لمغادرة تريستا، وسوف أذهب الى باريس، ولي فيها أقارب من طرف أمي. فإن سُمح لي، كونني أجنبياً، بمزاولة مهنة الطب، سوف أبقى في باريس، وإلاّ، سأذهب فعلا إلى أمريكا الجنوبية.

لا اعتقد أن هذه المواقف اللامترابطة التي أسجلها الآن

على وجه السرعة يمكنها توضيح الامر توضيحا كاملاً، وتبرير «هروبي» من البوسنة في نظرك. ولكن، رغم ذلك، سوف أرسلها إليك، لشعوري بأني مدين لك برد. وإذ أتذكر أيام المدرسة، فإني أحرص على أن لا تسيء فهمي، فتعتبرني مجرد «شقابا»[1]، يهوى «حزم الحقائب»، ويغادر ببساطة، البلد الذي وُلِد فيه.. يغادره في لحظة بدء الحياة الحرة فيه، وفي ظرف يتطلب حشد جميع الطاقات.

لانتقل، فورا، الى صلب الموضوع. إن البوسنة بلد رائع، ممتع. وهي ليست بلداً عادياً، لا من حيث طبيعتها ولا من حيث أناسها. وكما أن جوفها يخبيء كنوزاً من الخامات، كذلك فإن انسانها ينطوي، من غير شك، على قيم أخلاقية جمة، يندر وجودها لدى اشقائه في البلدان اليوغسلافية الاخرى.

ولكن، ثمة مسألة، يجب على البوسنيين، إن لم يكن جميعهم، فعلى الاقل، الذين من صنفك، أن يدركوها وأن لا تغيب عن بالهم قط: أن البوسنة هي بلد الكر اهية والرعب. ولكن، لندع الرعب جانباً، لان الرعب ملازم للكراهية، وهو صداها الطبيعي، ولنتكلم عن الكراهية. نعم. عن الكراهية. إنك ترتعش وتثور عند سماعك هذه الكلمة (لقد لاحظتك تلك الليلة في المحطة)، ويرفض كل منكم سماعها وفهمها وإدراكها. وهنا تكمن المشكلة: إذ لا بدّ من ادراك هذه الظاهرة وتحديد معالمها وتحليلها. وفيها أساس البلية: إذ لا أحد يريد ذلك ولا يستطيع ذلك. وهنا تكمن خاصيتها القاتلة: حيث أن الانسان البوسني لا يعي بأن الكراهية تعيش في داخله، فهو يشمئز حتى من فكرة تحليلها، بل ويكره كل من يحاول ذلك. ومع هذا، ثمة

(١) إسمٌ يُشتم به الألمان في البلقان.

حقيقة، لا بد من ذكرها: إن في البوسنة والهرسك، من هو على استعداد لان يَقتُل أو يُقتَل، في شتى المناسبات، مدفوعا بكراهية باطنية، متذرعاً بأسباب مختلفة، وأن عدد هؤلاء هو أكبر من عددهم في أي بلد سلافي أو غير سلافي آخر، يفوق بلدهم مساحة وتعداداً في السكان.

إنني أعرف أن للكراهية، كما للغضب، وظيفة في تطور المجتمع، ذلك أن الكراهية تولّد العزيمة، وأن الغضب يحفز الحركة. فثمة ظواهر قديمة، عميقة الجذور، كما هو الحال مع الظلم وسوء المعاملة، لا يمكن استئصالها وجرفها إلا بعواصف من الكراهية والغضب. وحين تهدأ هذه العواصف وتتلاشى، يتوفر المناخ لممارسة الحرية، ولحياة أفضل. ولئن كان المعاصرون يعرفون أكثر من غيرهم، الكراهية والغضب على حقيقتهما، لكونهم يعانون منهما، فإن الاجيال القادمة لن ترى سوى ثمار العزيمة والحركة. إنني ملم بذلك كل الالمام. غير أن ما شاهدته في البوسنة، قضية مغايرة. انها كراهية من نمط آخر، لا علاقة لها بالتطور الاجتماعي وبلا مرحلة حتمية من مراحل التاريخ، وانما هي تصول وتجول كقوة لها كيانها المستقل، تجد غايتها في ذاتها... كراهية تحرّض انساناً على أخيه، ثم تلفظهما معاً الى البؤس والتعاسة، أو تدفنهما معاً تحت التراب.. كراهية أشبه بالسرطان في جسم الكائن الحي، تنهش وتهلك كل ما حولها، وفي النهاية تفني حتى نفسها، لانها كاللهب، لا صورة لها دائمة، ولا حياة خاصة بها.. إنها مجرد أداة لنزعة الافناء أو التدمير الذاتي. فلا وجود لها إلا بهذه الصفة، ووجودها يستمر الى أن تنجز مهمتها، ألا وهي الافناء الكامل.

نعم. إن البوسنة هي بلد الكراهية. هذه هي البوسنة. وقلة هي البلدان التي تتميز بهذا التباين العجيب (وهو في الحقيقة ليس عجيباً، اذ يمكن تفسيره بسهولة، باجراء تحليل دقيق) بين هذا الكم من المعتقدات الراسخة، والخلق المتين، والحب المتقد، والمشاعر العميقة، والاخلاص المتفاني، والتعطش للعدالة، وبين ما يختبئ تحت ذلك كله، في الاعماق اللاشفافة، من عواصف وأعاصير من الكراهية المكتومة والمكبوتة، التي تنمو، وتينع، حتى يحين ميعادها. إن بين حبكم وكراهيتكم، هي نفس النسبة الكائنة بين جبالكم الشاهقة والترسبات الجيولوجية الدفينة التي ترقد عليها، وهي أكبر من تلك الجبال ألف مرة. وكما ترى، لقد حُكم عليكم بأن تعيشوا على طبقات من المتفجرات التي تشعلها من وقت لآخر، شرارات حبكم وعواطفكم المتأججة التي لا ترحم. ولعل محنتكم الكبرى، هي أنكم لا تحسون بمدى الكراهية الكائنة في حبكم ونشوتكم وتقواكم وتقاليدكم. وكما أن الارض التي نحيا عليها، تنفذ بفعل رطوبة الجو وحرارته، إلى أجسادنا، وتعطيها اللون والمظهر، وتحدد الطباع واسلوب الحياة وقواعد السلوك، كذلك فان الكراهية العاتية الدفينة اللامرئية، التي يعيش عليها الانسان البوسني، تنسل خلسة وبطريق ملتوية، الى جميع تصرفاته، حتى الى الفضلى منها. إن الرذائل تولِّد الكراهية في كل مكان، لانها تهلك ولا تخلق، تهدم ولا تبني. ولكن في بلد كما هي البوسنة، حتى الفضائل تتكلم وتقنع بالكراهية غالباً. إن نُسّاككم لا يستخلصون الحب من نُسكهم، وانما الكراهية يصلون بها الفساق. إن الذين لا يتعاطون المسكرات يكرهون الذين يتعاطونها، كما أن السكارى يكرهون العالم

أجمع كرها قاتلاً. ومن يؤمن ويحب، يكره حتى الموت، من لا يؤمن أو من يؤمن بشكل مغاير، أو يحب أمراً آخر. فجل ايمانهم وحبهم يستنفذ، للأسف، في الكراهية. (إذا بحثت عن الوجوه الشريرة والكئيبة، تجدها قرب المعابد والاديرة والتكايا). إن الذين يضطهدون ويستغلون الاضعف منهم، يمارسون الكراهية أيضاً، مما يجعل استغلالهم أضنى وأقبح مائة مرة. أما الذين يتحملون هذا الظلم، فانهم يحلمون بالعدل والثأر، بانفجار انتقامي، لو تحقق حسب تصورهم له، لاودى بالمضطهَدين والمضطهِدين على حد سواء. لقد تعود معظمكم على حفظ كراهيته لمن هو بقربه. إن مقدساتكم، هي دوما، خلف الانهار والجبال، أما مرامي كراهيتكم فهي قريبة منكم، في نفس البلدة، وغالباً على الجانب الآخر من سياج فناء الدار. إن حبكم لا يبحث عن مآثر، أما كراهيتكم فانها تنتقل من القول الى الفعل، بغاية السهولة. إنكم تحبون بلدكم حباً جماً، ولكن بأساليب ثلاثة أو أربعة مختلفة، يلغي أحدها الآخر، ويكره بعضها بعضاً، وغالباً ما تتجابه فيما بينها.

في إحدى قصص غي دي موپاسان، وصف ديونيزسي[٢] للربيع، ينتهي بتوصية تدعو الى لصق اعلانات في جميع زوايا الشوارع، يكتب عليها: «أيها المواطن الفرنسي، لقد حل الربيع، فحذار من الحب!» فلعله ينبغي في البوسنة، تنبيه الانسان لكي يحذر الكراهية عند كل خطوة وفي كل فكرة وفي جميع المشاعر حتى أسماها.. أن يحذر هذه الكراهية الباطنية الفطرية المستوطنة. لان هذا البلد المتخلف الفقير، الذي توجد

(٢) نسبة الى ديونيزس اله الخمر عند اليونان، وتستعمل عادة للدلالة على الفجور والعهر. (المترجم).

فيه أربعة أديان مختلفة، لهو بحاجة الى حب وتفاهم متبادل وتسامح، أكثر بأربع مرات من أي بلد آخر. أما في البوسنة فالحالة عكسية. إن سوء التفاهم الذي يتحول، بصورة مؤقتة، الى كراهية، صفة عامة تقريباً لجميع البوسنيين. والفجوات بين الاديان، عميقة الى حد، قد تفلح الكراهية وحدها باجتيازها أحياناً. قد يقول قائل، أن تقدما ما بدأ يلوح في هذا المجال، وأن أفكار القرن التاسع عشر قد فعلت فعلها هنا أيضاً، وأن جميع الامور سوف تسير الآن، بعد نيل الحرية وتحقيق الوحدة، نحو الافضل، بشكل أسرع. غير أنني لست متأكداً تمام التأكد. (لقد رأيت بنفسي، خلال الشهور القليلة الماضية التي قضيتها في سراييڤو، واقع العلاقات بين الناس من مختلف الاديان والقوميات!) سوف تُكتب لافتات وسوف تتردد شعارات مثل: «الإخاء فوق الاديان»، «احترم ما لغيرك واعتز بما هو لك»،«الوحدة الوطنية أقوى من الفروق بين الاديان». ولكن ما الفائدة من ذلك؟ فلقد كانت أوساط الطبقة الوسطى في البوسنة، تلجأ دائماً الى المجاملة الزائفة، وتخدع نفسها والآخرين، بعبارات رنانة وطقوس فارغة. إن هذه الاساليب تستر الكراهية بشكل أو بآخر، لكنها لا تقضي عليها ولا تحول دون نموها. واني لاخشى أن تستفحل النزوات القديمة وخطط «قاين»، التي تتظاهر بالنوم تحت غطاء تلك الشعارات. فلا نهاية لها إلا بتبدل كامل لاسس الحياة المادية والروحية. ولكن متى سيحين ذلك، ومن ستتوفر له القوة لتحقيقه؟ لا شك أنه سيحين يوما ما، ولكن ما شاهدته في البوسنة، لا يشير إلى أن الامور سائرة على هذا الدرب. بل بالعكس.

لقد فكرت ملياً بهذا الامر، ولا سيما في الاشهر الاخيرة،

حينما كنت أتصارع مع القرار بمغادرة البوسنة الى الابد. ومن ينشغل بهذه الافكار، لا يطيب له نوم. كنت مستلقياً بجوارنافذة مفتوحة في الغرفة التي وُلدت فيها، وكان خرير مياه ميلياتسكا يتناوب مع حفيف أوراق الشجر الكثيفة التي تعبث بها ريح الخريف المبكر.

فمن يمضي في سراييڤو ليلته يقظاً، متمدداً على فراشه، لا بد أن يسمع أصوات الليل في هذه المدينة. أولا، دقات ساعة الكاتدرائية الكاثوليكية، دقات عالية محكمة، تعلن الثانية بعد منتصف الليل. وبعد دقيقة ويزيد، وبالتحديد، بعد خمس وسبعين ثانية (كنت أعدُّها) تأتيك دقات أضعف من الاولى، لكن صوتها حاد ونافذ، هي دقات ساعة الكنيسة الارثوذكسية، تعلن الثانية بعد منتصف الليل أيضاً. بعد ذلك بقليل، تعلن دقات ساعة البرج قرب جامع البكوات، بصوت أجش يأتي من بعيد، الساعة الحادية عشرة، حسب توقيت تركي عجيب، خاص بمناطق غريبة نائية. أما اليهود، فليس لهم ساعة تدق، ولا يعلم إلا الله، كم هي الساعة عندهم: كم هي بتوقيت الأشكناز، وكم هي بتوقيت السفرديم. فاثناء الليل، بينما الجميع ينام، يسهر الفرق بالتوقيت، ليفصل بين الناس النائمين الذين في يقظتهم يمرحون ويحزنون، يولمون ويصومون، وفق تقاويم أربعة مختلفة ومختصمة فيما بينها، ويتجهون برغباتهم وابتهالاتهم نحو سماء واحدة، بلغات كنسيَّة أربع مختلفة. إن هذا الفرق يكون مرئياً وجلياً أحياناً، لا مرئياً وباطنياً أحياناً أخرى، لكنه شبيه بالكراهية دوماً، متطابق معها غالباً.

إذن، يجب دراسة ظاهرة الكراهية البوسنية والقضاء عليها، كأي مرض خبيث متأصل الجذور. وإني أعتقد بأن

العلماء الأجانب، على استعداد للمجيء الى البوسنة، لدراسة هذه الظاهرة، دراستهم لداء الجذام، فيما لو جُعلت الكراهية موضوعاً خاضعاً للدراسة والبحث، كما هو الحال مع الجذام.

فكرت بأن أجند نفسي لدراسة ظاهرة الكراهية وتحليلها واخراجها الى وضح النهار، علني أسهم في عملية القضاء عليها. وربما كان هذا واجبا عليّ. فرغم كوني أجنبي الاصل، لقد رأت عيناي النور في هذا البلد، كما يقال. ولكن، بعد محاولات أولى وتفكير ملي، وجدتُ أن لا حول لي ولا قوة على ذلك.كان سيطلب مني، كما يطلب من الجميع، أن أنحاز الى جانب ضد آخر، أن أكون مكروهاً وأن أكره. وهذا ما لا أريده ولا استطيعه. ربما قد أوافق، اذا اقتضى الامر، على أن أكون ضحية للكراهية، ولكن أن أحيا في الكراهية ومع الكراهية وأن أشارك فيها، فهذا ما لا استطيع. ومن لا يستطيع أن يكره، أو من لا يريد متعمداً أن يكره، يعتبر في البوسنة اليوم، غريبا وشاذاً على الدوام، بل ومكابداً في غالب الاحيان. إن هذا يسري عليكم أيها البوسنيون الاصيلون، وعلى الوافدين خاصة. وهكذا، بينما كنت أسمع في إحدى ليالي الخريف الماضي، الى ساعات أبراج سراييڤو، استنتجت بأني لا استطيع البقاء، بل ولا ينبغي لي أن أبقى في البوسنة، موطني الثاني. ولست ساذجاً الى حد يجعلني أنشد بلدة لا كراهية فيها. لا. فأنا لا أبتغي إلا مكاناً استطيع فيه ا لعيش والعمل. أما هنا فلا أستطيع أيا منهما.

إنك سوف تكرر باستهزاء، أو ربما، بازدراء، عبارة «هروبي» من البوسنة. إن رسالتي هذه ليس بوسعها أن تشرح لك تصرفي وأن تبرره، لكن ثمة في الحياة مناسبات، ينطبق

عليها المثل اللاتيني القديم «في الهروب النجاة».

رجائي الوحيد أن تصدقني، بأني لا أهرب من واجبي الانساني، بل لكي استطيع تنفيذه بالكامل وبدون عائق.

أتمنى لك ولبوسنانا، شعبا ودولة، كل السعادة في الحياة الجديدة».

المخلص لك

م.ل

مر نحو من عشر سنوات، ما كان يخطر فيها رفيق طفولتي على بالي إلا نادراً، وكدت أنساه تمام النسيان، لولا الفكرة الاساسية لرسالته، التي كانت تذكرني به من حين لآخر. وحوالي عام ١٩٣٠ ،عرفت عن طريق الصدفة، ان الدكتور ماكس لِڤنفلِد مقيم في باريس، وله في ضاحية نويّي عيادة مشهورة، وهو معروف في أوساط جاليتنا وعمالنا اليوغسلاف باسم «طبيبنا». فهو يكشف على العمال والطلاب مجاناً، ويؤمن لهم، بنفسه، الادوية عند الضرورة.

ومضت سنوات سبع أو ثمان أخرى. وبطريق الصدفة أيضاً علمت بما حل به. فعندما بدأت الحرب الاهلية في اسبانيا، ترك كل شيء وتطوع في الجيش الجمهوري، وكان يسهر على تنظيم مراكز الإسعاف والمستشفيات، فذاع صيته لغَيْرته ومهارته. وفي أوائل عام ١٩٣٨، بينما كان يمارس عمله في منطقة أراغون، في بلدة لم يستطع أحد من جماعتنا اليوغسلاف نطق اسمها، شُنت غارة جوية، في وضح النهار، على مستشفاه، فقضت عليه سوية مع جميع جرحاه تقريباً.

هكذا ختم حياته انسان هرب من الكراهية.

على مستشفاه، فقضت عليه سوية مع جميع جرحاه تقريباً.
هكذا ختم حياته انسان هرب من الكراهية.

يمكن اعتبار هذه المسرحية اليتيمة، من فصل واحد، هامشاً من هوامش سيرة اندريتش العاطفية. يفترض أنه كتبها بين عامي ١٩١٤ و١٩١٨ .كما يفترض أن ڤاندا ڤيتكوڤسكا إنما هي هيلين ايرجيكوڤسكا (وهي من كراكوف، وكان أندريتش قد قضى في هذه المدينة فترة من فترات دراسته) التي أرسلت له برقية تهنئة بمناسبة نيله جائزة نوبل للآداب. وقد عُثر على هذه البرقية بين طيات مخطوطة المسرحية.

(المترجم)

خيط كوميديا

ستانكوڤيتش (٢٨ عاماً. يرتدي روب دو شامبر).

ڤاندا (٢٤ عاماً في فستان مخملي، بلا قبعة، تتكلم بصوت جهوري دلالة الثقة بالنفس).

(نهار خريفي مشمس يقترب من نهايته. تدندن بيد واحدة على لوحة مفاتيح البيانو، ملتفتة بوجهها نحو المائدة).

ڤاندا: إنكَ تهذي.

ستانكوڤيتش: لا! إني أقول الحقيقة!

(ڤاندا تبتسم. وشأن الذين لا يتكلمون إلا قليلاً، فإن ابتسامتها مميزة جداً، اذ تبدأ في عينيها الزرقاوين الكبيرتين الوديعتين ثم تتسع لتشمل وجهها الكبير كله، الى أن تتركز بين أسنانها الطويلة الناصعة البياض، فيزداد لمعانها وبريقها).

ستانكوڤيتش (بغضب ونزق): علامَ تضحكين؟

ڤاندا: لأنك تبالغ في كل شيء، لأنك ترى ما لا يراه غيرك، لأن كلامك هراء!

ستانكوڤيتش: تابعي، تابعي!

ڤاندا: ليس لدي المزيد.

ستانكوڤيتش: طبعاً! حتى أني فوجئت بهذا الفيض.

ڤاندا: ماذا تبتغي؟

ستانكوڤيتش: لا يمكن للمرء أن يبتغي منك أي شيء.

(ڤاندا تضحك)

ستانكوڤيتش (يستفزه ضحكها، ينهض، يتفوه بعبارات متقطعة في البداية، هادئة فيما بعد، وكأنها حصيلة تفكير طويل):

أرجوكِ أن لا تضحكي! فأنت لا تجيدين حتى الضحك. أتدرين البتةَ ماذا تفعلين؟

(ڤاندا تضحك)

ستانكوڤيتش (كما مر أعلاه):

إسمعي يا ڤاندا! أعلمُ أنك لن تفهمي شيئاً مما سأقول.لأنك لا تفهمين شيئاً يتجاوز عقلك النيّر ومعدتك السليمة وأسنانك البيضاء. انك عاجزة عن فهم أي شيء. فأنّى لكِ أن تفهمي ما يعذب وينهش قلب انسان؟ لا، لا! دعيكِ من الأعتذارات فليس ثمة داع لإذلال نفسك. أنتِ عاجزة عن فهم ذلك، مثلما أنا عاجز عن فهم أيٍّ من آرائك وخطواتك في حياتك. إن ذلك كله بعيد عني كل البعد ومبهم كل الابهام. تظنين أنني أهذي لما أقول لكِ أن معاشرتك تذلني وتفنيني وأن لا بد من قطع علاقتنا.

(ڤاندا تضحك)

ستانكوفيتش (بصوت أجش): لا تضحكي يا ڤاندا! لا تضحكي! فأنا لستُ على شاكلة أصحابك الآخرين، ولست مثل صاحبك الأخير ألسندريتي.

(وثبت ڤاندا من على مقعدها واكتسب وجهها الساكن إمارات الدهشة والذل)

ڤاندا: تكذب! فأنت تدري بأني لم أكن لا ملكهم ولا ملكك!

ستانكوڤيتش (يزداد اهتياجاً ويزداد صوته ارتفاعاً):

طبَعاً. أنتِ محقة. فلم تدعيني قط. أجل، فأنتِ محقة دوماً. إنكِ لم تدعيني لأنك لا تعرفين كيف تدعين أيا كان، لا بفاكِ ولا بيديك. أجل، انت محقة كأي محامي، لكنك لستِ محقة تجاهي. (يدنو منها). اعترفي أمامي بأنك لم تدعيني قط!

ڤاندا (تبتعد): كفى !

ستانكوڤيتش (منتش، مزهو مع امارات ألم):

أجل، كفى يا أيها الهمجي، يا أيها المزعج، يا صاحب الصوت الراعد. حقائقك غير مكتوبة، عارية، بدون إطار. لقد دعوتينني يا ڤاندا. دعوتينني مائة مرة بشعرك، بحركاتكِ، بالحانكِ، بخواطركِ، ونسيتِ أنك دعوتينني. وها أنت الآن تستغربين لماذا أنا هنا وما أبتغي.

(ڤاندا تسترجع هدوءها وتنظر الى الساعة).

ستانكوڤيتش: أجل، لقد ضجرتِ. انسان لا يُطاق. همجي. وها هي الساعة قد تجاوزت الخامسة. عليكِ أن تغادري بعد قليل. فألسندريتي ولاود «يدوزنان» التشيللو والكمان، والصالون مرتص بالنساء الحاسدات وبالرجال المعجبين. ان الجميع يتلهفون لإطلالتك، إطلالة الآلهة أثينا ونابوليون. ولكن، قبل أن تغادري، عليكِ أن تصغي إلي للمرة الأخيرة، أن

تسمعي كل شيء، لأني لا أستطيع أن أحمّل نفسي عبء أمور معلقة. عليك أن تصغي لأني قد قررت أن أتحرر من عبودية ملكوتك الأخرس البليد. لقد قررتُ ذلك وتحررتُ على الفور. إني أحتبس طويلاً تقززي وحنقي، ناظراً إليك في ضوء حقيقي حيث أراك على حقيقتك من بُعدٍ. واليوم هو يوم قول الحقيقة المتوارية الدفينة كالألم.

ڤاندا (تومىء وكأنها تهم بالرحيل): آه

ستانكوڤيتش: ها هي الكراهية تخيفكِ، تخيفكِ أنتِ أيضاً! إن الكراهية أمر جيد، مفيد. ان الكراهية الصادقة تحررنا وتديم حياتنا. ففي ضوئها رأيتكِ وقيَّمتكِ، واكتشفت سرك، سر نجاحك الذي تدفنينه وراء صمتك: فما أنتِ إلا حيوان محبوب، قوي، متوحش، لا مبالي، يتعاطى الموسيقى.

ڤاندا (تدنو منه): كُفْ...

ستانكوڤيتش (يقاطعها): أجل، إني أعرف جيداً أنك امرأة ذات مجد، قديرة، موهوبة، مشهورة، مخلوق بلا قلب، بلا روح، بلا فكر،وأعرف ان مواهبك ونجاحاتك انما هي بفضل لحمكِ، لحمكِ، لحمكِ!

ڤانداً: إخجلْ!

ستانكوڤيتش (بمرح): أنت لحم، وشرائح، وبيض، وتينيس، وحليب، وحمّام، ومشاوير. (يكتئب وجهه ويكتسب ملامح المشفق). إنك تتفوقين علينا جميعاً، كون دمك أغزر من دم أيٍّ منا، كونك فاقدة الروح فلا عائق أمامك، لا يعيقكِ لا الشك ولا الرأفة. لا وجود لأي شيء في نظرك، لا وجود للعالم، ولا للاله، ولا للبشرية. ليس ثمة في نظرك، سوى وحش قوي، صموت، أحسنتْ تربيته، يدعى ڤاندا ڤيتوڤسكا.

(تبدو ڤاندا وكأنها نسيت كل طرق الدفاع عن النفس، أعطته ظهرها، وتابعت الإصغاء).

ستانكوڤيتش (يواصل): يا آنسة ڤاندا ڤيتوڤسكا، أنتِ التي ما أحببتِ ولا تفهمتِ ولا عطفتِ قط على إنسان، أنتِ التي لا تعرفين إلا نفسك، لا تعرفين إلا «النوتات» والتنيس واللغة الانكليزية. وأكرر: لا تعرفين إلا نفسك. وبما أن روحك عبارة عن صحراء صقيعة، تمرين بين الناس كجثة دافئة، لا تعرفين العذاب ولا الأثم ولا الحب، لذلك فقد كرهتك كرهاً صادقاً من أعماق صدري. ان كراهيتي لكِ قد مكّنتني من أن أتحرر من ذاك السحر الذي تمارسيه على كل من تلتقين. لقد نمتْ هذه الكراهية في نفسي، فجمعتُ قواي لكي أقول لكِ ما سمعتِ، ولكي أمحيكِ من حياتي. والآن (ينهض، وبصوت راعد، وبايمائة من يده) إنصرفي! (يشمخ ويومىء بيده) إنصرفي!

(تفقد ڤاندا، لأول مرة ابتسامتها، تتجه، وهي مرتعدة، نحو خزانة الملابس، أولاً، ثم نحو الباب).

ڤاندا: أنا...؟

ستانكوڤيتش: ما بكِ؟ «أنا»! فمنذ هذا اليوم ثمة «أنا» واحدة فقط (يومىء بيده) «أنا» واحدة منذ هذا اليوم والى أبد الآبدين. أما «أنتِ»، «أنتِ» فسوف تتبخر (يومىء بيده). يا آنسة ڤاندا ڤيتكوڤسكا، لقد غابت الشمس، وليس من المستحب أن يفاجئك الظلام وأنتِ في منزل سيد أجنبي. الساعة الآن السادسة والربع !



الفهرس

